معارك العرب ضد الغزاة

دكتور محمد عمارة

دار قتيبة

معارك العرب
ضد الغزاة

معارك العرب ضد الغزاة

دكتور محمد عمارة

دار قتيبة

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨

توزيع
دار قتيبة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - ص.ب: ١٣٤١٤
بيروت - ص.ب: ١٣٥٠١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

حقيقة لا يعيد التاريخ نفسه، ومهما تشابهت أحداث الماضي بأحداث الحاضر فإنها ليست تكراراً معاصراً وحديثاً لوقائع التاريخ القديم. غير أن في الحياة البشرية وما يكتنفها من صراعات قوانين عامة وموحدة تحكم ما في هذه الحياة من صراعات، ولذلك كان الوعي بهذه القوانين أمراً ضرورياً لفهم واقع الصراعات المعاصرة، وتقدير احتياجاتها وضروراتها والبصيرة بمستقبلها وتطورها، ومن ثم تحصيل وامتلاك الأدوات اللازمة لجعل نهايات هذه الصراعات في مصلحة الشعوب والقوى المتقدمة في هذه الحياة.

فالوعي الضروري واللازم والمطلوب، إذاً، هو الوعي بقوانين التاريخ. وإذا كانَ الأمر خاصا بذلك الصراع العميق والعنيف القائم في عصرنا الراهن بين الشرق العربي وبين الاستعمار، بشكليه القديم والحديث، وإذا كان هذا الصراع قديما، وليس وليد عصرنا الراهن فقط، فإن الوعي بالقوانين التاريخية التي حكمت هذا الصراع، خصوصاً في العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث، يصبح أمراً ضرورياً وملحاً لإدارة أحداث الصراع الراهن لمصلحة الإنسان العربي، وحتى تمكن ليقظته الحديثة من القيام وصد الغزو الاستعماري الحديث كما تمكنت يقظته في العصور الوسطى من هزيمة الموجة الاستعمارية التي جاءته في ذلك الحين مستترة بستار الدين.

فالقضية إذا ليست مجرد قراءة التاريخ الذي يحكي صراع العرب ضد

الاستعمار الذي جاء إلى العالم العربي في العصور الوسطى تحت ستار صليب المسيح، وفي بداية العصر الحديث خلف رايات التجارة وسفن التجار، وإنما القضية هي الوعي بالقوانين التي حكمت هذا الصراع، وذلك من خلال تقديم الصفحات البارزة التي سجلت المعارك الكبرى والأساسية في فصول هذا الصراع، وهي المهمة التي نحاول النهوض بها على صفحات هذا الكتاب.

فالأمر إذاً ليس ترفاً فكرياً يقدمه الكاتب إلى القارىء حول هذه الصفحات من التاريخ، وإنما هي محاولة نستعين فيها بالمنهج العلمي في دراسة التاريخ، على استخلاص القوانين العامة التي حكمت صراع العرب ضد الغزاة منذ الحروب الصليبية حتى بدايات عصرنا الحديث [من معركة «حطين» حتى معركة «رشيد»..] وذلك كي يسهم الوعي بهذه القوانين في تحصيل أسباب النصر في الصراع الذي يعيشه الإنسان العربي في هذه الحقبة الراهنة من حقب التاريخ..

والمسألة ليست تعسفاً في صياغة هذه القوانين، أو تعداد العناصر والكليات والإدعاء بأنها هي القوانين التي حكمت هذا الصراع، وإنما الأمر الذي تنهض به صفحات هذا الكتاب هو عرض صفحات المعارك الكبرى التي دارت في صراعنا ضد الغزاة، من «حطين» إلى «رشيد»، مستندين في ذلك إلى أقدم وأوثق المصادر التي شاهد أصحابها وعاصروا هذه المعارك، وشاركوا عملياً أو فكرياً في هذه الصراعات، ثم ترك الأمر بعد ذلك للقارىء يستخلص من هذه المعارك القوانين التي حكمت الصراع بين أطرافها، وأيضاً تقدير الصالح والجوهري من هذه القوانين كي نستعين بها ونعي على ضوئها صراعنا الراهن فنوجه أحداثه تجاه النصر الذي نأمله، كما صنع أسلافنا ضد موجات الغزو التي اجتاحت وطننا في زمنهم، فانتصروا عليها في المعارك الكبرى التي يتحدث عنها هذا الكتاب.

* * *

فمنذ قرون طويلة وعصور موغلة في أعماق التاريخ كان الصراع قائماً بين الشرق والغرب، ولقد ظلت لهذا الصراع دوراته وموجاته ومعاركه رغم تعدد النظم والحضارات التي شهدتها مواطن الغزاة الذين ظلت أعينهم جميعاً على الشرق طامعين في ثرواته وكنوزه وموقعه الاستراتيجي الذي يحكم مركز هذا الكوكب الذي نعيش فيه.

ولقد كان صراع الغرب ممثلاً في الدولة البيزنطية ضد الشرق ممثلاً في الدولة الفارسية القديمة، فصلاً من فصول هذا الصراع، امتد على طول قرون عديدة سبقت ميلاد المسيح.. ولقد استطاع الغرب بقيادة الاسكندر الأكبر المقدوني أن يحرز في القرن الثاني قبل الميلاد انتصاراً باهراً للغرب ضد الشرق عندما كون امبراطوريته الشرقية الواسعة الأرجاء.. وهي الامبراطورية التي جعلت سيادة الغرب تدوم أكثر من ثمانية قرون..

وعندما ظهر الإسلام تسلح العرب بأسلحته المادية والمعنوية وأخذوا على عاتقهم مهمة تحرير الشرق من نير الحكم البيزنطي، ففتح المسيحيون المصريون أذرعهم لجيش عمرو بن العاص، ونصروه ضد البيزنطيين، وحارب عرب سوريا الغساسنة ـ وهم نصارى ـ في صفوف الجيش العربي المسلم ضد نصارى الروم، وفي مدة وجيزة استطاع العرب أن ينفضوا عن كاهل الشرق رداء الغزو الاستعماري الغربي الذي ألقاه على كاهله الاسكندر الأكبر في القرن الثاني قبل الميلاد.

وفي العصور الوسطى، وعلى امتداد قرنين من الزمان (١٠٩٦ ـ ١٢٩٢م) تجدد الصراع من جديد، وجاء الغرب الاستعماري هذه المرة متخفياً تحت صلبان المسيح، محاولاً ستر أطماعه الاستعمارية الاستيطانية بالدين، ومتسلحاً في هذه الموجة الجديدة بفروسية الإقطاع وفرسانه في العصور الوسطى، وبعد أن أحرز الانتصارات، واستولى على مساحات من الأرض أقام عليها الإمارات الصليبية اللاتينية، التي فصل بها المشرق العربي عن مصر والمغرب، وبعد أن قبض بواسطة بورجوازيته ومدنه التجارية على مقدرات التجارة العالمية المارة بالشرق العربي، بعد أن تم له ذلك استيقظ الشرق،

فتسلح بأسلحة ذلك الصراع، وقامت في الوطن العربي تلك الأنظمة من الحكم التي استندت إلى الفروسية والفرسان، فكانت الدولة «النزنكية - «النورية» بالمشرق العربي، و«الدولة الأيوبية» في مصر والمشرق العربي.. وكانت المعارك الفاصلة التي حسمت هذه الموجة من موجات ذلك الصراع لصالح العرب ضد الغزاة الغربيين..

وفي صراع الغرب الاستعماري هذا ضد العرب والعروبة، استعان بالأقليات والقبائل والفئات العنصرية التي لا يكن لها أي ود، ولا تربطه بها أية روابط فكرية، كما حدث عندما تحالف مع «التتار» الوثنيين ضد العرب الذين يدينون بدين سماوي؟!.. كل ذلك في سبيل الغزو والاستعمار والاستيطان..

وفي بدايات العصر الحديث تعرض الشرق العربي لموجة جديدة من الغزو الغربي، رفع أصحابها هذه المرة رايات التجارة والتجار. فكان ذلك الصراع القائم والمستمر منذ حملة بونابرت على مصر ثم الشام.. وفي هذه الموجة والمرحلة من هذا الصراع استعان الغرب، ولا يزال، بالأقلية العنصرية المتمثلة في اليهود الصهيونيين، رغم تاريخ هذا الغرب في اضطهاد اليهود، وحصرهم في بلاده ومدنه بالجيتو كالمنبوذين، وصفحات تاريخه المليئة بالعداء للسامية.. كل ذلك، أيضاً، في سبيل الغزو والاستعمار والاستيطان..

وطوال جميع مراحل هذا الصراع كانت عين الغزاة على مصر، تحاول عزلها عن المشرق العربي، حتى لا تتم للعرب قوتهم بوحدتهم، فكانت الكيانات الصليبية قديما تمتد من البحر المتوسط حتى ميناء «أيلة» على خليج العقبة، وحديثاً تقوم في هذا الموقع الدولة الصهيونية لتحقق نفس الأهداف، وهي تطمح في التمكين لهذا العزل بإعطاء «الجدار العازل» المزيد من العرض والطول؟!..

وطوال المعارك التي شهدها هذا الصراع كانت وحدة الجبهة القومية العربية، وبالذات وحدة المشرق مع مصر، وتساند الجبهة الشرقية مع الجبهة

الغربية هي المقدمة الضرورية لإحراز النصر على هذا الغزو الاستعماري وذلك الجسم الغريب المزروع قسراً في قلب الوطن العربي الكبير.

* * *

ونحن لن نستطرد في هذا التقديم لنتحدث عن القوانين العامة والكلية التي حكمت وتحكم ذلك الصراع الحضاري والسياسي والعسكري الدائر بين الشرق والغرب منذ قرون وقرون.. وإنما نترك ذلك لصفحات هذا الكتاب التي تقدم هذه القوانين للقارىء من خلال الحديث عن المعارك، وذلك حتى تكون لدى القارىء الإمكانية في التطبيق على واقع الصراع الذي نعيش فيه..

وما أوجه الشبه بين استراتيجية الأعداء بالأمس واستراتيجيتهم اليوم... وأوجه الشبه بين يقظة الشرق في العصور الوسطى ويقظته المعاصرة المنشودة... وأوجه الشبه بين معارك الأمس ومعارك اليوم والغد... ما هذه الأشياء التي يستخلصها القارىء من صفحات هذا الكتاب إلا التعبير الدقيق عن وحدة القوانين التي حكمت وتحكم ذلك الصراع التاريخي والطويل بين الغرب الزاحف على الشرق لاستعماره واستغلاله وبين الشرق العربي المناهض والمناضل ضد كافة أشكال الغزو وألوان الاستعمار.. وبقدر نجاح هذه الصفحات في استعادة قوانين ذلك الصراع إلى الذهن العربي المعاصر، لاستخدامها في الصراع الراهن، يكون النجاح الذي نتوخياه من وراء كتابة هذه الصفحات.

القاهرة ـ فبراير ١٩٧٢م

دكتور
محمد عمارة

معركة القادسية

[١٥هـ ٦٣٦م]

قبل ظهور الإسلام كان الخطر والتحدي يحيط بالعرب من كل الجهات، ويتقدم شيئاً فشيئاً ليهدد حريتهم واستقلالهم، بل ووجودهم بالزوال!..

ففي الشرق: كانت الامبراطورية الفارسية تسيطر على عرب العراق والخليج، وفي بعض الفترات امتدت سيطرتها إلى اليمن في الجنوب..

وفي الغرب والشمال: كان الروم البيزنطيون يفرضون سيطرتهم على عرب الشام..

وفي الجنوب: احتلت الحبشة، لفترات طويلة، جنوب شبه الجزيرة العربية - [اليمن] -...

ولم يبق حراً ومستقلاً من بلاد العرب سوى وسط شبه الجزيرة، الذي كان وعراً وفقيراً وصحراوياً، تسكنه قبائل شديدة المراس في الحرب، عاشقة للحرية، رافضة لأية قيود تفرضها أي حكومة من الحكومات، خصوصاً إذا كانت هذه الحكومة غير عربية.. ومع ذلك.. فلقد حاولت الحبشة في ٥٧١ - عام الفيل - أن تغزو وسط شبه الجزيرة، وتحتل مكة.. ولولا هزيمتها يومئذ لسيطر الأعداء على بلاد العرب كلها.

لكن هذا الخطر وذلك التحدي قد نبه في الأمة العربية عوامل اليقظة وروح المقاومة ونمّا بين أبنائها صلات التضامن وروابط الاتحاد. وفي فترة وجيزة شهدت بلاد العرب هذه الأحداث:

● هزيمة جيش أبرهة الحبشي وغزوه الفيل ٥٧١م. وهو نفس العام الذي ولد فيه الرسول محمد، عليه الصلاة والسلام؟!..

● وتحرير اليمن من الاحتلال الحبشي بقيادة البطل العربي سيف بن ذي يزن [٥١٦ - ٥٧٤م]

● وقيام روابط التضامن بين حكومة مكة، بزعامة عبد المطلب بن هاشم [٥٠٠ - ٥٧٩م] وبين حكومة اليمن..

● ونمو الروابط والعلاقات السلمية بين قبائل العرب في وسط شبه الجزيرة، وخاصة بعد الاتفاق على وقف الحروب والمنازعات والغارات أربعة أشهر من كل عام، هي الأشهر الحرم: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. وفي هذه الأشهر كانت تقام المعارض والأسواق، ويتم الحج إلى الكعبة، وتعقد المسابقات بين الشعراء والحكماء في الأسواق الشهيرة: عكاظ، ومجنة، وذي المجاز. الأمر الذي ساعد على تبلور الشخصية العربية الموحدة، وزاد من روابط التضامن والتقارب والاتحاد.

● وكان أول انتصار للعرب على الفرس في يوم ذي قار ٦١٠م. وهو نفس العام الذي ظهر فيه الإسلام؟ ويومها استبشر الرسول خيرا وتنبأ بأن هذا النصر سيكون فاتحة انتصارات أكبر، تحرر العرب من الفرس، وتنتقم لتاريخ طويل سيطر فيه الفرس على عرب الشرق والجنوب.

● ثم كانت الدولة العربية الإسلامية التي أقامها المسلمون بالمدينة، بعد الهجرة، هي سلاح العرب الأول الذي استطاعوا به مواجهة الخطر والتحدي، بل ومطاردة مصادر هذا الخطر وذلك التحدي، ومن ثم فتح صفحة جديدة في تاريخ الشرق، أصبحت القيادة فيها للعرب، وليس للفرس أو الروم!

فلقد توحدت القبائل العربية خلف قيادة هذه الدولة.. وبعد أن كانت هذه الوحدة على عهد أبي بكر الصديق [١١ ـ ١٣هـ ٦٣٢ ـ ٦٣٤م] تصبح في مستطاعة دولة عربية لإسلامية أن تقتطع من خراب الأمم العربية الواقعة تحت سيطرة كل من الفرس والروم مثل قيام دولة المناذرة في العراق، ودولة الغساسنة في الشام، ولقد انتهت هذه المهمة التحريرية على عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب [١٣ ـ ٢٣هـ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م].

● فمنذ أن أخذ عهد أبي بكر كانت جيوش العراق قائمة بين العرب وبين الفرس والروم، ولقد استطاع الجيش العربي أن يحرر عدداً من الأمصار في عدد من المواقع بجنوب العراق ـ في الحيرة، والأنبار، وميسان ـ بقيادة المثنى العربي المسلم بن حارثة الشيباني [١٤هـ ٦٣٥م] وأن يحرر كذلك عدداً من الأمصار في فلسطين، أهمها الأمصار في الأردن.

● لكن عهد عمر بن الخطاب هو الذي شهد الانتصارات الحاسمة، التي حررت العرب من الفرس والروم، وأثارت السرور الذي فيه العرب قبل ظهور الإسلام، وحققت أسباب المنعة، وأسباب الحضارة، عكس الإسلام. ففي الوقت الذي فتح فيه العرب العراق على الروم في موقعة اليرموك [١٥هـ ٦٣٦م] كان الموقف على الجبهة الشرقية، كان العراق ينتظر هو الآخر معركته الحاسمة التي تقرر: لمن العلبة؟ للفرس؟ أم للعرب المسلمين؟

فعرش فارس كان قد تولاه ملك جديد، هو يزدجرد بن شهريار [٦٣٢ ـ ٦٤٢م] وكان يدرك خطر اليقظة العربية الجديدة لانتزاع العراق من الفرس، فجمع كلمة الفرس على الاستعداد لإحباط هذه اليقظة قبل أن تحقق انتصارها الحاسم. ومن ثم بدأت حشود الفرس العسكرية تتجمع على الجيش العربي الذي يقوده المثنى بن حارثة الشيباني. فأرسل المثنى بن عمر بن الخطاب يخبره بأن الفرس قد زحفوا، وطلب الامدادات. وأصيب في الموقف العربي الجديد، وهو مرض المثنى بن حارثة، مرض الذي انتهى

[illegible] ودرك عمر بن الخطاب حظ هذه المنطقة، ولوشيكة، وأن [illegible] في تاريخ طويل مضرع طويل! فعزم على أن يخرج بنفسه [illegible] لمعركة التي وضح أن مكانها سيكون [القادسية] - [عربو سعد. على بعد ثلاثة عشر ميلا ونصف ميل من مكان الكوفة] - فهي معركة حاسمة، يريد من أهميتها أن يستدير في مكان حاسم، فلا يفتح نصر عربي فيها باب تحرير العراق، ومصيدة كل مقدم فارسي لإقتحامي [illegible] تفتح طريقهم فيها باب لاستولاء فارس على جنوبي العراق ومنطقة الخليج المقدسة كلها في حقيقة عمر - باب فارس في الجزيرة، وهي جمع بيت لأبوب وهي فارس رغبت حصيب حصين، ذوبه قاطر و [illegible] كلمة!

وفي نفس، خرج خطبة في موضع يسمى «صرار»، على بعد أميال من المدينة، في طريقه إلى العراق، فأقام معسكره، وشرع يجري لاستعداد [illegible] جيش القادسية. وكان يصحبه أثنا عشر ألفا عبأ مجاهد قدمته عشرة آلاف للجيش في شمال نجد، وجمع إليه ألفا في المدينة، ثم يعود لمعركة [illegible] من بقية مقاتلي وفتوحات مشهورين. وشجع سعد بن أبي وقاص [٢٣ق هـ ٥٥هـ ٦٩٣ - ٦٧٥م] فهو أحد من سود حرب وعلم من أعلام الفتوحات.

* * *

وقد بقي عمر، ومعه ولاة الأقاليم، وقادة الجيوش، وعدد غفير من توجيه كل مقاتل بتجهيز جيش القادسية قد جمع جموعهم، حتى بلغ عدد جيشهم ثلاثة مائة وعشرين ألف مقاتل، قد أضيف إليهم بقاياهم وخدمهم ومعلموهم ممن عاني بقيا! وهم قد جيشوا في هذه الجيوش بتوجيه، وحكم قيادتهم وتدبير لأمورهم وأمير المؤمنين. واستعدوا في هذا الجيش بثلاثة وثلاثين فيلا، كي تعتاد على جموع العرب بقصبها وصهيلها عندما يشتد القتال! وجعلوا قيادة هذا الجيش الجرار لأبرز قوادهم: رستم بن فرخزاد، قائد الجيش الأمبراطوري.. ورفعوا رايتهم الشهيرة

[درفس كابيتال] وكانت من جلد النمر، مرصعة بالجواهر، يستبشر بها الفرس، ولا يرفعونها إلا في الأمر الشديد!.. ومن خلف هذا الجيش قامت المدن تقيم الحصون، وتؤلف الجيوش، وتجمع الامدادات.

وأمام هذا التحدي نجد عمر بن الخطاب قراره، فقال: «والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب»! انتهى، إذن مواجهة بين أمتين وحضارتين! وكل يستجمع لها قصى ما لديه من امكانيات. وبعث عمر إلى مختلف أقاليم الدولة وولاتها أن «ينتخبوا ويختاروا جيش القادسية من خيار العرب». فكل قبيلة تقدم أبرز رؤسائها وأمهر مقاتليها وفرسانها وخير جنودها وأقصى سيوفها، وكذلك تصنع القرى والمدن في مختلف الأنحاء. بل لقد احتشد في هذا الجيش، أيضا، أصحاب الرأي، والشرف، والسلطة، والخطباء، والشعراء، والحكماء! وضم عمر إليه أكثر من سبعين مقاتلا من الذين شهدوا غزوة بدر!.. وأكثر من ثلثمائة من صحابة الرسول!. وسبعمائة من أبنائهم وثلثمائة من الأبطال الذين شهدوا مع الرسول فتح مكة! حتى لقد أصبح هذا الجيش خلاصة الأمة العربية المسلمة. وكتب الذين شهدوا جنوده عن المرايا التي تحلوا بها، فقالوا إنهم لم يروا فيه من ينصف نصفه من ثلاث الجبن، أو الغدر، أو الغلول - [اختلاس الغنائم والأموال]-!

ولقد استغرقت عملية الحشد والانتخاب والاستعداد هذه ثلاثة أشهر، عسكر أثناءها سعد بن أبي وقاص في [الثعلبية] على طريق مكة. وعندما اكتمل له الاستعداد أوصاه الخليفة بأن يتبع سنة الرسول في المساواة بين الناس، والوفاء بالأمان لمن طلبه من العجم، وحذرهم من الغدر وعدم الوفاء بعهود الأمان..

وزحف الجيش بقيادة سعد بن أبي وقاص، إلى العراق..

* * *

وعندما اقترب الجيش العربي من مواقع الفرس، كان المرض قد اشتد على المثنى بن حارثة الشيباني وقبل أن ينقلوه إلى منازل أهله حرص على

بكتب إلى سعد بن أبي وقاص يحثه على قتال الفرس، ويقدم له مشورته حول معركة محتملة، ورشح له مكان تجمع الجيش الإسلامي وهو يعسكر في [illegible] ويضم جيش فتى بن جيش سعد، وصبح في هذا الجيش كثيرون من الأنصار ممن شهدوا مع العرب وقعتهم ضد الفرس، حتى قبل ظهور الإسلام! ويضم إليه [illegible] قد دعاهم إلى قتال الفرس، دون أن يدخلوا في الإسلام، وقبل عرضه كثيرون [illegible] فصبح الجيش المسلم، جيش للعرب بأكملهم [illegible] من وجهة نظر عن ظلم الفرس واستبدادهم وتعصبهم [illegible] وهب!

وفي موجهة المثنى ألف فارسي، عسكر، عند القادسية، [illegible] ثلاثين ألف، تمثلت فيهم خلاصة العرب يؤيدهم، بمددهم سعد بن أبي وقاص!

* * *

[illegible] جيشه الذي كان يقاد [illegible] المعركة بنفسه، [illegible] في الإعداد لها من جهود، فقد حضر [illegible] يشارك في [illegible] يعود [illegible] نحو يكاد أن يكون مشهوداً، رغم وجوده في المدينة!.. فكان يخصص وقته من الصباح حتى منتصف النهار لجمع الأخبار عن جيش القادسية، وتحليلها وتلخيصها في صحيفة [illegible] وكان يتوق إلى الإسهام بالرأي في تفاصيل الإعداد لمعركة الفرس وقد [illegible] جيش سعد بن أبي وقاص، لكل صغيرة وكبيرة في معركة وشيكة [illegible] أرض المعركة وموقع العدو وتوزع الأسلحة [illegible] بكل ما لديه من تفاصيل، حتى يضع أمامه صورة حريصة للميدان ومن فيه وما فيه، كي يتيسر له الإسهام بالرأي وتوجيهه!.. [illegible] وجهه في رسالته عمر إلى سعد: [illegible] فقد سمعني من بعض من قدم عليه [illegible] تهجمتهم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم فاكتب إلي [illegible] جمعهم؟ وكم رأسهم - [قائدهم] - الذي يلي مصادمتكم؟ وصف لي مجالس - [مواقع] - مسيرهم وبعد الذي بينكم وبين [illegible] كأني أنظر إليهم

واجعلني من أمركم على حليه ـ [سه] ـ!

فكتب سعد إلى خنفة بكل التفاصيل، وصف له العدد، والخدق، والمرق، والحصار، والأبراج، والقلعة، والمرس، والسلاح [بح] وكانت الرسالات لم يوقف بين خنفة وسعد حتى لستطيع أن تكون إلى عمر بن الخطاب قد قام بتلبيه «عرفه عملياً»، ووضع أصبعه فيها خريطة لأرض معركة القادسية، وجعل يضيف إلى هذه الخريطة يوماً بيوم كل ما يحدث على وقعها من تفاصيل، لكنه ستطيع أن يسهم إسهاماً حقيقياً في قيادة الجند على مسافة شاسعة من ميدان هذا القتال!..

فهو يكتب إلى سعد لتنظم المقاتلين عشرة، عشرة، ولكل عشرة قائد، وأن يعين الأمراء على المقدمات، والمرس، والميسرة، والخيالة، والساقة [الموخرة]، والطلائع، والملسة، والفرسان [بح] وحدد له ترتيب القلب: فالأمير، يليه أمراء الجماعات ـ [المقدمات، والميامن، والميسرة بح] يليهم أمراء العشرة، يليهم أصحاب الرايات، ثم هم وسط المقاتلة.. الخ.. إلخ..

وعندما تأتيه أنباء القتال بأسماء الذين أبلوا فيه بلاءً حسناً، يرسل الجوائز؛ خيلاً وسيوفاً إلى الفرسان المجيدين!.. فيشعر المقاتلون أن أمير المؤمنين معهم في الميدان!..

ولم تكن خنفة وحده هو الذي يعيش بكيانه وطاقته تلك المعركة الحاسمة بين العرب والفرس في القادسية. بل كانت معه في ذلك أمه كلها، حتى يحكي المؤرخون أن الناس قد عقدوا ثلاث ليلة وراء على نتائج تلك المعركة، وأصبحت في كل ليلة جماعة مختصة في جمع أخبار القادسية وبلاغها إلى عامة الناس! بل لقد عاش الناس بكامل مشاعرهم وحياتهم عليها «حتى إن الرجل يريد الأمر فيقول لا أنظر فيه حتى أعلم ما يكون من أمر القادسية»! ـ كما يقول المؤرخون ـ.

كانت معركة مصيرية، حشدت لها الأمة خير ما عندها.. وتعلقت بنتائجها الآمال والأفكار والمصائر والمشاعر والقلوب!.

وقبل أن يبدأ المعركة الأخيرة بين العرب والفرس، بدأ الفرس يفكرون في كيفية كسب العرب للإسلام. لقد كانت الخطوة الأولى هي معرفة الموضوع الذي يدعوهم إليه الإسلام. وقد كلف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه هذه المهمة. فبعث وفدا إلى ملك الفرس يزدجرد، يدعوه إلى الإسلام، عارضا عليه، ومرهبا له بالإضافة، قائلا: «أما بعد، فإنكم رأس نفسكم بكل رأسها، وقائد جيش الفرس، وأنا رسول سعد بن أبي وقاص إليك، وقد دعاك إلى خير لو علمته، فإن أنت قبلته سعدت به في عاجلك وآجلك، وإن أبيته شقيت به في عاجلك وآجلك، وكان الواجب عليك أن نسعد بما دعوناك إليه كما سعدنا به، ونحن ندعوك إلى الإسلام، فإن أجبت فأسلم وخل بيننا وبين بلادك، وارجع إلى أرض العرب فنحن أعلم بها منك، وإن أبيت الإسلام فأقر بالجزية، وأنت عن نفسك وقومك، وإن أبيت فلا تلومن إلا نفسك».

ولم يكن رستم بن فرخزاد، قائد جيش الفرس، أقل من سعد بن أبي وقاص حكمة وحنكة، فقد أدرك من أول وهلة أن الوفد العربي لم يأت إلى عاصمة الفرس إلا لأنه يشعر بالقوة، وأن العرب لم يكونوا ليجرؤوا على غزو بلاد الفرس لولا ثقتهم بأنفسهم وبقوتهم. فأراد رستم أن يعرف مدى قوة العرب وثقتهم بأنفسهم، فأمر بعقد مجلس عام في قصره الفخم، وأذن للوفد العربي بالدخول عليه. وكان المجلس يتألف من آلاف الفرسان والجنود المدججين بالسلاح، وقد وقفوا صفوفا منتظمة على جانبي الطريق الذي سيسلكه الوفد العربي، وكان رستم يجلس على عرشه الذهبي، وتقدم الوفد العربي إلى حضرته على ظهور الخيل، فلم يترجلوا عنها، ولم يستأذنوا في الدخول، بل اقتحموا المجلس اقتحاما، وساقوا خيولهم حتى داست بسنابكها الطنافس الثمينة التي كانت تفرش أرض المجلس، ثم ربطوا خيولهم في أماكن متفرقة من المجلس، وأقبلوا على رستم وجنوده بكل ثقة واعتزاز، وكأنهم أصحاب الأرض وأهلها، وليسوا غزاة طارئين عليها.

وكان أول من تكلم منهم المغيرة بن زرارة، فقال: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادته إلى عبادته، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى ننجز موعود الله». فقال رستم: «وما موعود الله؟» فقال المغيرة: «الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي». فقال رستم: «قد سمعت مقالتكم، فلا تفعلوا، واقبلوا ما دعيتم إليه من أمر دينكم، ونحن نكف عنكم». فقال المغيرة: «أما هذا فلا نفعله أبدا حتى نناجزكم أو تعطونا الجزية عن يد وأنتم صاغرون». فقال رستم: «أما سمعت العرب تقول ما أذل قوما قط إلا تمنوا أن يؤدوا الجزية؟ أفتراك تطمع في ذلك؟» فقال المغيرة: «لقد كان في قومي رجال يتمنون الموت على أن لا يروا هزيمة أبدا، ولا يتمنون الحياة على أن يروا هزيمة، وإن فينا رجالا لو أمرناهم أن يقتحموا النار لاقتحموها، ولو أمرناهم أن يقتحموا البحار لاقتحموها، ولو أمرناهم أن يضعوا أنفسهم في كل موضع يخافون فيه الموت لفعلوا، ولا يرون أن لهم فضلا على من قتلوا منهم حتى يفضلوهم في الجنة، وقد رجونا ذلك في قتالكم، فأيكم يضمن لنا ذلك؟» فقال رستم: «والله لقد رمى بكلام لا يرى عبيدنا يرمون به، فقل لله سلاحك، ما كان أحمقهم حين كنتم تصغرون من أمر هذه الأمة العربية»؟

ثم تحدث رستم إلى المغيرة كملك متكبر مع عربي لم يكن في قصور الفرس قبل ظهور الإسلام، فحدثه عن أن الفقر والمجاعة هي التي تدفع العرب للخروج من بلادهم، وأن بإمكانه أن يأمر لأفرادهم بالطعام والكساء ويعودوا إلى بلادهم، وأن بإمكانه أن يملأ حريره تبرا من الذهب ليعطيه للعرب، لكن المغيرة حدثه عن الإسلام، ومن أجدته في العرب من خلال، وأسمعه كلمات سعد بن أبي وقاص «إن الله تعالى أجابنا بالإسلام، وحببه إلينا وكتب

ميه، وأمات به قلوبا كانت حية!! ودعاه إلى أن يكون مع الأحياء فأبى، وتوعد المغيرة والعرب بالإبادة عندما يرتفع ضحى الغد، وأقسم على ذلك بالشمس والقمر، فانصرف المغيرة وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله!

ولقد تكرر الحوار بين الأمتين والحضارتين مرة أخرى، عندما خرج رستم يتفقد جنوده، وأرسل إلى واحد من سادات العرب وأشرافهم في الجاهلية، هو زهرة بن عبد الله بن حوية التميمي، وكان قد لقي الرسول وأسلم وجاء اليوم ليقاتل الفرس تحت قيادة سعد بن أبي وقاص، أرسل إليه رستم ليحاوره، فلقيه، ودار بينهما حوار يؤكد للفرس من خلاله أن أخطر ما يهدد نظامهم ليس التوحيد الديني الذي جاء به الإسلام، ولكن المساواة بين الناس!.. بدأ رستم الحوار:

- أنتم جيراننا، وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا، وكان لهم في ذلك معاش!

- صدقت، لكن أمرنا اليوم ليس كأمر أسلافنا، لقد بعث الله إلينا رسولاً، فدعانا فأجبناه، وقال لنبيه: إني قد سلطت هذه الأمة على من لم يؤمن بديني.

- وما هو هذا الدين؟

- شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله.

- حسن!.. وأي شيء أيضاً؟

- والناس، بنو آدم وحواء، سواء.. إخوة لأب وأم!

- أما هذه فإن أهل فارس منذ أن تولى عليهم الملك أردشير وحتى اليوم لا يتركون أحداً من طبقة السفلة يخرج من نطاق طبقته، وذلك حتى لا يعادوا الأشراف!

- لكننا لا نستطيع أن نكون كما تقولون!..

وهنا دعا رستم رجالات فارس، فعرض عليهم الفكر الاجتماعي الذي

بشر به الإسلام في المساواة بين الناس، فهاجموا وهاجموا وصمموا على القتال!..

وكما عبأ رستم أشراف الفرس وأعيانهم عندما خوفهم من فكر الإسلام الاجتماعي، أخذ سعد بن أبي وقاص في تعبئة جنده، يذكرهم بتاريخ قومهم مع الفرس فيما قبل الإسلام، وما لهم من ثأر، وما للعرب من تقاليد في الشجاعة والفداء لا يرقى إليها الفرس مهما حشدوا وأوعدوا. ولقد ألف للتعبئة فريقاً ضم أهل الرأي والنجدة والشعراء الخطباء، فحدثوا الناس عن الإسلام الذي وحد العرب بعد التمزق والعداوات، وعن المهمة التي تنتظرهم بفتح فارس كما فتح إخوانهم الشام، وعن أن التنافس الحق والمشروع إنما يكون في الجهاد. وتحدث المؤرخون عن أن فريق التعبئة هذا كان يقرأ على الجند فكاً صاغوها وسموها سورة الجهاد! ففعلت فعلها في قلوب المقاتلين حتى زاد شوقهم للقاء الأعداء!..

* * *

واشتعل القتال بين الفريقين في معركة بدر أن سجل مثيلاً لها تاريخ العرب في الحروب والفتوحات، ودام اشتعال القتل والقتال عدة أيام.

● ففي اليوم الأول - وتسميه المؤرخون [يوم أرماث] - هيأ سعد بن أبي وقاص جنده للقتال، بعد صلاة الظهر بنداء [الله أكبر] أكبر أربع مرات، وهم يرددون بعده التكبير. وفي كل مرة يرفعون من درجة استعدادهم للقتال. ولقد قال لهم: «إذا كبرت الرابعة شدوا التواجر على الأضراس، واحملوا واحفوا جميعاً حتى تخالطوا الأعداء»! ففعلوا، وبدأت المبارزة بين أبطال الفرسان.

وفي هذا اليوم لقي المسلمون من الفرس مكائد لم يتعودوها في القتال، وواجهتهم أسلحة لم تواجههم من قبل. فالفرس قد زرعوا تحت أقدام خيل المسلمين المسامير! وربطوا خيلهم هم بعضها إلى بعض كي يمنعوها من الفرار! ثم دخلت القبلة المعركة، على كل فيل ثابوت به عشرون رجلاً

وحين [illegible] رأت القبلة، وقد توحشت من منظر الميدان وجو الحرب، [illegible] حجمت، [illegible] مما أدى إلى تفرق كتائب العرب [illegible] بعض القبائل العربية [illegible] أن تفنى [illegible] لكن سعد بن [illegible] أسرع فأرسل من [illegible] القبلة، [illegible] [illegible] الأمر [illegible] [illegible] الأول [illegible] في [illegible] العربي من [illegible] [illegible] والدروس!

وحل الظلام، فتوقف [illegible] وكانت الليلة الأولى التي سماها المؤرخون [ليلة الهدأة] لهدوئها وخلوها من القتال!.

● وفي اليوم الثاني ويسميه المؤرخون [يوم أغواث] [illegible] الصباح وكانت معركة الفرس [illegible] حتى منتصف النهار، ثم [illegible] فانسحبوا في القتال من منتصف النهار حتى منتصف الليل! وفي [illegible] دارت الدائرة على الفرس [illegible] القبلة [illegible] في القتال، لأنهم [illegible] يصلحون [illegible] التي خصها العرب بالأمس [illegible] من هذا [illegible] العرب سلاحا [illegible] الليلة! وذلك عندما صنعوا «هوادج» حملوها على ظهور الإبل، [illegible] كسوة مخملية مرقعة، وحملوا على كل واحد منها [illegible] رجال، وانطلقت هذه الإبل بين صفوف خيل الفارسية، فكانت [illegible] الخيل، وتحاول الهرب من السلاح، فيحدث في صفوف فرسان الفرس من الارتباك أعظم مما أحدثته بالأمس [illegible] في صفوف الفرسان [illegible]

ولم تكن ليلة ذلك اليوم هادئة كيوم أرمات، بل كانت [illegible] ولذلك سماها المؤرخون «ليلة السواد»!.. وكانت حصيلة [يوم أغواث] [illegible] جمهور كبير من أعلام المقاتلين والفرسان في الجيش الفارسي [illegible] حتى [illegible] قتلاهم وجرحاهم فيه عشرة آلاف!.

● وفي اليوم الثالث ويسميه المؤرخون [يوم عماس] [illegible] القتال، وكانت الأرض بين الصفين [illegible] قد اضطربت [illegible] في [illegible]

سعد ميل في خطوط وقد فوجئوا على الرغم من كل شيء بالمعركة حامية.

بدأ القتال وأبصر المسلمون عدد يأتيهم من خلفهم عدد ينصرون على الروم في السهل وكان عدد يقبل من أرض المعركة على دفعات متتابعة، فبشت أرواحهم، وتقوى عزمهم وتربه في النصر الأمل.

وكان الفرس قد أصيبوا بالدهشة، وجاءهم من ساحة القتال، بكميهم أخطوب بالفرس الذين يحرسون أخرجه ثوابتهم، وعند ذلك وجد هؤلاء الحرس من حول الفيلة في شل عدائهم متوحشة خوفهم من الإبعاد والانطلاق، فصعقت فاعليتهم في إرباك فرسان المسلمين. وكان سعد بن وقاص قد استعان من الفرس الذين أسلموا وانضموا إلى الجيش المغربي على نجح بسبل في كسر شوكة الفيلة في القتال، فأخبروه أن مقاتل الفيلة في العيون والأشداق، فاختار من المقاتلين مهرة من فتحهم بالنبال فقطع بعضهم بالفعل كل الفيلة في عيونها وقطع مشافرها، فقر مسرعين، وخرق صفوف الفرس، ومن خلفهم كل الفيلة، فأحدثوا ارتباك شديد في صفوف الأعداء. ولم تتوقف هذه الفيلة الهاربة إلا في عاصمة الفرس [المدائن].

وانتهى [يوم عماس] بانكفاؤ الفريقين في ساحة القتال

● ثم كانت [ليلة الهرير] - وهي التي أعقب [يوم الحماس] وهب المسلمون في ذروة ما يصل إليه من قبل حتى تحكي المؤرخون عن صمود حدث لات مثل وسموه قد حكى صوت صمود الأبطال خالدة - [القادسية - خالدين]! - وقاتل الجيشان حتى الصباح وستغرق الجنود في النوم حتى بعد منعهم عن الكلام، وحل محل الكلام عندهم الصوت الزاحر الذي يحاكي زئير الأسود والعرب تسميه «هريرا» ولذلك سموها [ليلة الهرير]! وبعد مع الأحداث حيث في الليل إلى الحد الذي حفيت فيه معظم سيوف المعركة عن كل من رستم وسعد بن وقاص حتى كان الصباح فعلم سعد أن كفة المسلمين كانت الأرجح على كفة الأعداء!

● وأخيراً كان [يوم القادسية] [illegible] وانتهائه في [ليلة الهرير] سوى ساعة، [illegible] القتال [illegible] كانت ساعة [illegible] من هذا اليوم [illegible] في [illegible] العرب، فشقوا قلب جيش الفارسي، ووصل فرسانهم إلى [illegible] رستم وكانت الريح العاصفة قد دخلت الحرب هي الأخرى، فهبت [illegible] الخيمة! وحاول رستم الفرار فألقى بنفسه في نهر العتيق، فطارده [illegible] العربي هلال بن علفة، فأمسك به، وقتله [illegible] ثم صعد على [illegible] وصاح: قتلت رستم ورب الكعبة! فكبر المسلمون، شكراً لله [illegible] بالنصر، وحملوا السرير وطافوا بفارسهم الذي قتل قائد جيش الأمبراطورية، بينما كانت فلول جيش الفارسي تعبر [illegible] هرباً، يقودها ملك من ملوكهم اسمه «الجالينوس» مخلفة وراءها عشرة آلاف قتيل جديد!

وكان يوم القادسية هذا يوم الحسم في المواجهة التي دارت على تلك الأرض بين دولة إقطاعية ذات نظام طبقي ظالم وفكر [illegible] بالكهنوت والاستغلال، وبين أمة شابة، خرجت جيوشها [illegible] الأرض والإنسان، وتتجدد شباب [illegible] بعدالة الإسلام ومساواته وفكره [illegible] والبسيط.

وبعد نصر القادسية هذا انفتحت أبواب فارس، مدينة بعد مدينة وحصناً وراء حصن، أمام العرب فتحوا [حلوان] و[المدائن] عاصمة الفرس - ثم [جلولاء] وكلها مدن عربية، في العراق العربي [illegible] بعد أن ظلت في الأسر الفارسي عدة قرون!..

ولقد تعرب بهذا النصر في القادسية - ومن قبله بنصر «اليرموك» في الشام - صورة الأمم ومراكز الشعوب في الشرق. فمن قبلهما كان العرب مستضعفين بفرسهم المخاطر والتحديات، وكانوا يقولون - كما يحكي المؤرخون - عن فارس «فارس الأسد» وعن الروم «الروم الأسد» [illegible] بعد هذا النصر فقد قالوا عن عرب ربيعة [illegible] في القادسية [illegible]

[illegible] «الأسد»؟! فحدث التحول في مكانة العرب في التاريخ، وأصبحت هم القيادة في الشرق بدلاً من الفرس والروم!

* * *

وقد كانت يوم القادسية صورة التي ذهبت تمدح في البطولات والفداء.

● فالفارس العربي «أبو محجن الثقفي» كان معدوداً ومبرزاً بين الفرسان، ولكنه كان عاشقاً للخمر، يشربها رغم تحريمها في الإسلام! وقد نفاه عمر بن الخطاب من المدينة بشربه الخمر، ثم التحق بجيش القادسية كي يشارك في القتال، ولكنه عاد فشرب الخمر هناك، فغضب منه سعد بن أبي وقاص، وضربه، وحبسه في قصره - «قصر العذيب» - فلما اشتعل القتال، وحميت المعركة، أبصر أبو محجن، من محبسه، ما يلاقي المسلمون من تفوق الفرس في العدة والعتاد، فأقامت نفسه للجهاد، فتوسل إلى «زبراء» زوجة سعد بن أبي وقاص أن تطلق سراحه، وتعطيه فرس سعد كي يشارك في القتال، وأقسم لها أنه سيعود بعد أداء دوره كي يضع قدميه في الحديد من جديد. واستجابت «زبراء» لطلبه، فاخترق أبو محجن صفوف الفرس، وقاتل قتال الأبطال، وحطم القتل الأبيض الذي كان يقود نفسه إلى الحدث الأثبات في صفوف الفرسان المسلمين. ورآه سعد بن أبي وقاص من موقع قيادته، فتساءل: حائر من هذا الفارس؟ ثم قال: ما الفرس ففرسي، وما الحملة فحملة أبي محجن؟!.. وبعد المعركة وجد سعد أبا محجن في محبسه وقيده، لكن زوجته قصت عليه القصة، فقال لأبي محجن: والله لأضربنك في الخمر! بعدما رأيت منك، أبداً!.. فأجابه أبو محجن: وأنا، والله، لن أشربها أبداً!

● وشهدت ساحة القتال كثيراً من المقاتلين والفرسان يعرضون أنفسهم على الموت، ويلحون إلحاحاً شديداً في طلب الشهادة، وهم في خلال ذلك يتحدون الخطر المهم ويصنعون في الحرب المعجزات! فأكثر من فارس قد

حرق صفوف الفرس وحد جرهم صف جيشه عند رستم كي يحمي عنه و«العلج» بن جحش الفحلي» يقدم كي يبارز بطلا من بطل الفرس، فيقتل كل منهما الآخر ويهرب الفرس من قومه، لأن الصدمة قد صدمت به على حين بطل «العلج» جد، بعد أن فتحت بطنه وبرزت منها أمعاؤه وبجهد بطل يدخل أمعاءه إلى بطنه فلا يستطيع، فيستعين على ذلك بأحد المسلمين، ثم يمسك جند بطنه بإحدى يديه، ويسقه بالأخرى، ويظل يحاول أن يرجع إلى صفوف مسلمين يتقدم كي يقتل أعداءه ثم تموت وهو يتحدث عن الطعنة التي يعاني منها

أرجو بها من ربنا ثواباً قد كنت من أحسن نصرانا!

● ويؤذن المؤذن على مرتفع من الأرض يؤذن بصلاة الظهر فيصيب سهم أعداء المسلمين، بدلا من أن يستخدم بلالا، فيسقط كل منهم ميتا، ويصعد إلى مكان مرتفع كي يتحدى سهام الفرس ويؤدي الصلاة! حتى هذا وشكرا، لم يسلم من ذلك، بل يصيبه السهم وهو يجد سعد بن أبي وقاص غير «الخرعة» سبيلا حتى يصيب من سهامه شرف الأذن للصلاة، تحت مرمى سهام الأعداء!..

● والمرأة العربية . لقد كان لها في القادسية دور كبير . فسلمى بنت حصفة كانت زوجة بشير لمثنى بن حارثة الشيباني . فلما مات تزوجها سعد بن أبي وقاص فعاشت إلى جواره وهو يقود معركة القادسية وعندما رأت كتيبة الفرس قد زحفت في بعض مراحل المعركة أخذت تشجع سعدا وتحرضه، بل وتتحدث عن شجاعة المثنى التي تفتقدها فيه؟!-

وهذه امرأة تعجز عن أي شيء، خرجت مع نسائها لأنها ترى ساحة القتال فتحدثهم عن إسلامهم بصدق، وتحرضهم بحماسة وقت هم بهم قد خرجوا للجهاد، ولم يخرجوا جميعا من أجل الغنيمة، وإنهم بعد أن وضعوا - وهي المحور - بين يدي أهل فارس، فلا بد أن يصبوا فوق الأسطح حديدين مصهورة « ... » حتى يكون ولا تفضحن

حالكم ... فاشهدوا القتال وشاركوا فيه من أوله حتى آخره»!

وعندما كان يغيب عنها أولادها لم تكن تجزع، وإنما كانت تتوجه إلى الله بالدعاء: «اللهم ادفع الخطر عن نبيّ»! وكان الفرسان الأربعة يعودون إلى أمهم بنصيبهم من الغنائم فيلقونه في حجرها، فتقسمه بينهم على نحو يرضى عنه ويسعد به الجميع!

وبين جولات القتال، وفي فترات الهدوء على ساحته كانت النساء العربيات، ومعهن الصبيان يشدون الأحزمة على الثياب، وتحمل النساء الهراوات، ويحمل الصبيان أواني الجلد الصغيرة - [الأداوي] - المليئة بالمياه، ثم ينزلون جميعاً إلى ساحة المعركة. الصبية يسقون جرحى المسلمين، والنساء يلقين هؤلاء الجرحى بتمريضهم ومداواة جراحهم. ثم يجمعون جثث الشهداء ويحفرون لها القبور ويوارونها التراب.

* * *

وأخيراً وصل البشير بأخبار نصر القادسية إلى عمر بن الخطاب فحمد الله على أن فتح العرب باب فارس المنيع الخصيب!..

ووصلت نفس الأخبار إلى يزدجرد بن شهريار، في [المدائن]، فقرر الهرب، فدلوه من قصره، سراً، في «زنبيل» - [قفة] - حتى سماه الناس «بزنبيلا» - ! فهرب ومعه أمواله وأهله وكبار رجالات دولته. ذلك أن فتح باب القادسية قد فتح أمام العرب كل الأبواب. حتى لقد قال الفرس بعضهم لبعض عندما أبصروا خيل العرب تسبح الأنهار وتصعد الجبال: «والله ما تقاتلون إلا جناً»! فانهزموا - بالرعب - بعد أن انهزموا بالقتال!

وكان لا بد أن ينهزموا بعد أن واجهوا في القادسية فرساناً ومقاتلين أصبحت الشهادة عندهم أحب من الحياة، حتى لقد يلحون في السعي للاستشهاد، بل ويودون أن لو كانت لهم أجنحة الطيور لتسرع بهم إلى لقاء الأعداء.

تحن لباب القادسية ناقتي وسعد بن وقاص علىّ أمير
تذكّر، هداك الله، وقع سيوف بباب قُدَيْس والمكرّ عسير
عشية ودّ القوم لو أن بعضهم يُعار جناحيّ طائر فيطير!

البحر المتوسط
فلسطين
في
عصر العزو الهلنيي

سلطنة الروم
مملكة ارمينية
كونتية الرها
الدولة الزنكية
البحر المتوسط
الإمارات الصليبية
في
سورية سنة ١١٩٩م

فارس صليبي بالدرع .. ويمسك بيده اليمنى
رمحاً طويلاً وباليد الاخرى درعاً مستديرة

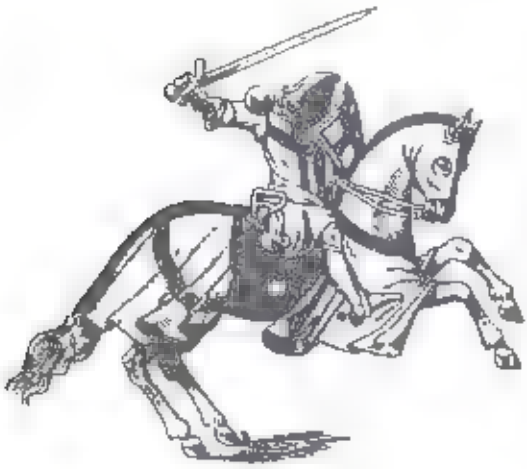

فارس صليبي يعتدة وحصانه

صلاح الدين الأيوبي

[٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ ١١٣٧ ـ ١١٩٣ م]

معركة حطين

[٥٨٣ هـ ١١٨٧م]

عجيب أمر هذا الغرب الاستعماري، يلجأ دائماً إلى حل مشكلاته والتغلب على متناقضاته بواسطة الآخرين وعلى حساب الآخرين. فالنازيون في ألمانيا يشجعون الهجرة اليهودية إلى فلسطين كسبيل للتخلص من اليهود في ألمانيا الهتلرية، ويتواطأ معهم في ذلك الصهيونيون. وبعد ذهاب النازية تسهم أنظمة الحكم الاستعمارية، سواء تلك التي حملت لواء معاداة السامية، أو صمتت أو شاركت في هذا اللون من النشاط، يسهم كل هؤلاء في «حل مشكلة» على حساب الأمة العربية، بإقامة الدولة الصهيونية على أرض فلسطين، فيحلون مشكلاتهم، ويحاول البعض منهم «تطهير» مجتمعاتهم من اليهود على حساب الأمة العربية وشعب فلسطين؟ وذلك إلى جانب الأهداف الأخرى للاستعمار والامبريالية من وراء إقامة هذا الكيان.

والأمر الأكثر عجباً وإثارة للاستغراب أن هذا الموقف من الغرب الاستعماري ليس حديثاً، بل لقد سبقته مواقف مماثلة حاول فيها هذا الغرب الاستعماري حل مشكلاته والتغلب على متناقضاته على حساب بلاد الشرق ومجتمعات الشرقيين. وقصة الحروب الصليبية التي بدأت في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي فصل قديم في هذه القصة التي نشهد اليوم مآسيها الدامية على أرض فلسطين.

الشرق يحل مشكلات الغرب

في [illegible] العاشر الميلادي، كانت [illegible] الازدهار، وسرت الفكرة [illegible] إلى [illegible] عن طريق بلاد الأندلس، [illegible] الفكر [illegible] التي كانت تشهد خلال [illegible] في تأييد الخرافة [illegible] على عقول الناس [illegible] وكانت [illegible] العاصمة [illegible] في مصر، [illegible] الأول [illegible] العربي، «العاصمة» الخلافة، [illegible] كان مجرد «ولاية» [illegible] «دمشق» أو «بغداد».

وفي ذات الوقت كانت أوروبا تشهد صراعات لا تنتهي بين أمراء الإقطاع. هؤلاء الأمراء جهلة الذين لم يكونوا يحسنون شيئاً سوى الفروسية [illegible] في الشرق حضارة وأمراء يشغلون [illegible] الفكر [illegible] وعلى الأقل يعملون على [illegible] [illegible] القطع والدماء التي يريقونها في معاركهم وصراعاتهم بعضهم مع البعض الآخر [illegible] [illegible] مشكلات [illegible] كي يتوحد هؤلاء الأمراء [illegible] ضد عدو خارجي [illegible] وحتى [illegible] في بلاد هؤلاء [illegible] مستعمرات [illegible]

وفي أواخر سنة ١٠٩٥م عقد البابا «أربان الثاني»، ذلك الرجل الذي أخذ على عاتقه إذكاء نار الحروب الصليبية، والذي حمل من بين الألقاب لقب «البابا الذهبي»، عقد هذا الرجل مؤتمراً في مدينة «كليرمونت» [illegible] فرنسا، وجمع في هذا المؤتمر أمراء أوروبا الإقطاعيين المتحاربين، ومعهم المجرمون و[illegible] واللصوص، وتحدث إليهم في أمر غزو الشرق، وقال لهم فيما

ف « أنتم فرسان أقوياء، ولكنكم تتاجحون وتتاسدون في بيكم ولكن، تعالوا وحاربوا الكفار (المسلمين) ... من تبدتم اتحدوا به من كنتم لصوصا كوبو الآن جنودا تقدموا إلى بيت المقدس انتزعوا تلك الأرض الطاهرة، واحفظوها لأنفسكم. فهي تدر سمنا وعسلا!؟ بكم إذا انتصرتم على عدوكم ورثتم مدن الشرق »؟

وبعد عام واحد من هذا المؤتمر الاستعماري زحف أمراء الإقطاع الأوربيون على الشرق بجيوشهم وفرسانهم، يحملون صليب المسيح، ولكن دون أن يستطيع هذا الصليب ستر الأهداف الحقيقية والأهداف المحركة لهذا الزحف الاستعماري الكبير. فحتى الذين أرجعوا هذه الحروب إلى أسباب دينية محضة، حتى الذين رجعوها من وجهة نظر الصليب وجعلوا حرب الاستعمارية عنوانها «الدين» كما فهم من ذلك، والشرق كما فهم من ذلك، وليست «الآخرة» والمسيح و«صليبه» سوى ستار للخداع والتمويه.

وفي كتاب من الكتب القديمة اسمه (تاريخ حروب المقدسة في الشرق، المدعوة حرب الصليب)، نقله «مكسيموس موروسد» عثمان على رواية وتقرير صليبيين اثنين شاركوا في هذه الحرب أو عاصروها ... وترجمه عن الفرنسية البطريرك «مكسيموس مصلوم» سنة ٨٤١ م ... في هذا الكتاب حديث مسهب لتأمر على صنيعة هذه الحرب. وأهداف الأمراء والأشراف والعظماء الأوربيين من ورائها، وبدئ عندما يقول «مكسيموس موروسد» : « فكثير من الأشراف والعظماء صاروا يعتبرون الحروب وسيلة مهمة صناعة لاحتشاد (جمع) الأموال العينية، بل أن البعض يجد أحد العالم وحده كان يجذب الجيش إلى المحاربة»[1] ؟!

فقدمه في تلك « الرواية » التي نشهد اليوم بعض فصولها ؟! وليس هو بالأمر الحديث ولا المستحدث أن تتخذ الحرب الاستعماري من « حرب الشرق » صناعة « يحشد » بها الأموال ويكدسها في جيوش أعيانه ، سواء أكانت هذه

---

(١) [تاريخ حرب الصليب] ج ١ ص ٨٠، ٨١ طبعة القدس سنة ١٨٦٥م

بالإقطاع بالأمس أو ملوكاً للمال في عصرنا الحديث؟!

ماذا صنعوا بالشرق؟!

وفي سنة سقطت بيد الصليبيين جزء من شرق غربي، من أرض الشام وفلسطين بالذات، فقد كانوا يرحلون بحثاً عن مقاطعات لم يكن لها في الشرق مثيل. وكانت حضارة الشرق بعمقه قد فقدت قوة العسكرية التي تهزمهم وتخيفهم، وهم بكل تصميم وعزيمة قد عقدوا عزمهم في الشرق حتى دلت سريح ونفس المؤرخ المعاصر لتلك الأحداث أسامة بن منقذ في كتابه (الاعتبار) هذه الحقيقة، فيتحدث عن نظم الفروسية عند «الفرنج»، وكيف أنهم لا يتكونون من الحرب سوى مرة القتال وشجاعة النفس وسمك الجلد، فيقول: «وأما الفرنج عصرهم الله، فليس فيهم من فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم نقدمة ولا مرتبة عالية إلا الفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم، فالفارس أمر عظيم عندهم»[1].

فمن طريق بين فلسطين كان يسلك الأوربيون الجيش الصليبي بقيادة الأمير «بكسوس» و«بلدوين» بملاحقته «في شمال جزيرة» الأناضول» حيث سقطت في يدهم مدينة «نيقية» في يونيو سنة ١٠٩٧ م.

وفي أوائل سنة ١٠٩٨ م سقط الصليبيون في قبضة أول إمارة لاتينية في الوطن العربي عندما استولوا على مدينة «الرها» في شمال سوريا والعراق، وحكم هذه الإمارة الأمير «بلدوين» الذي كونت بولونيا.

وبعد حصار دام بحوالي أشهر سقطت في أيديهم مدينة «بصكدة» في ٣ يونيو سنة ١٠٩٨ م. وكانت يومئذٍ عاصمة سورية الشمالية، ولعبت حاكمة أحد الأمراء دوراً رئيسياً في سقوطها بيد الأمير الصليبي «بوهمند» الذي أقام

---

(١) [الاعتبار] ص ٦٤، ٦٥ طبعة برستون - أمريكا - سنة ١٩٣٠م

فيها ثاني إمارة من إمارات الصليبيين.

وفي ٧ يونيو سنة ١٠٩٩ م سار الصليبيون إلى القدس في سبعين ألفاً، وضربوا من حولها الحصار، ولم تستطع حاميتها المكونة من [illegible] أن تقاوم الحصار الذي دام ثمانية وثلاثين يوماً، فسقطت المدينة بيد الصليبيين في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الجمعة [illegible] يونيو سنة ١٠٩٩ م، [illegible] جيوشهم [illegible] من أمراء الأقطاع الأوروبيين، في [illegible] «جودفري دوبوليون» أمير مقاطعة [illegible]، و[illegible] ريموند» أمير مقاطعة تولوز، و«[illegible]» [illegible] «فلاندره»، «كيرمونت»، و«جراد» و«[illegible]»، و«[illegible]» [illegible] «[illegible]» [illegible]

دخل الصليبيون «القدس» [illegible] الأنبياء والسلام [illegible] وحتى مكسيموس [illegible] مؤرخ (حرب الصليب) [illegible] الصليبيون [illegible] في [illegible] ذكرى [illegible] على [illegible] من أجل خلاص العالم» وفي [illegible] مثل [illegible] «[illegible]» [illegible] من [illegible] ولا من [illegible] ولا من [illegible] ولا من الأولاد، ولا من [illegible] «[illegible] المسورة العسكرية الصليبية [illegible] (جمع) وقطع حكماً مرهباً، وهو [illegible] (يقتل) كل مسلم [illegible] داخل المدينة [illegible]» [illegible] ولا [illegible] المعلومات والحقائق والأسلوب المؤرخ (حرب الصليب) [illegible] «[illegible] (أسبوع) [illegible] المؤرخون [illegible] على [illegible] الإسلام (المسلمين) [illegible] داخل [illegible] القدس [illegible] إلى سبعين ألفاً». وحتى الذين هربوا إلى جامع عمر طالبين أنهم هناك يحمون

فإنهم من الرعب ... فعلهم قد حدث ، إذ أن الصليبيين ، حينئذ وقسوة ، قد ذبحوا الجميع كما هو مذكور ، وأبادوا بحد السيف كل الموجودين هناك ... وحسب تعبير « ريموند أجيلاس » (وهو شاهد عيان) فقد خاضوا في الدماء ، حتى إنه حيث يتعثر في عدد من جثث القتلى وعلا إلى حد الركب ، بل إلى حد لجم الخيل ... وقد رهب من شهود العيان هذه المذبحة هو « روبرتوس » إن الجامع العمري « قد استوعب من الدم مختلطاً فيه كأنه بحر متموج »(١) وذلك إلى الحد الذي أثار السخط والاشمئزاز لدى جميع المؤرخين الصليبيين ، حتى يقول عنهم صاحب (تاريخ حروب الصليب) إنهم « دمغوا قساوة هؤلاء الجنود البربرية »(١).

ويصور المؤرخ العربي محمد كرد علي في كتابه (خطط الشام) كيف تعقب الصليبيون من فر إلى البيوت ، فأكرهوهم « على إلقاء أنفسهم من أعلى السطوح والبيوت ، وأحرقوهم بالنار ، وأخرجوهم من الأقبية وأعماق الأرض ، وجروهم إلى الساحات ، وقتلوهم فوق جثث الآدميين ... »(٢)؟!

ويقال أن الصليبيين تركوا المدينة خربة على هيئة صورة مشوهة لتصير عبرة لمعاصيهم ، وجعلوا من مقدسات المسلمين كنائس ، ومخازن ، بل واصطبلات للخيول ؟! فحولت قبة الصخرة إلى كنيسة ... أما المسجد الأقصى فقد جعلوا جزءاً منه إلى كنيسة ، وجزء آخر جعلوه مسكناً لفرسان الهيكل (الداوية) ، وهم الذين كانوا يتعبدون ويتقربون إلى الله بقتال أعداء الصليب المسلمين ؟! أما الجزء الثاني فقد استعملوه مستودعاً لذخائرهم ، وجعلوا سراديبه اصطبلات للخيول والحيوانات ؟!

ويتبجح الصليبيون ، فرسان ومشاة ، أمراء وصعاليك ، من صنيعهم هذا كل التبجح دون أن يخجلوا من هذا الصنيع ، بل كتبوا عنه المذابح إلى البابا ... يقولون فيه : « إذا أردت أن تعرف ما يجري لأعدائنا ، ثق أنه

(١) [تاريخ حروب الصليب] ج ١ ص ٧١ ـ ٧٥

(٢) [خطط الشام] ج ١ ص ٢٨٢ طبعة دمشق سنة ١٩٢٥م

في معبد سليمان (جامع عمر) كانت خيولنا تغوص إلى ركبها في بحر دماء الشرقيين»... نعم.. لم يخجلوا من هذا العمل، بل فخروا به وافتخروا، لأنه كان النموذج الذي حذوه في كل مكان وطئته أقدامهم على أرض الشام وفلسطين.

* * *

هذا ما صنعوه بالقدس مدينة الأنبياء ورمز السلام... فما صنعوه بوحدة الوطن العربي فهو أمر محكي، هو الآخر، وحدة مقصورة، لأنها محنة التي سهر الغرب لاستعمارى على تعقيدها في هذا الوطن العربي الكبير.

كانت تجارة العالمية قائمة بين الشرق والغرب، وكانت جميع طرق هذه التجارة تمر عبر العالم العربي، من مصر وجزر الهند إلى جميع أقطار العراق وسورية حتى ساحل البحر المتوسط... أو من هذه البلاد عن البحر الأحمر فجميع السويس فالبحر المتوسط... وفي كل الحالات كانت هذه التجارة العالمية تمر العرب، تدر عليهم أرباحاً، وتجعل منهم وسطاء كبيراً في ميزان الدولي، وحلقة طرفية وقوية حيوية وحيدة هذه الوطن الكبير... وهذا ما كان يجلب لهم حسد التجارية الأوروبية التي كانت قد قامت مدن التجارية المزدهرة في أوروبا... «جنوة»، «البندقية»، «بيزا»... «السدقية»... الخ... الخ... وهذا ما جعل هذه البورجوازية التجارية الأوروبية تضع يدها في يد أمراء الإقطاع ويتصدون في ذلك الحين الذي أقدمت فيه العرب الشرق، وتقدم القروض الضخمة للصليبيين وتمسح حملات الصليبيين..

والإمارات الصليبية التي أقيمت في المشرق العربي قد حاولت خلق طرق التجارة العالمية التي كانت تمر بهذه البلاد، في شكل «كونتية الرها» وفي الساحل السوري الفلسطيني تحت إمارة «أنطاكية»، «طرابلس» و«مملكة بيت المقدس» التي امتدت من جنوب حتى شمال «أيلة» (بلاد) على البحر الأحمر، والتي حكمها «جودفري» تحت لقب «حارس قبر المقدس وحاميه»، فانقسم بذلك الوطن العربي إلى مشرق ومغرب وبينهما فاصل وحاجز غريب،

وذلك لمرة لأولى منذ وحدة قوض مسلمين في منتصف لأول من محرم السابع للميلاد؟!

حقا لم يستطع مصريون أن يدعوا شعوب لأمم بعربية كي بلاد سكان مقدس ولمدن تي حسوف في شام وفلسطين وكلهم بهذه لإمارت التي أقاموها مركز وحدة هذه لوطن، ويرفعو مفاتيح تحاد بعد من بين يديه وحي لسفن بحرية لتي كانت تأتي من بحر لأحمر فخليج لسويس عدت مهددة بقرصنة لصليبيين بعد أن أقاموا لهم سفولا في هذ لبحر بعد وصولهم إلى ميناء مدينة «عقبة» عر خليج بعينه، بل هذ أحدو يهددون بهذ لأسطول ميناء «عيذاب» ويتعدون بعزو «لحجاز» ويتراخ رقاب برسول من مدينة يثربة عندهم ويقرصنو بعد ئب على المسلمين! إذا هم أرادوا أن يزوروه؟!

ولم يكن هذ هو كل ما حدث فقد فرضت «مملكة بيت لمقدس» لصليبية بصرائب على فوق بحرية بعينه بين كل من مصر وسوريه و«لحجاز»؟ ثم حظ صليبيون حضوب بعد بحو مصر فاستغلو شحوجه لنظام لفاطمي بها، وضعفه بعد تحكم بوزرء بضعاف وضرغمه في بسطاء، فأخذو يهددون بحتلاها، ووجهو بهم بفعل حوسهم أكثر من مره، في سنة ١١٦٣م، وسنة ١١٦٦م، وسنه ١١٦٨ م وستطاع صليبيون بهذه «حملات وبوسطة عدد من بوزرء منافسين على بسطه في بلاده من أمثال «شاور» و«ضرغام» و«بحيى بن أخطب» و«بن قرجلة» بما يصبو إلى بعض ما يريدون ففي سنه ١١٦٦م ستطاع بوزير لجئ «شاور» أن لخليفه لفاطمي «لعاضد» على توقيع معاهدة بصح بموجبها بصليبيين حمية من بمرسل على أبوب بقاهرة، وبدهم أيضا مفاتيح بدينة؟! وفي سنه ١١٦٨م صاحبهم «شاور» أيضا على برحوع عن حتلال بعاصمة مقابل مبلغ مقداره مليون دينار مصري؟! وسع في حياته بو حد بدي كان يسميهم فيه «بفرح» لا «بفرنج»، كي يحكي مؤرخون معاصرون؛ وهو حد الذي أرسل إليهم يقول لهم هوه مع بتسليم هم، ولا يمنعه من ذلك

إلا الخوف من نور الدين، والحسد، وعدم موقفة المسلمين؟!

وحين [illegible] مؤرخين [illegible] لأحداث هي [illegible] سيطرة [illegible] الصليبيون على مقدرات الشرق [illegible] مصر [illegible] فهو [illegible] بلاتيه، و[illegible] مصر على فتح [illegible] [illegible] والدخول معهم في عمليات بيع وشراء، ثم فرضه عليهم خراجه والإتاوات [illegible] شك شهادات هؤلاء المؤرخين، كقول [illegible] في [illegible] سامه» في كتابه (الروضتين في أخبار الدولتين نورية وصلاحية) في معرض [illegible] الصليبيون بحصاره رأس مصر «فرهن، وعجز عن حصاب وعلائق كثيرة، ثم عمد لتوزيعها على جنودهم عندما ذهب بنفسه عام سنة ١١٦٨م يقول أبو شامة وكان فيكهم «بعد أن دخل دار مصر قد أخذ من أصحابه من كتب له شيء قرى مصر جميعها، وعرف به حتى رتب عليها (دخلها) وأحصر وزيره، وأمره بقبض بلاد مصر جميعها (فرسانها)، وفرق قراها على أجناده ...»[1]!

وليس «أبو شامة» هو الذي تفرد بذلك وحده فمؤرخ (جزء مصدر يتفق مع «المؤرخ الصوري» يؤرخ صوره الصليبية الاقتصادية مصدر في الشرق يومئذ فيقول «كانت خزائن مصر تحت تصرفه، وبنصه «وشيئا كانت (مصر) من جهة أخرى مصدر، ومصدر تحركه حركة [illegible] أمور أهم مصر كلها كانت مفتوحة لهم مركز، ومخزن كل المؤن و [illegible] بلاد علاته [illegible] وهذه المتاجر كانت كلها تعود [illegible] والخراجات توفى له بانتظام»[2]!

نعم كان الشرق قد سقط [illegible] عرة الصليبيين [illegible] لإقطاع أقطعوه [illegible] وبمرجوعه بتجارته لأوروبة حكمت الصليبيين على التجارة العالمية، وعلى تجارته هو أيضا وحولت الرحلة الصليبية لأوروبة مقدسات المسلمين إلى اصطبلات خيول الفرسان [illegible] عند من

[كتاب الروضتين في أخبار الدولتين نورية وصلاحية] ج [illegible] ص ٤٣٠ طبعة [illegible]

(٢) [تاريخ حروب الصليبيين] ج ٢ ص ٧٦

[illegible] وهب عباده يتقربون بها إلى الله؟ [illegible] وصل [illegible] الاستعماري يومئذ أنه قد حقق النجاح الذي [illegible] [illegible] الأمراء [illegible] عن صد عدو خارجي، ووجه اللصوص لإبادة المسلمين والعرب وضمر السيطرة على الأرض التي تدر سمنا وعسلا لحسابهم جميعا الأمراء، والتجار، واللصوص، على السواء؟!

العرب يستيقظون

وأمام هذا الخطر المدمر الذي ألم بالشرق وأحدق بحضارته العربية الإسلامية استيقظت في الوطن العربي روح المقاومة، وانبتت الأرض [illegible] ملائما لذلك الخطر في النوع والكفاءة والأدوات؟! فلقد كان الصليبيون فرسانا جدا لا يمتلكون سوى الشجاعة والقدرة على سفك الدماء [illegible] فاستثارت صلابتهم هذه روح الفروسية في الشرق، فظهرت فيه موجة من نظم الحكم والحياة والمؤسسات التي كان عمادها الفرسان، وغلبت هذه الظاهرة في الشرق وتقدم أصحابها فتسلموا زمام الأمور من العلماء والفلاسفة والحكماء [illegible] العصور الوسطى، [illegible] الدولة العربية ذات الأصول [illegible] الدولة التركية - في «الموصل» بأرض العراق سنة ١٠٢٧م وحتى سقوط نظام المماليك في قلعة القاهرة على يد محمد علي سنة ١٩١١م؟!

تأسست في «الموصل» الدولة [illegible] على يد «عماد الدين زنكي»، [illegible] هم الفرسان المحاربون الذين أخذت هذه الدولة في إعدادهم لملاقاة الصليبيين وتحرير الأرض من استعمارهم الاستيطاني الغريب [illegible] ولكن فروسية الشرق العربية لم تكن مجرد شجاعة ومهارة في القتل والسلب والنهب كما هي عند الصليبيين، بل كانت فروسية عربية ذات سمات وشمائل تنبع من القيم الروحية والمشاعر الإنسانية التي صنعتها حضارة هذا الوطن العريق [illegible] فكانت هذه الفروسية العربية عشرة حضارة تتربى عليها وتتخلق بها الفرسان المحاربون [illegible] التقوى والشجاعة [illegible] الشمائل [illegible] ومراعاة الجوار والمروءة والكرم وحسن الضيافة ومساعدة النساء والأرامل

وتوفاه بالعهود. فهذا يقول من عروسة، وهذا يقول من عرسال. لوصل العربي أن يصدق موجة عروسية لصبية بلانيه، تلك التي عشقها «فرسان» لإقطاع أوروبي، لذين وصفهم «سعد بن مقدم» بقوله: «إنهم بهائم، فهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير»[1]!

وفي سنة ١١٤٤م استطاع عماد الدين زنكي أن يحرر شمال العراق وسوريا من الاحتلال الصليبي، وأن يزيل «كونته الرها» الصليبية من الوجود. وبعد وفاة عماد الدين تولى حكم حلب نور الدين سنة ١١٤٦م فتقدم بمقر عاصمته شرقاً كي يقترب من الإمارات الصليبية، فجعل عاصمته مدينة «حلب»، وبذلك تمهد لمعارك جديدة. وفي سنة ١١٥٤م ضمت إمارة «دمشق» إلى دولة نور الدين، فتحققت له بعض خطوات في طريق «الاستراتيجية» التي رسمها لاقتلاع الصليبيين من الشام وفلسطين. فقد كانت هذه الاستراتيجية تقوم على ضرورة الالتفاف حول الكيانات الصليبية من الشمال والشرق والغرب والجنوب، حتى لا يصبح أمام الصليبيين منفذ سوى البحر الأبيض المتوسط، الذي جاءوا عبره من أوروبا، ولا بد من الإحاطة بهم والضغط عليهم حتى يعودوا عبره إلى البلاد التي بدأوا منها هذا العدوان الكبير.. وينقل العاصمة إلى حلب، بعد تحرير «كونتية الرها»، وضم إمارة «دمشق» إلى دولة نور الدين يحقق الالتفاف العربي حول الكيانات الصليبية من الشرق ومن الشمال، ومن الغرب والجنوب.

وفي الغرب كان النظام الفاطمي بمصر قد أمكنه تحرير عسقلان على ساحل فلسطين، وستغل الصليبيون هذه الثغرة فأصبحت هم كلمة مسموعة في البلاد[2] ولكن أطرافاً أخرى قررت أن تستغل في هذا الصراع إلى جانب نور الدين وقوات قواته المحررين لإنقاذ البلاد من الوقوع في قبضة الصليبيين.

نعم كان نظام الحكم في مصر شيعياً وكان نور الدين سنياً، وكان حكام مصر الفاطميون ممن يشجعون التعليم ويمسكه ويعنون بالأدب سنياً

---

(١) [الاعتبار] ص ١٣٢

كل نور الدين وحده لا يعرفون عنه هذه الأمور، ولا يقيم لهذه الأمور كبير اهتمام وحروب ولاستعداد لها. وكل همه هو تحرير مصر من الصليبيين ووضع حد لأطماعهم في مصر. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف كان يضحي بكل شيء حتى بحياته. وقد حاول مرارا القضاء على الصليبيين في منطقة الشام، وقام بهذه المحاولة بنفسه عدة مرات، وأرسل فيها جيوشه عدة مرات أيضا. وفي كل مرة كان الصليبيون ينتصرون فيها بجيوشهم لاحتلال بلاد كان جيش نور الدين يأتي لقتالهم، وينهي الأمر لصالح الصليبيين. حدث ذلك في سنة ١١٦٣م وسنة ١١٦٦م. وعندما اشتد الحصار الصليبي سنة ١١٦٨م خرجت رسالة سرية من القصر الفاطمي بالقاهرة، بعث بها جماعة «المعاضيد» إلى نور الدين، يطلب فيها أن يرسل جيشا يقوده أسد الدين شيركوه» وابن أخيه «صلاح الدين الأيوبي». وبعث «المعاضيد» في هذه الرسالة «خصلات» من شعر رأسه، وكتب له «هذه شعور خدمك من قصري مستغيث بك مستغيث من خليج». وبعهد في رسالته أن تكون مصر بعد ذلك تحت بلاد نور الدين، وذلك غير قطعات جيش أسد الدين شيركوه. الذي ظل بقاءه دائما في البلاد.

وجه جيش نور الدين، وهزم جيوش الصليبيين بعزبة مصر، ووصل إلى القاهرة في ٤ ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨م). وفي يوم ١٧ من نفس الشهر تولى أسد الدين شيركوه وزارة مصر بعد أن قبل صلاح الدين الأيوبي الوزير «الشاور» صديق الصليبيين. وبعد شهرين وخمسة أيام توفي أسد الدين فتولى وزارة مصر صلاح الدين في ٢٥ جمادي الآخر. وانتهت حصوه كبرى نحو تكوين الأمة تتحد برسوخه بتحرير مع الصليبيين، فقد تم توحيد جبهة بعزبته مع جبهه شرقيه بشيعة وهو لا تكمل حصار الصليبيين من الجنوب.

«لقد نور الدين يؤكد وعي المجتمع بعربي يوشك بهذه الاستراتيجية، وإدراكه مدى أهمية وحدة مصر مع الشرق وضرورة هذه الوحدة لتحرير فلسطين، ف كل الشعوب بدأ كفاحه نور الدين و أسد الدين شيركوه

بالانتصارات التي حققوها في مصر على الصليبيين وأعوانهم، كانوا دائماً يتحدثون عن دور هذه الانتصارات في تقريب اليوم الذي تتحرر فيه فلسطين، بل لقد اعتبروا إن هذا الانتصار الذي وحد الجبهة الشرقية والشمالية بالجبهة الغربية لا يترك عذرا بالإبطاء عن تحرير فلسطين..؟

فالعماد الكاتب يهنئ أسد الدين شيركوه، فيقول

فتحت مصر، وأرجو أن تصير بها ... ميسراً لفتح بيت المقدس عن كثب؟!

ويهنئ نور الدين فيقول له إن الساعة قد حانت لتحرير فلسطين

أعز الفرنج فهذا وقت غزوهم ... وحطم جموعهم بالذل الحطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما ... في عقد عز من الإسلام منتظم؟

أما الشاعر ابن عساكر علي بن الحسن بن هبة الله، فإنه عندما يمدح نور الدين، يقول له إنه لا عذر له عن تأخير المعركة بعد توحيد الجبهة الذي حدث بالانتصار في مصر.

ولست تعذر في ترك الجهاد وقد ... أصبحت تملك من مصر إلى حلب؟!
وصاحب «الموصل» الفيحاء ممتثل ... لما تريد فبادر فجأة بنوب؟

وأمام هذا الانتصار العربي الداخلي الكبير تحركت جيوش الصليبيين، فتحركت نحو «دمياط» أساطيلهم في نوفمبر سنة ١١٦٩م (أول صفر سنة ٥٦٥ هـ) (أسطول «أمبريك» ملك بيت المقدس وأسطول مبراطور الأغريق) واستمر حصارهم هذا الثغر الذي كان يومئذ مفتاح الغزاة لاحتلال البلاد، استمر حصارهم ومقاومة صلاح الدين لهم خمسين يوما، حتى اضطروا إلى الرحيل..

وبعد أن استقرت الأمور لصلاح الدين بمصر، كانت عينه على جنوب فلسطين، فهناك الطريق الذي يجب أن يفتح كي يتم اتصال مصر بالمشرق العربي، وكي تتحقق الخطوة الأخيرة في الاستراتيجية العربية بإحكام الحصار حول الكيان الصليبي من الشمال والشرق والغرب والجنوب. ولذلك فإنه

كل مصدق ... تكون وفي غزوات صلاح الدين الأولى في قلاع من مصر ... الصليبيين هي تلك التي تحاصر حصن «الكرك» وبلاد محيطة به في جنوب فلسطين ... وشرق ... ن نهر الأردن) بصف هذه المنطقة في كتابه (نزهة المشتاق) فيقول: «... كانت في الطريق لمن يقصد من مصر ويقطع من قصد مصر ... فلما صلاح الدين قصد بغزوه توسيع نطاق وتسهيله لتتصل ببلاد بعضها ببعض.»[1]!

وحتى يحقق صلاح الدين هذا الهدف قام بأربع غزوات في سنة ٥٦٨، وسنة ٥٧٩، وسنة ٥٨٠، وسنة ٥٨٣ هـ؟!

وعلى جبهة الأمراء المسلمين الذين تسلموا في الشرق ميراث نور الدين بعد وفاته سنة ١١٧٤م، كان صلاح الدين جهد كبير لتوحيد صفهم، فعقد معهم عدة اتفاقات في ٢ أكتوبر سنة ١١٧٠م على ألا يحارب بعضهم بعضاً، وشارك في هذه الاتفاقات أمراء «الموصل» و«حرين» و«أرمينية» و«الكرك» و«ماردين» و«قيسارية» و«أرسوف» وعندما نقض بعض هؤلاء الأمراء هذه الاتفاقات لم يتردد صلاح الدين في حربهم كما صنع مع صاحب «حمص» عندما نازع ابن عمه ولايته في ١٨ يونيو سنة ١١٨٣م..

وعلى جبهة الوضع الداخلي في مصر تصدى صلاح الدين لحركات التمرد التي قامت بها بقايا الجيوش الفاطمي الذي أعيد بعد وفاة خليفته «العاضد» سنة ١١٧٠م، فاستطاع أن يُؤمِّن جبهة مصر الداخلية، وخاصة بعد انتصاره على خطر أسود يتمثل في «جنود سودانية» تدين كلها بالعبودية حرس الخلافة الخاصة، عندما أعلنوا التمرد في «أسوان» سنة ١١٧٤م... وعندما أحس في أواخر نوفمبر ذلك أن استقراره في الوضع الداخلي لمصر، وفي جبهة عودته بعربته، لم يكن أمنه الداخلي إلا أن يتوجه بنفسه وجيشه لقتال الصليبيين في فلسطين..

---

(١) [النوادر السلطانية] ص ٤٤، ٦٦

في الطريق إلى حطين

وحتى بعد أن وحد صلاح الدين جبهة مصر الداخلية، وضمن حد جبهته الغربية، لم يكن طريقه إلى تحرير فلسطين سهلا. ولا غرو فقد وقع بطريقه قلعة حصن «كركر» التي تكبدت عدة حروب قبل أن يستطيع صلاح الدين حكم قبضته على هذا الموقع الاستراتيجي الهام، الذي يقع على طريق البر إلى الجنوب من هذا الحصن يصل مصر بالمشرق. إلا أن هذه الطريق قد ظل مهددا بسلب ونهب وغارات الصليبيين.. بل لقد أقام أمير هذا الحصن الفرنسي «ريموند شاتيون» الذي يسميه المؤرخون العرب «أرناط» سطولا في البحر الأحمر لمهاجمة سفن مصر، وبعد أن استولى على جزيرة «أيلة» (العقبة) بخليج العقبة، وأخذ يهدد بمحولات تفتيش هذه الجزيرة على الأسطول المصري لقذفه «جسم بدن إلى الجنة» (على حد قول ابن واصل) الأسطول بمصر» في سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢م).

وفي سنة ١١٧٤م (سنة ٥٧٠ هـ) أبحر أسطول صليبي من «صقلية» لغزو مصر عن طريق الإسكندرية. ولكن صلاح الدين استطاع أن يهزم هذا الأسطول.

وشهدت أعوام ٥٧٥ـ٥٧٨ هـ (١١٧٩ـ١١٨٢م) عدة معارك ومناوشات قام بها صلاح الدين ضد قلعة تقع على طريق فلسطين الهام حصن المسلمين ضد «محاصة لأخرى» تخرج من «الكرك» و«الشوبك» أن يقطع طريق الحج ويعكر صفو الأمن في بلاد «الشام» و«الحجاز» و«اليمن» و«النوبة».

ثم بعد تعرض مع جيشه لهزيمة كادت تؤدي به في سنة ١١٨٢ عندما دخل ضد الصليبيين معركة في «الرملة» ضد «أرناط» صاحب «الشوبك» و«الكرك» يصف هذه الهزيمة التي يسميها «كسرة الرملة» فيقول: «وقد جرى الحال في ذلك اليوم على المسلمين» عندما سقطت قواتهم بعد هجوم صليبي على غرة «فانكسروا كسرة عظيمة، ولم يثبت فيها

حصن قريب يأوون إليه» ففروا، «وطلبوا جهة الديار المصرية، وضلوا في الطريق، وتبددوا» وعاد صلاح الدين إلى مصر بعد أن تفرق جنده. وكانت هذه الهزيمة «وهذا عظيم جبره الله بوقعة حطين»؟ فلقد قضى صلاح الدين الأيوبي بعد هذه الهزيمة خمس سنوات في الاستعداد للقاء الكبير الذي حدث عند «طبرية» في سنة ١٨٧ هـ، وهو اللقاء الذي أباد فيه جيش الصليبي في «حطين»، ففتح الباب على مصراعيه لتحرير القدس وأعلت المدن والحصون والقلاع الصليبية في فلسطين..

المعركة المصيرية

كان صلاح الدين قد أكمل استعداده، وخرج بجيشه من مدينة دمشق في يوم السبت أول محرم سنة ٥٨٣ هـ (مارس سنة ١٨٧ م)، وهدفه القيام بجولة يخوض فيها جيشه عدة معارك ضد مدن الصليبيين وحصونهم المهمة واستعداد للقاء الكبير الذي لم يكن قد تحددت بعد معالم مكانه ولا زمانه حتى ذلك التاريخ؟!

وعند «رأس الماء» عسكر القسم الأكبر من الجيش، ومعه الملك «الأفضل» ابن صلاح الدين. أما صلاح الدين فلقد قاد جزءاً من الجيش وقصد إلى حصن «الكرك» وفرض عليه الحصار. وجاءته إمدادات من مصر فسلمها بين حصن «الكرك» وحصن «الشوبك»، حتى بطل الحصار بحب الحصار. فحرم جيوش الصليبيين من مكاسبهم في المعارك القادمة، ولا يستطيع فرسان هذين الحصنين قطع طريق الإمدادات من مصر إلى فلسطين.. وبالفعل استمر هذا الحصار شهرين كاملين.

ثم بعث سرية من جيشه للإغارة على مدينة «طبرية» التي كانت مع قلعتها الحصينة مركزاً رئيسياً للصليبيين..

وأرسل إلى «صفورية» بالقرب من «عكا»، حيث تكونت قوته من ثلاثة أجنحة، ضم الأول فرسان «الجزيرة» الذين جاؤوا من «ديار بكر» بالمشرق،

بقوده «مقدم سيد كوكبري» أمير «خرب» وضم شمل جنود «حلب و بلاد شمشاط» بقوده «أمير لدين دمرم بن يروق» وضم شمل جنود دمشق وبلادها، بقوده «صارم لدين قيمر لحمي» واستطاع هذا الجيش أن يحرز أول انتصارات عظيمة في ذلك العام ضد الصليبيين والتقى معسكر الجيش المنتصر الذي بلغ تعداده ١٢,٠٠٠ مقاتل وسعرضه بعد تحقيق الانتصار..

وفي صيف سنة ١١٨٧م دارت في إقليم حطين معركة كبرى بين الجيش الذي يقوده «الملك الأفضل» بن صلاح الدين وبين فرسان الصليبيين ورغم العدد الشديد الذي قيل به الصليبيون «فقد هزموا في هذه المعركة ولم تنفعهم الخوذ التي أرادوا بها إضعاف عزيمة العرب، عندما أشاعوا أن فارسهم «العقوب ذو الخوذ»، الذي كان شديد البأس في المعارك، ليس إلا الشيطان «الجورجيوس» الذي يتوعد من يجرؤ بمحاربة المسلمين؟

وفي يوم الجمعة ٤ ربيع الثاني تحرك صلاح الدين ومن معه من الفرسان وعشاة إلى حيفة الساحل حيث أعلن الحصون والقلاع التي يسيطر عليها الصليبيون فعسكر بمنطقة «لجسفرين» وفي الصباح سار إلى نهر الأردن، فعسكر عند ثغر «الأفحوانة» الحربي بحيرة طبرية بعد أيام، وترك فيها جيشه

ثم تحرك من «الأفحوانة» فقرض الحصار على مدينة طبرية، وكان يريد أن يستدرج قوات الرئيسية للعدو من مختلف بقاع فلسطين للدفاع عن هذه المدينة حتى يدخل معهم معركة فاصلة تنتج عنها تحرير البلاد وحتى يتمكن أعداء بتحديد حصاره وقوته سنحصر «الناصرية» و «الفاتيين» و «الحرسيين» و «الحجاريين» يعسكرون دونهم في سرج المدينة وسورها الحصين واستطاع «الملك» المنعم هذه الخطة لأنه وعند ذلك أخذ الصليبيون يتشاورون، فعقدوا جميع حصره تحتوي جميع الحصون و بقرى وخيولهم وثار بينهم سؤال هل يقاتلون مع صلاح الدين؟؟ هل يتقدمون لقتاله عند طبرية؟ أم يتركون كل جهدهم يدفع عن عكا،

تركيز طبرية وغيرها من مواقع بفتحها صلاح الدين؟! وكان «ريموند» أمير طرابلس مع رأي الجيش ولكن لأعمال عقله، وقرروا حشد قواتهم لمنع صلاح الدين عند طبرية فسار إليهم ٥٠,٠٠٠ مقاتل صليبي من «صفورية» وحدها في ٣ يوليو سنة ١١٨٧م، فبلغت عدة جيشهم حينئذ ٦٣,٠٠٠ أيضاً من الفرسان والمشاة. ويحسب الجميع حينئذ خطة صلاح الدين؟!

وفي يوم الخميس أول يوليو سنة ١١٨٧م (٢٢ ربيع الثاني سنة ٥٨٣ هـ) بدأت مواجهة بين الجيشين غير شديدة. وحاصر صلاح الدين بحيرة طبرية قد حال بين الجيش الصليبي وبين الماء. وهضبة حطين التي تدور عليها المعركة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ٣٠٠ متر، وهي هضبة ذات قمتين عاليتين، يسميها المؤرخون العرب «قرون حطين»؟!

وطوال ليلة الجمعة لم ينم صلاح الدين، بل ظل يدور مشاة بين قواته يرفع من روحهم المعنوية ويطمئن على عددهم وعدتهم. وشاهد بين الفريقين استعدادين مختلفين تماماً تؤكد أن هذه المعركة فاصلة ومصيرية وأنه لا بقاء لأحدهم فيها، أو كما يقول نحن اليوم «نكون، أو لا نكون». وتبعاً لذلك المعنى - عند «ول ديورانت» - «انعدمت كل طائفة أن المكسورة منهم منحورة الجنس منعدومة النفس»؟!

واشتعل القتال يوم الجمعة. وكان الفرسان الصليبيون بقيادة «ريموند» أمير طرابلس في مواجهة جنود صلاح الدين، وملك بيت المقدس «جي دوريجنان» ومعه فرسان هيكل «الداوية» والمتطوعون الآتون من أصقاع الأرض يقاتلون وراء الفرسان، ومصير هؤلاء جميعاً يتحدد على أرض حطين التي تسمى عند المسيحيين كما يذكر المؤرخ الفرنسي «جوستاف لوبون» بـ«حقل الفرسان»؟!

وحل المساء فتوقف القتال. وسهر صلاح الدين على جنده، حتى جاء الصباح، فافتتح قتاله بجنود الذين كان يسميهم صلاح الدين «المكورس»، فقهر بجنوده بني الصليبيين وأحدث فيهم مقتلة

نسيمه حتى قتلوه . وأخذ الصليبيون رأسه ظنا أنه ابن صلاح الدين؟!

واشتعل الحماس في صفوف المسلمين، وازدادت حرارة الشوق إلى الجهاد، وراح صلاح الدين يتفقد بعض جند الصليبي. فلم يشعر بالارتياح لحالة كثير من مواقعهم، فحاصرهم بين يافا وعسقلان حتى يرفعوا درجة استعدادهم، بينما هم يعدون عن موارد الماء[1] . وعلى حد تعبير صاحب (تاريخ حرب الصليب) فقد كانت «لسان مطايرة في الهواء تطير (مثل) طيران العصافير محرقة بحرارتها» وماء السيوف (أي الدماء) حامد في وسط المعركة، يعطي الأرض كميته مطره»[1]

ودارت الدائرة على جيش الصليبي فاستحر فيه القتل حتى أصبح يحصل حطين، فتبعهم جيش صلاح الدين.

وهناك على تل حطين دارت معركة قاسية حارب فيها الصليبيون حرب اليائس الذي لا أمل له في النجاة؟! فشت جماعة من فرسانهم هجوما على قلب جيش صلاح الدين فاستطاعوا بأن يدفعوا هجوم المسلمين إلى الوراء . وعندئذ رأى صلاح الدين، فصاح في جنوده «الكرة الكرة»[1] فعاد المسلمون إلى هجوم على الصليبيين حتى ردوهم إلى على حطين، وكان الأفضل ابن صلاح الدين (١٦ سنة) يقف إلى جوار أبيه. فظن أن النصر قد تحقق للمسلمين، فهتف «هزمناهم» ولكن الصليبيين قد عادوا هجوم . وعاد صلاح الدين هتافه كذب الكرة»[1] ، فتعجب الصليبيون مما تقدم المسلمين فعاد الأفضل هتافه الأول «هزمناهم»[1] ولكن أحد فرسان الصليبيين وشار بيده إلى خيمة ملك الصليبي «جي لوزجان» فوق حطين وقال لأتباعه «لا تهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة»؟ وفي تلك اللحظة هوت خيمة ملك الصليبي، فعادة بهزيمة، فترك صلاح الدين لأيوبي ظهر جواده، وسجد، وقبل الأرض شكرا لله على هذا الانتصار.

---

(١) [تاريخ حرب الصليبية] ج٢ ص ٨٥

ومن بين الثلاثة والستين ألفاً الذين تكون منهم الجيش الصليبي في هذه المعركة، سقط ثلاثون ألفاً قتلى ومثلهم أسرى بينما استطاع «تموند» الفرار بمن معه إلى طرابلس حيث مات هناك. ويقول أبو شامة: «إن من شاهد القتلى قال: ما هناك أسير. ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل؟! ومنذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفي للمسلمين كيوم حطين»؟!

ومن بين الأسرى كان الملك «جاي لوزنجان» وشقيقه «جفري» والبرنس «أرناط» صاحب حصن «الكرك» والبرنس «أوك» صاحب «جبيل» و«هنفري» وابن أمير «الاسكندرونة» وأمير «مرقية» وأمير «الشوبك» وابن أمير «طبرية» وقادة فرسان المعبد «الزاوية» والفرسان الاسبتارية (الهسبتاليين).

وبعد أن استعرض صلاح الدين الأسرى قرر أن يقتل كل الذين سبق لهم الغدر بالعهود، وفيهم البرنس «أرناط». وأيضاً أولئك الفرسان الذين اتخذوا من القتل والسلب والنهب عبادة يتقربون بها إلى الله، إلا من أقلع منهم عن نهجه هذا باعتناقه الإسلام. وكما يقول «أبو شامة» إنه لم يسلم منهم «إلا آحاد حسن إسلامهم»؟!

وفي يوم الأحد ٤ يونيو سنة ١١٨٧م فتح صلاح الدين قلعة طبرية.

وفي يوم الأربعاء ٧ يوليو زحف إلى «عكا» فحررها من الحكم الصليبي.

وسار أخوه العادل في جيش فتح به «مجدياباً».

ثم قسم السلطان جيشه إلى مجموعات أخذت تزحف لتحرير المدن والحصون والقلاع والقرى في طول وعرض فلسطين. ففتحت أمام هذا الجيش «الناصرة»، و«قيسارية»، و«حيفا»، و«صفورية»، و«دبورية»، و«نفوية»، و«جنين»، و«زرعين»، و«الطور»، و«اللجون»، و«القيمون»، و«الزيب»، و«معليا»، و«البعنة»، و«اسكندرونة»، و«مواشا»، و«أرسوف»، و«عفريلا»، و«ريحا سنجيل»، و«البيرة»، و«قلونية»، و«صرفند»، و«مجدل الجناب»، و«جبل الخليل»، و«تل الصافية»، و«التل الأحمر»، و«فرنسا»،

و«صور»، و«هرمس»، و«سبع»، و«يافا»، و«صيدا»، و«نابلس»، وقلعتها، و«سبسطية»، و«بيسان»، و«بيروت»، و«عسقلان»، و«الرملة»، و«الداروم»، و«غزة»، و«بيت لحم»، و«بيتي»، و«بيت جبريل»، و«بيطرون»، و«مشهد الخليل»، و«لد» وغيرها وغيرها من البلاد والقرى والقلاع والأبراج...

وبعد أن فتح صلاح الدين الأيوبي «عسقلان» كتب إلى بعض أقاربه رسالة قال فيها: إنه لم يبق أمام جيشه المنتصر «من «جبل» إلى حدود مصر سوى «القدس» و«صور». والعزم مصمم على قصد «القدس» فالله يسهله ويعجله. فإذا يسر الله تعالى فتح «القدس» ملنا إلى «صور» والسلام»؟!

وهكذا سار القائد الفاتح بجيشه نحو القدس، بعد أن فتحت له معركة «حطين» الأبواب على مصراعيها لتحرير كل فلسطين..

تحرير القدس

[٥٨٣ هـ ١١٨٧م]

الجمعة ٢ اكتوبر عام ١١٨٧م (٢٧ رجب عام ٥٨٣ هـ) .

كان صلاح الدين الأيوبي يجلس على ربوة تطل على القدس العربية، بينما جموع الصليبيين اللاتين يرحلون مهزومين عن المدينة. يمرون من تحت ذراعيه. هذه الجموع التي خدعتها أطماع أمراء الإقطاع الذين قادوا أولى موجات الاستعمار الأوروبي إلى الشرق العربي متخفين في ظل الصليب.

الحكاية القديمة تتجدد.

الاسرائيليون يطبقون الظلام الآن على القدس يمدون للاستعمار الجديد جسور إلى الشرق العربي. لكن القدس سوف تعود إذا ما أدركنا كل المغزى من الحكاية القديمة. الحكاية التي تتجدد ذكراها هذه الأيام.

لم تتبدل استراتيجية المكان فالذي حرر القدس قديماً وحدة حادة ربطت ما بين الجبهتين الشرقية والغربية.

لم تتبدل أدوار التاريخ. كانت مصر هي مفتاح المشكلة وأمل الموقف.

* * *

ابتداء من العقد الثالث للقرن الثاني عشر الميلادي رسخ في يقين العرب المسلمين أن الوظيفة الأولى «المملكة أورشليم» الصليبية إنما هي قضم عربي

وحدة العرب والحيلولة دون قيامها، والسعي إلى تحويل الأرض المقدسة إلى منطلق يحكم منه أمراء الإقطاع اللاتين الأنحاء المحتلة للعالم العربي.

ومنذ ذلك التاريخ، وبعد سلسلة من المحاولات الحربية الصليبية ضد مصر، رسخ يقين العرب والمسلمين أيضاً أن تحرير الأرض المقدسة إنما هي مهمة مصر التي ينظر إليها الصليبيون باعتبارها المفتاح الذي يكمل سيطرتهم على الأرض العربية كلها.

ومن هذا اليقين العربي أصبحت قضية تحرير القدس، التي ترمز لتحرير فلسطين، هي القضية الأولى والأساسية لكل أنظمة الحكم العربية في ذلك الحين... بل لقد كانت هذه القضية، قبل غيرها، هي المحرك لكل التغييرات السياسية والعسكرية التي رفعت إلى قمة السلطة في العراق الدولة «الزنكية» التي أخذت جيوشها في التقدم شرقاً وشمالاً، مكونة الجبهة الشرقية والشمالية في المعركة الفاصلة المنتظرة مع الصليبيين..

الجبهة الشرقية والجبهة العربية

وعندما قامت الدولة الأيوبية في مصر على أنقاض الضعف والتحلل الذي أصاب الخلافة الفاطمية، ودبت الحياة والقوة إلى الجبهة العربية من جبهات المعركة، كان الشرط الضروري للنصر هو الالتحام العضوي بين هذه الجبهات، وذلك حتى يحبط العرب والمسلمون بهذا الكيان الصليبي الغريب المزروع في جسدهم، والذي جاء من أوروبا عبر البحر المتوسط متسللاً من ساحله الشرقي إلى داخل البلاد وكانت هذه المهمة التي قام بها وقاد معاركها البطل العربي صلاح الدين الأيوبي.

ففي العام التالي لقيام الدولة الأيوبية بدأ صلاح الدين يزحف على جنوب فلسطين حتى يمهد الطريق البري الذي يصل الشرق بالغرب، لا خدمة للتجارة وحدها، ولا تأميناً لقوافل الحج فقط، وإنما أساساً وبالدرجة الأولى، لإقامة طريق الجبهة القتالية الموحدة من جنوب الصليبيين، وكان حصن

«الكرك» الصليبي بجنوب فلسطين، بحكمة «ريجنالد» أمرس ما على أمراء الصليبيين وقد تعرض هذا الحصن المنيع لأربع غزوات من صلاح الدين.

وقبل الاستيلاء على قلعته في الغزوة الأخيرة كان الأسطول المصري قد حقق انتصارا بحريا ضد الأسطول الصليبي في البحر الأحمر سنة ١٨٢ م عندما قاد «حسام الدين لؤلؤ الحاجب» «مولى الأسطول المصري» هذه المعركة، ففك حصار الصليبيين لحصن العقبة «أيلة»، ومنشأ «عيذاب»، وأجهض محاولة الصليبيين لتدمير الأماكن المقدسة الإسلامية في أرض الحجاز.

وفي الحقيقة فإن الشعراء الذين عاصروا هذه الأحداث، والذين رحبوا بتطوراتها وتغيراتها ومعاركها، ابرموا منذ التذكير بالقدس وتحريرها، والحديث عن مقدساتها وضرورة تطهيرها، وهو موقف ينفي عن العقل العربي والطبيعة العربية ما يرميها به المعرضون من تهم «الفوران الوقتي الذي يعقبه الخمود والنسيان»، ويؤكد القدرة العربية على الصمود النفسي، بل والعليان الدائم والمستمر حتى يتحقق النصر في المعارك الهامة والمصيرية.

بل إن هؤلاء الشعراء لم يتركوا المناسبات الخاصة والشخصية، دون أن تكون مقاما لحديثهم عن تحرير القدس وتطهيرها من دنس الصليبيين، وعندما ذهب الشاعر «العماد الكاتب» إلى صلاح الدين ليعزيه في وفاة عمه [illegible] الشاعر في سياق هذا العزاء أن يعيد التذكير بالقدس داعيا إلى [illegible] وتجهيز العدة لفتحها من جديد.

فيقول:

قضوا على الإفرنج سوط عذابها ... بأن تقسموا ما بينها [illegible]
ولا تهملوا بيت المقدس، واعزموا ... على فتحه عزمين، وافترعوا [illegible]

وعندما يهنئه بتحرير «غزة» يذكره بالقدس، فتحريرها فتح باب تحرير الشام كله من يد الغاصبين، فيقول:

غزوا غير دار المشركين «بغزة» ... جهارا، وطرف الشرك حربان مطرق

وهيجت للبيت المقدس لوعة يطول بها منه إليك التشوق
هو البيت إن تفتحه، والله فاعل فما بعده باب من الشام مغلق

كانت القدس إذن هي القضية التي اجتمعت من حولها [illegible] كما اجتمعت من حولها الإمارات والولايات [illegible] والاتجاهات [illegible] وأصبح تحرير القدس [illegible] هو طريق الوحدة للعرب.

كانت القدس إذن هي محور [illegible] العرب [illegible] من حولها مشاعر كل الناس حتى «المنجمون» حولوا صناعتهم في ذلك العصر إلى عوامل تثير في أحكام الإحساس بالخطر الصليبي وضرورة قهره، [illegible] صلاحهم [illegible] في سبيل [illegible] موكب المنجمين إلى صلاح الدين [illegible] القدس، [illegible] بفقد إحدى عينيك في القتال، فيحييهم القائد البطل بقوله: «قد رضيت بأن أعمى وأدخل المدينة»!!.

وعندما [illegible] على [illegible] صلاح الدين [illegible] على [illegible] العربية [illegible] بالاستعداد للزحف على مقدسات المسلمين في الحجاز، وبات صلاح الدين [illegible] لاحتياط [illegible] وشرع في السير نحو معركة [illegible] معركة [illegible] القدس [illegible] من أشهرها وأكثرها حسم معركة «حطين».

وصولاً إلى أسوار المدينة المقدسة

وبعد النصر في «حطين» [illegible] صلاح الدين في حملته [illegible] الأسرى [illegible] والأمراء [illegible] وكان الجميع يرتعدون من الخوف وينهبون من العطش [illegible] والحر الشديد..

كانت [illegible] ذكرة الأسرى من [illegible] والأمراء [illegible]

صفوف أعدائهم المسلمين عندما فتحوا هذه البلاد، ولكنهم بتقدمهم في هذه الصفوف أصبحوا هدفاً سهلاً لسهام المتصرين. ولكن صلاح الدين لم يسلم من أسرهم البالغين ثلاثين ألفاً سوى ٢٠٠ من فرسان المعبد والمستشفى الاستريد، ولقد جمعوا من سفك دماء العرب والمسلمين عامة ما جعلهم يتقدمون بها إلى الله[١٢] ثم ثم خيرهم السلطان بين الخروج من هذه المعركة بعرض وشاد، والتحول إلى الإسلام، وبين حد السيف، فمن اختار هذه الخيرة الأخيرة التي تركت الحكم لله في أمرهم لم يحد، حسن إسلامهم، وقتل منهم الباقين

وفي يوم الأحد ٤ يونيه، سيرت العرب على قلعة الصفراء، وبعد أربعة أيام فتحوا عكا، وأخذ الجيش المنتصر يتوغل في الجنوب فاحتل قيسارية من فورها وبعدها فلسطين غزة، ويافا وقيسارية فصلاً عن سور مدينة المقدسة

في يوم الأحد ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧ م وصل جيش صلاح الدين إلى سور مدينة المقدسة، وأخذ يحاصر العرى من سورها، وعسكر في نفس المكان الذي فتحها منه الصليبيون في سنة ١٠٩٩ م وشرع في بعض الخطط وجمع المعلومات عن قوة المدينة وتحصيناتها وقوة مرتزقها، وتعداد الجيوش الموجهة لحمايتها خلف الأسوار وبعد أن فتش في الاستعداد، وأمر بهدم، وجمع المعلومات وتحدثت بعض المؤرخات لمندوبي الصليبيين، فرأى الأنفس من جانب المدينة الغربي في جانب شاسع وانحدرت بعض في يوم الجمعة ٢٥ سبتمبر، بعد خمسة أيام من بدء الحصار.

وقبل أن يبدأ القائد العربي وجيشه الأعمال الحربية الكبرى، كان هناك كثير في الأماكن المقدسة خلف هذا السور الذي يحيط بها، وفي ثلاثة أيام والتدمير عن هذه المقدسات في نحبهم الأدنى ثلاثة وتقديسهم بشرية جمعاء.. وقرر السلطان القائد، صاحب الجيش المنتصر، أن يبعد من ذهنه وقلبه رغبات الانتقام من صبيح ثلاثين صليبيين بالمدينة وحدها، وهي خسة وديته، وأن يجعل بحصاره وبمدينة وبقدسية المعبد في هذا اليوم وبعد ٩٢

وأن يعرض على المحتلين فيها تسليمها له، فبعث إليهم رسولاً من قبله يبلغهم هذه الرغبة، ويقول لهم على لسانه: إنني مثلكم، أقدس هذه المدينة، وأعرف أنها بيت الله، وأنا لم أت إلى هنا كي أدنس قداستها بسفك الدماء، فإذا سلمتموها لي فإنني أخصص لكم «قسماً من خزائني» وأمنحكم من الأرض «بمقدار ما أنتم تستطيعون أن تقوموا بأعمالها».

وانتظر جوابهم على هذا العرض من عروض الأمان والتعويض والسلام. ولكن الصليبيين الذين كانوا قد جمعوا في المدينة ٦٠,٠٠٠ من الفرسان والمقاتلين، ركبوا خيلهم، وعقدوا اجتماع مشورتهم، وقرروا رفض عرض صلاح الدين. وشرع بعض خيالتهم وفرسانهم في مبادأة الجيش العربي بالمناوشة والاستفزاز. وجاء في رسالتهم الجوابية إلى صلاح الدين: «إننا لا نقدر أن نسلمك مدينة قد مات فيها إلهنا بالجسد، وأكثر من ذلك نحن لا نقدر أن نبيعها».

الصليبيون يفرضون المعركة

لم يكن أمام صلاح الدين سوى القتال. وفي يوم السبت ٢٦ سبتمبر نصب العرب «المنجنيقات» على المرتفعات لترسل قذائفها من فوق الأسوار، وعبر هذه الأسوار. وفي الوقت الذي شرع فيه «النقابون» في اختيار أنسب الأماكن في سور المدينة لنقبها، كان القتال اليومي يدور بين العرب وبين الصليبيين..

وشهدت أسوار المدينة وأطرافها الدوريات الليلية تخرج من الجانبين لجمع المعلومات، وللرصد، وللسلب، وسجلت ليالي الحصار عمليات قتالية فردية انتحارية قام بها فرسان من الجانبين.

وعندما كان يأتي الليل، كان الصليبيون يظلمون المدينة، ويتعذبون بسائر على المصابيح والنوافذ والقناديل حتى يحجبوا عن المسلمين رؤية التحركات والتحصينات. وتبعه المؤرخين الأدباء الذين شهدوا المعركة، فيهم

قد «ستروا بظلمات الستائر وجوه الأنوار»؟!

واختار الصليبيون لقيادتهم في هذه المعركة الفاصلة القائد «بالين ده ابلين»، أحد القادة القلائل الذين تمكنوا من الهرب في معركة «حطين».

وأمد البطريرك القائد «بالين» بما يحتاج إلى الاستعداد الحربي، حتى لقد جمع له سبائك الذهب والفضة، ونزع له زينة الكنائس، بما في ذلك الذهب والفضة التي زين بهما قبر المسيح، فضربت عملة يستعينون بها على أمور القتال؟!

وعندما تسع عمل «البلين»، في جيش صلاح الدين، بسور المدينة المحاصرة وبلغت المساحة التي جرى فيها «النقب» من «باب الوشاقاط» إلى حد باب القديس ستفانوس»، حسب الأسماء الصليبية، وفي المكان المعروف «بوادي جهنم»، حسب تسميات المؤرخين المسلمين الذين شهدوا هذه الأحداث. وعندما أصبح المسلمون على وشك الاقتحام هذه الأسوار والانتشار بالمدينة، والاكتساح لحدائقها وخصيبتها ومتاريسها، عم الفزع سكانها اللاتينيين. وشهدت شوارعها رجال «الاكليروس» يطوفون بها، ومن خلفهم الجماهير اللاتينية وقد ألقت سلاحها الذي كانت تستعمله وتحارب به، واستعاضت عنه بالتضرع والبكاء؟!

وعند ذلك عقد الصليبيون مجلس مشورتهم، وقرروا طلب الأمان من صلاح الدين في نظير التسليم..

عبر «بالين» أسوار المدينة، بعد أن أذن له أحد العرب بذلك، ودخل خيمة صلاح الدين، وطلب الأمان لجيشه ولسكان المدينة اللاتينيين. وتذكر صلاح الدين عرضه الأول عليهم، ورفضهم له، فرفض أن يعطيهم الأمان.

وقال «بالين»: كما أخذتم هذه المدينة بالسيف، فلا بد لي من أن أستردها بالسيف، وسوف أبيد الرجال وأستولي على الأموال.

وعاد «بالين» إلى قومه، عبر السور، بجواب صلاح الدين. ولكنهم

طلبوا منه العودة ثانية، والإلحاح في طلب الأمان. فعاد من جديد «ومارس كل ما أمكنه» في هذا الصدد. وأمام إصرار صلاح الدين على أخذ المدينة بالسيف، اضطر القائد الصليبي أن يكشف مخططهم الذي تلقوا عليه.

قال للسلطان: «إننا إذا نشبنا من النجاة من سيوف جندك فإننا سنهدم المعبد، والقصر الملوكي، وننقض حجارتها حتى الأساسات»!!

وسنحرق الأمتعة والنفائس والكنوز والأموال الموجودة في خزائن المدينة؟!

- وسنهدم جامع عمر والصخرة المقدسة، اللذين هما موضوع دبابتك؟!.

- وسنقتل ما لدينا من أسرى المسلمين المحبوسين في سجون المدينة منذ سنوات، وعددهم خمسة آلاف سيرة؟

- وسنذبح نساءنا وأولادنا بأيدينا حتى لا يقعوا في أسر المسلمين؟

- وبعد أن تصير المدينة المقدسة «كتمان من الرديم ومدفن واسع» سنخرج للقتال، فنقاتل قتال اليائس من الحياة، الذي لا أمل لديه في النجاة، ونحن نمثل ألف مقاتل، لن يفنى أحد منا حتى يقتل واحد من جنودك. فامنحنا الأمان لتسلمك المدينة دون أن يمسها أحد من الطرفين بسوء!!

وأثبتت الوقائع والأحداث أصالة «الموقف الحضاري» لصلاح الدين، وعمق «النزعات الإنسانية» لديه.

لقد رأى أن كثرة الدماء التي تسيل من الصليبيين تحرك مرة من الأحقاد في أوروبا، فتمد في عمر هذا الصراع الدامي الذي شنه الغرب على الشرق مستخدماً الصليب والمسيحية زوراً وبهتاناً لستر السلب والنهب والاستعمار والاستيطان.

شهدت خيمته مؤتمراً للمشورة ضم الأمراء والعلماء والقواد، واتفقوا في النهاية على تسلم المدينة صلحاً، على أن يرحل منها كل اللاتين، غير العرب،

الذين سيبقون بعد تحرير [illegible] [illegible] يكون حسابهم في خلال [illegible] [illegible]، وأن يكون لهم جميعاً [illegible] [illegible] [illegible] حتى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] المسيحيين العرب «الذين هم من بلاد سورية» فإنهم يستمرون ساكنين في أورشليم مثلهم في ذلك مثل غيرهم من المواطنين من غير أن يفرق بينهم اختلاف الدين.

القدس تعود والصليبيون يرحلون

ظهر الجمعة ٢ [illegible] سنة ١١٨٧ م [illegible] [illegible] في ذكرى الإسراء والمعراج من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] دخل العرب المسلمون [illegible] [illegible] في [illegible] فرحة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وصفه أقلام المؤرخين والأدباء الذين شهدوا هذا الحدث الكبير. وفي الوقت الذي شغل فيه اللاتين الصليبيون بجمع المال والمتاع استعدادا للرحيل [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] دخل المسلمون [illegible] المسجد الأقصى ليعيدوا إلى المقدسات قدسيتها

خارج المدينة المقدسة، جلس صلاح الدين في خيمته، على عرشه، في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] جماعة كبيرة من العلماء والفقهاء الذين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ويفتح القدس الشريف.

وفي [illegible] يوم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] صلاح الدين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ووصفه أحد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

كتب «العماد» على ضوء «الفتح» الذي أوفده إلى «اليمن» تحدث «سيف الإسلام» عن تحرير المسجد الأقصى الذي «طال سجنه، واستحكم وهنه، وقوي سكره، وضعف ركنه وزاد حزنه، وزال حسنه».. وكيف أعاد الفتح له كل ما كان يزينه قبل احتلال الصليبيين.

يوم الاثنين ٥ أكتوبر أغلقت جميع أبواب المدينة، إلا باب «داود»، وسرع موكب المستوطنين اللاتين الصليبيين في الجلاء عن المدينة، وأقيم لصلاح الدين عرش عند هذا الباب كي تمر من بين يديه جموع الخارجين. وتقدم موكب البطريرك اللاتيني «إيراكليوس» ومن خلفه جاء «الأكليروس» حاملين تحف الكنائس ونفائسها وخزائنها، وعندما حدث بعض صلاح الدين عن هذه التحف طالباً منه الاستيلاء عليها، رفض ووصف هذا العمل بأنه «غدر» بالأمان الذي أعطى للمهزومين. ومن خلف موكب «البطريرك» سار موكب الملكة «سيبيلا» محاطة بالسيلاء والسيلات. وانتهزت الملكة فرصة رؤية صلاح الدين فطلبت إليه أن يفرج عن دونهن الأسرى في المعارك السابقة، فاستجاب لمطلبهن؟!

• وعندما شاهد السلطان أن بعض الشباب قد حمل على عاتقه بعض الشيوخ والعجزة، وأن ذلك قد منعهم من حمل ما هم من متاع، أمر بتيسير عملية الرحيل، عن طريق تنظيمها، وسمح للرهبان اللاتين بالبقاء في المدينة للإشراف على ذلك بالاشتراك مع الدولة الصليبية «بانيان».

المغزى من كل الحكاية

١ - وعلى الرغم من أن عصر صلاح الدين الأيوبي لم يكن بالعصر الذي علا فيه صوت الفكر القومي والمشاعر القومية إلى الحد الذي تفوق فيه تأثير المشاعر الدينية والروابط الروحية الخاصة بالملة والاعتقاد، إلا أن النصر في السياسة التي اتبعها هذا القائد إزاء أجناس السكان الذين التقى بهم في المدن الصليبية التي فتحها، وفي القدس بوجه خاص، ينصر في هذه السياسة

موقف قوم ناصح نابع من وعي سياسي يستحق التقدير والاعجاب، فهو لم يتعامل مع سكان القدس المهزومين كمسلم يتعامل مع مسيحيين، بل كعربي بحث عن نقاط الاتفاق واللقاء مع مسيحيين العرب كي يقفوا معه ضد الغزاة اللاتين المستوطنين، بالرغم من أنهم مسيحيون. فالوحدة قد حدثت ما بين العرب بغيرتهم المحمدية ومن بين العرب المقدسيين الذين حملوا سر استعمارهم لاسبطاق حلف أعلام مسيحية وصليبية

١ ـ لكن موقف صلاح الدين هذا موقف متعالٍ، بل هو مجرد محاولة سياسية لتقريب وحدة سكان المدينة بعد فتحها، ولم تكن المسألة سياسية ذكية بوقع كانت تحبه المدينة قبل الفتح ويشعر به ويعيشه هؤلاء السكان بل إن المجادلة في مؤرخين يقين كتبوا عن هذه الحرب من وجهة نظر الصليبيين من يعرفون بهم. مقاومة القدس أمام صلاح الدين إلى إنحياز المسيحيين الشرقيين الذين هم في عين المدينة إلى صلاح الدين

٢ ـ الموقف السياسي الآخر الذي تحدثه صلاح الدين إزاء النقائص التي كانت هذه النقائص في ضعف وعدم، فقد حاول الاستفادة من هذه النقائص، واستفاد منها بالفعل إلى حد كبير. وكشف عن ذلك بعلاقات التي قامت مع حنا دراء بصيص في طرابلس، عندما تحالف مع بني حسنة على عدو الإمارة في ولاية قرسنة صلاح الدين، وفرح له عن فرسانه الأسرى لدى المسلمين، وقامت بينهما علاقات أدت إلى التفاهم في صفوف الفرنسيين اللاتين، حتى عد في من أكثر صاحب كتب (كامل) في تاريخ إن ذلك كان من عصمة الأسباب توجه صلاح الدين واستعداده لتقديس مهمة.

٣ ـ لم تكن وراء صليبية خفي في صلاح الدين رجل سيف وقلم فقط، فقد حاول التغلب على هذه الحدة بفرسانه الأقوياء وحلفائه بصيصة العسكرية، وتصرفات في فرسانه على شعوبهم، وفي عرف عصره في يكثر باسم «غنم صلاح الدين»، وقد كانت تحظى فيه أيضاً «السلوك لإنسان» بمعناه الخلقي، الذي قد يتصور حصانة وعصمة في وجه

[illegible] والأمراء الأقطاعيون في نفوس [illegible] من الناس عندما علموا بما [illegible] في الشرق لسفك دماء العرب والمسلمين.

ويخرج [illegible] الذي شاهد أحداث هذه الحرب وعاش وقائعها يحكي ما كان يكن صلاح الدين رقة وشفقة لأم صبيية وقع طفلها بيد الصليبية المسلمين، عندما يحكي ما كان المسلمون المفاوضون المحنكون في حيرة يعجزون، فيسرقون منهم الرجال ويخرجون، وكان من قصتهم معهم أنهم وجدوا بنية طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر، فسألوه عن أبيه أو أمه أو عن أسمه ونسبه، وعرضوه عليه، وكان كل ما يأخذونه يعرضونه عليه، فيجمع عليهم، ويعطيهم ما أخذوه

وما فتئت أم [illegible] تتبع مسيرته بالويل والثبور في طول تلك البلاد، حتى وصل خبرها إلى صلاح الدين، فأمر بها [illegible] صلاح الدين، وقد كان ذلك في خروج [illegible]، فخرجي، وأصيبه معه، فوجه برده عليك، فخرجت تستغيث إلى «اليزك» (طلائع الجيش) الإسلامي، فأخبرهم بوقعها [illegible] كان يترحم عنه، فأطلقوها، وأعادوها إلى [illegible]، فأتته وهو [illegible] على [illegible] خروبة»، وأم في خدمته، وفي خدمة جند عظيم، فمكثت بكاء شديد، ومرغت وجهها في التراب تسأل عن قصتها، فأخبروه، فرق لها، ودمعت عيناه، وأمر بإحضار الرضيع، فحضر فوجدوه قد مات في الطريق، فأمر بدفع ثمنه إلى مشتري، وأخذه منه، ولم يزل واقفا حتى أحضر الطفل، وسلمه إليها، فأخذته، وبكت بكاء شديدا، وضمته إلى صدرها؟!

٤ - وعبر بوعيه بسيطة، وبوعيه بقيادة، كان من سنحة حضارة [illegible] الإسلامية في معركة تحرير الأرض المقدسة من سعير الغاصبين الصليبيين يومئذ «الوعيه الحضاري المقاتل»، التي تهتم بها صلاح الدين وقد كانت عقيدة هذا الجندي وبنيته المقدسة معركة في مقدمة مثيرات ومؤثرات في حفيته تدخل معركته هذه بإصرار وشهامة، وعزم نفس شريفة تذكر وتحب العار بأعز ما يملك، وهي الحياة.

ومن سماح التي يحكى عنها أنها [illegible] «عسى نعوم عسى» بدين أذن وحده بقتل محمد، وهو نفس الذي كان يؤديه بهو على قيد الحياة[١٩]. ففي أثناء حصار عكا وبحرب بدين ضد الصليبيين على مدينة «عروب» كان جندي «عسى» هذا يرتبط من وسطة بسلسل معقد بالسمع، وكلما سمع [illegible] ثم عرف بأن بحرب يعزم حسن ويعقبس حسن، وهرق في أعقاب الأحيان من بين سفن العدو بالحاضرة بشاطئ، حتى بدأ بيلا إلى مدينة، فسلم ما عنده إلى قادة المقاومة فيها، وعندما تعين وسائر ولاموه، خرج إليهم برجل من مدينة إلى معسكر صلاح الدين ما [illegible] وصوب «عسى نعوم» وذات مرة ذهب عيسى، وبكل خوف [illegible] بين إلى معسكر صلاح الدين، ودخل بين جنوده يوقع فكاهة بها، وذات يوم عصر جلس من على بشاطئ حتى غروب الشمس تدفعه الأمواج وتسحبه إلى البحر، فيشتهونه، فإذا هي جثة «عسى نعوم»، فوجدوا على وسطه ثلاث أكياس من ألف دينار دهبية «عقة بمحاهدين»، وكان بمعسكر بهم بعيدين صلاح الدين[٢٠]. وعندئذ صار جزء من [illegible] إلى معسكر صلاح الدين، لأن عسى قد أدى واجبه نحو الذي كان يؤديه وهو على قيد الحياة»[٢١].

لقد كان ضعف [illegible] مع حركة سريعة وإرادة حديدية تستمر صلاح الدين في هذا المشروع، لأنه وفق بين الدين الجديد من مختلف بلاد أوروبة شريعة محررة وقانون بحرر، فلم يستطع أن يقيموا بوضوح منك على بناء الشرائع والقيم والشرف، ومن بين أثرهم هذه [illegible] فهو يعتبرون الحق إلى نفسه ويحولون عن الإنسان متحضر تلك وصفة التي يصف بها الصليبيون هذه الصفحة من صفحات التاريخ..

وعندما نصر صلاح الدين، كان قد تشرب تعليم الإسلام التي دان به وحرب من أجلها، حتى في نفوس الصليبيين كانت من بين الأسباب التي جعلتهم يحبون نصر ويطيبون نفسه في ترك شرق وحصونه وثغوره، وهو الأمر الذي كان من بين العوامل الأساسية في بعث أوروبة وتجديد شبابها في عصر النهضة والإحياء..

معركة دمياط

[٦١٥ هـ ١٢١٨م]

المقريزي

كانت قد مضت ثلاثون سنة منذ حرر صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس من الصليبيين (سنة ١١٨٧م)، وأجلاهم عن معظم المدن والقلاع التي أقاموها في فلسطين والشام. فأنجزت من مدن أوروبا ومواليها عدة حملات صليبية جديدة، جاءت معظمها من «روما» ممر [illegible]، يقودها عدد كبير من الملوك والأمراء والفرسان، فوصلت إلى «عكا» في سنة ١٢١٧م، وذلك بهدف استعادة المناطق التي حررها صلاح الدين، والاستيلاء على بيت المقدس من جديد، فنقضوا بذلك الصلح الذي وقعوه في سنة ١١٩٢م.

وكان الملك «العادل» قد تقدم به السن، فقسم الدولة إلى وحدات إدارية ثلاث: مصر ويحكمها ابنه الكامل، ودمشق ويحكمها ابنه «المعظم» عيسى، والعراق ويحكمها ابنه «الأشرف» موسى. وأخذ هو في التنقل ما بين مصر والشام.

وعندما زحفت جيوش الغزو الصليبي من «عكا» على مدن الشام وقرى فلسطين، خرج الملك العادل من مصر على رأس جيش قاصد قتالهم. ولما وصل إلى «اللد» في فلسطين، خرجت إليه جحافل الصليبيين من «عكا». وجاءت الأخبار إلى الملك العادل تصف قوة الأعداء، فيقف بتفوقهم في العدد والعتاد. فأثر الانسحاب من «اللد»، ورحل إلى «نابلس»، ثم نزل في

«[illegible] وعنده تحدث [illegible] عظيم عيسى، على سبب رحيله، وصح [illegible] في كثرت عصبه، [illegible] هو سبب في ضعف جنده [illegible] وتسلطن، فهو الذي أقنع رعاع الشام وجرهم إلى حد مروقه من [illegible] فضعف [illegible] قويت أمر بلاد أصبهان وعنصرها [illegible] وغلمي، وقال له - كي يزيل «مقررين» عن قلبه - فضعف [illegible] تسلط، وتركت من ينفعني من أبناء الناس الذين يرجعون إلى الأصول. ! وذكر كلاماً في هذا المعنى».

وبسبب هذا الضعف الذي كانت عليه الجهة الداخلية، والذي نتج بإطلاع البلاد وجزرها تنحدر الزنزقة من سالك، دون أصحابه الأصليين ستطاعت الحوش الصغيرة أن تسلب وتنهب، وتحرق وتدمر، وتسفك من دماء المواطنين الشيء الكثير في خمسة عشر يوماً فقط «فقتلت في رمضان سنة ٦١٤ هـ، هاجموا «بيسان» و«نوى» و«اللجون»، و«صيدا»، و«الشقيف» «فملأت أيديهم من الأسرى والسبي والغنائم، وأتلفوا بالقتل والحرق ما يعجز عن حصره» «ذلك على الرغم من أن العرب قد استعمل أعنفه تحركت نفسه سنوات غزو الأرض والبلاد نفسها، كما حدث في «دير» و«قصر حجاج» و«عشوره»

وتجمع من الناس يؤيد أن سالك بعدان سنة ثلاثة وثلاثين [illegible] به تسلل الرحيل عنها إلى القاهرة، فأخذ الناس يستعدون للخروج من ديارهم وهجرة من البلاد. وتحمل «مقررين» سالك خوفاً على أن تسلك بعدان وبين شيخ عجوز من المرحلين، «ذلك الضعف الذي أصاب الروح المعنوية»، «أي في طريقه خلا تحمل شيئاً، وهو يمشي مرة ويتعب أخرى، فقال له يا شيخ لا تعجل رفق بنفسك» فأجابه الشيخ بحدة منكراً عليه قوله هذا، كيف هو يستعد للرحيل، على عجل، من البلاد «فقال له يا سيدي! ألم لا تعجل، ولم أر بيتك قد سرت إلى البلاد، وكنت مع الأعداء، كيف لا نعجل؟

وهكذا كان سالك بعدان هذا الضعف الذي جذبه به شيخ عجوز،

وفر... لقاء في «المرج الصغير» ... لم يكتب لهم إلى مختلف نجاح. فملكه ص... مدة ... يعود على قتال الأعداء ... فجاءه هدية ... من الذين شاركوه صاحب حمص، وجهز له «معظم» عيسى كي يدفع عن «المنصور» حتى يخرج له جيوش الصليبية ومن دخول بيت المقدس. وقد ... معركة عند قلعة بصورة دامت سبعة عشر يوماً، قتل فيها بعض ملوك الصليبيين، فاضطر ... لانصراف عنها وعودته إلى قاعدتهم «عكا» من جديد ... بعض ... الصمود والمقاومة في جبهة العرب والمسلمين.

وعند ذلك أدرك الصليبيون ... طريقتهم إلى بيت المقدس سيكون عن طريق القاهرة وأن خضوع هذه البلاد لن يتم لهم، ولن يستقر لهم بلد فيها بالقضاء على قلب المعركة ممثلة في الدولة الأيوبية في مصر ... وعند ذلك «جمع رأي الفرنج على الرحيل من عكا إلى مصر، والاجتهاد في تملكها» فوصلت أساطيلهم إلى أكبر ثغورها دمياط على البلاد إلى فمه «دمياط» في يوم الثلاثاء ٨ نوفمبر سنة ١٢١٨م (٤ ربيع الأول سنة ٦١٥ هـ).

وأخذت الإمدادات تصل إليهم من كل مكان، وأخذ يتدفق الفرنج عليهم في كل يوم، إذ تقدر عظم هذه الصفحة بتاريخ الذي يرجونه من وراء غزو مصر واحتلالها، كان عظم الجند وضخامة الأسطول، وكما يقول «المقريزي» إنه قد «خرجت أمم الفرنج من داخل البحر، ... عدد الفرنج على دمياط، فوفى دمياط منهم صنوف لا يحصى لهم عدد، فلم يكن جمعهم بدمياط خرجوا منها، في جدهم وحشيدهم، وقد رأى لهم سوء عاقبتهم أن يملكوا أرض مصر، ويستولوا منها على مملكة لسيطة كلها».[٢]

البرج: قفل الديار المصرية

وفي يوم تالي لوصول الأساطيل الصليبية إلى فم دمياط خرج الملك الكامل بقلب عسكره، الذي لم يدخر إلى لقائه ملاقاة الصليبيين هناك، خرج لهم من القاهرة، وتقدم إلى «فوة العريد» فطلب منه تعبئة الأهالي للقتال، وأن يجمع «سائر العربان» سلاحهم كي يلتحقوا بجيشه عند دمياط،

كي تقدمت سفن الأسطول المصري فأقامت تحت أسوار دمياط

وكانت دمياط مدينة حصينة بناها الفاطميون على شاطئ النيل الشرقي بعودة من فيها على ملاقاة الصليبيين وعندما شن الصليبيون الحملة الخامسة على مصر في سنة ١٢١٧م على عهد الملك العادل كان مجرى نهر النيل تحت سيطرة مصرية، فمنعت حاميتها وسفن الصليبيين الذين نزلوا على شاطئه الغربي، قبالتها في البر الذي يعرف اليوم بمنطقة دمياط، وظل المسلمون يحتفظون بهذا الموقع الحربي الهام على الشاطئ الشرقي، فسيطر طريق الإمداد البري الذي يربط الصليبيين بقاعدتهم في عكا وبلاد الشام ومن هذا كانت سيطرة المسلمين على هذا الموقع الحيوي أهمية كبرى لدى كل من المصريين والصليبيين على السواء.

وكان يتحكم في مدخل النيل هذا البرج العظيم، المسمى «برج السلسلة» الذي كان قائماً في وسط النيل، ودمياط تحدثه من جهة الشرق وحتى تحميه (أي تحمي البرج) تحدثه من ناحية الغرب، وبه سلسلتان من الحديد تمتد إحداهما على طول شاطئ دمياط، والثانية إلى الغرب، فتحولا دون مرور السفن المعادية التي تحاول دخول البلاد ومن هنا كانوا يطلقون على هذا البرج اسم «مفتاح الديار المصرية»، وتقوم فيه حامية من المقاتلين الأشداء.

ودارت معركة بين الصليبيين وبين هذا البرج، وصمد المسلمون المصريون واستمر القتال أربعة أشهر كاملة من أجل الاستيلاء على هذا الهدف الحصين[١] واستخدم الفرنجة في سبيل ذلك نوعاً كبيراً من السفن يسمى «المزمات»، وكانت مساحة «المزمة» تزيد على خمسمائة ذراع، وهي مصنوعة من الخشب حتى لا تشتعل فيها النيران التي يستخدمها المسلمون لإحراق الأبراج المتحركة.. وبذلوا قصارى جهودهم حتى يستطيعوا الاستيلاء على البرج، وفك سلاسله بعد أربعة أشهر من القتال. وعند ذلك دخلت سفنهم بحر المحلة الكبرى لتتمكن من محاصرة دمياط من الجهة الأخرى، وعندئذ لاستكمال غزو البلاد

وعندما بلغ الملك العادل، وهو بمرج عكر، أن الأعداء قد استولوا على برج السلسلة في آخر جمادي الأولى، حزن حزنا شديدا، وتأوه، ودق سنه على أصبعه سبع دقات، ونزل من مكانه، وظل بعد ذلك مريضا في يوم الجمعة من جمادى الثانية سنة ٦١٥ هـ..

وتقدم الصليبيون في مجرى النيل، يريدون القاهرة، ولكن الملك الكامل أسرع بإقامة جسر عظيم عوضا عن البرج يحول بينهم وبين استخدام النهر في تموين جيشهم، ودارت على هذا الجسر معارك عنيفة، استبسل المسلمون واستضعفوا أن يقطعوه، فأسرع المصريون إلى إغراق عدد من المراكب في مجرى النيل حالت بين الأعداء وبين التقدم إلى عاصمة البلاد

وعندما عجز الصليبيون عن اقتحام جسور، كتشفوا أن هناك جدولا صغيرا يعرف بالخليج الغربي، كان النيل يجري فيه قديما، فحفروا فيه حتى عاد ماء النيل إلى مجراه الأبيض المتوسط واستقروا هناك عند فارسكور، وبينهم وبين جيش الملك الكامل مدينة دمياط، وشرعوا يحاصرونها من جهة البر، وانقطعت الإمدادات عن مصر إلى دمياط، واستمر النيل يحاصر بينها وبين الصليبيين.. وكان الخطر على مدينة المنصورة هو الهدف الأول الذي تحدث عنه «العادلية» مركزا حديثه وتوجيهاته إلى المسلمين، وتستطرد المصريون أن يحشدوا في دمياط قرابة العشرين ألفا من المسلمين

ثغرة في الجبهة الداخلية

ولم يستطع الصليبيون، رغم تفوقهم في العدد والعتاد، ورغم الإمدادات التي كانت تأتيهم عن أوروبا باستمرار، أن يستطيعوا عبور النيل شرقي، إذا ما حصر على دمياط، لأنه كان يعلم أنه إذا استطاع ذلك سيستطيع المسلمون أن يحاصروا الجيش الصليبي في الجهة الشرقية من النيل، وحينئذ يكون الصليبيون قد أتوا على أنفسهم بأيديهم، وأصبح الجيش كله بين نارين الأعداء، فاجتمع جيشه منهم بقيادة الأمير علي بن داود بن العادل

المنصور، وفروا جميع ممتلكاتهم، وخلال هذه الفترة بعث الملك الصالح أحد ممثليه إلى الملك الكامل، وفحوى رسالته استعداد الملك الصالح للتنازل عن دمياط وعقد الصلح مع الصليبيين، وعند ذلك تفرق المجتمعون حول هذه المسألة، ولكنه هو الآخر قد خرج مستاءً من هذا التنازل، وتصرف الملك الكامل هذا يختلف عن معاملته الصليبيين..؟!

حتى إذا كان الملك الكامل على حيطة من أمر الصليبيين، قرر معسكره، وتحرك إلى منطقة «أشموم طناح» شرقي المنصورة وجنوب دكرنس قبل هذا الوقت بقليل، وفي الصباح بحث الملك في المعسكر عن أصدقائهم الذين خرجوا، وتفرط عقد الجند بعد أن فقدوا قائدهم، وعمت فيهم الفوضى، وفي هذا يقول «المقريزي»: «أصبح العسكر وقد فقدوا السلطان، فتحرك كل أحد هواه، وقد تفرح واحد منهم على حدة، وتركوا أثقالهم وجمالهم وأموالهم وسلاحهم، ولم يأخذ كل أحد إلا ما خف حمله، فتدر الفريق عند ذلك، وعاد إلى دمياط، وهم منهزمون، من غير مدافع ولا مدافع، وخلوا كل ما كان في معسكر المسلمين، وكان شيئًا لا يقدر قدره»؟!.

وكان ذلك في يوم السبت ٢٧ من شعبان سنة ١٢١٩م (الثلاثاء ٦ من رمضان سنة ٦١٥ هـ) أي بعد ما عجزوا عن تحقيقه بالقتال طوال ثلاثة أشهر قد حصلوا عليه بمساعداتهم هذه بالخديعة، في خطوات؟ وذلك فضلا عن الغنائم التي غنموها دون أي مجهود. وعند ذلك فرضوا حصارهم من البر والبحر حول دمياط.

دمياط تقاوم

وبالرغم من فشل المؤامرة التي كانت تدبر ضد الملك الكامل، إلا أنه لم يستطع أن يزحزح الصليبيين من موقعهم الحديد. ولقد حصر دمياط ذلك أن الأعداء قد قويت صفوفهم بمحدات جديدة جاءتهم من «عكا» و«البر» و«الجيوش» و«بسفنه» و«بكرة» و«قبرس»، يقودهم ملوك «كاردينال بلاجيوس»، فاستضعفوا بحكم محاصرتهم للمدينة وقطع كل سبل

والإمدادات وحفروا حولها خندقاً وبنوا عليه سوراً لمنعهم به من سور المدينة وشيدوا بقلتين بين الفريقين، وخيمت فرقة معترك للدوشات والمناوشات وصرخت جميع المدينة وأهلها أمثاله رائعة في الصبر والثبات والبطولة والعداء وكي يقوى معنويات جنود الله «أبرز عليهم بصبر، فشرع مع هذا في أقوات عندهم وشدة غلاء لأسعار» ولم يكن معسكر المصريين يستطيع أن يمد الحصار بسبب لمحاصرة إلا في حالات نادرة، وبشكل لا يضمن لها الاستمرار في حالة كأن يأتوا بحمل مسموح، فيملأون جيوبهم بالطعام ويطبقون جثته في مياه النيل، كي يتفطن أهل دمياط!! ولم يذهب ذلك بقدماء المسيح «شنوده» من عند ملك بكمن، عن سعي الأعداء، فيدخل إلى مدينة، ويأتي لبعض أخبار أهلها، فقد دخل بهم قوى قلوب أهلها، ووعدهم بقرب وصول لمحدث» ومن لقد استخدم في دمياط «سهم سفاب» فريقة تحمل رسائل لاستغاثة وصلت بمجيء من ملك بكمل وبواسطته بعث لأمر حتى يأتي بكمل، من خلف سور المدينة، بل لملك قصيدة ردت بيتها على لعشرين بصور حتى مدينة، وتطلب اهجوم على الأعداء وفك الحصار؟!.

وكان لحصور مدي كانت عنده وسائل بمعركة، ولطفاء التي سارت به عجيبات حصور بمحدث من شام والشرق قد ضرب حصار الأعداء لمدينة، ورد من بحكامه، حتى بشرت فيها لأمراض، وارتفعت فيها الأسعار بعد أن عزت لأقوات، فبلغ سعر البيضة الواحدة عشرة دنانير «وامتلأت بطرقات من لأموات وعدمت لأقوات وصار لسكر في عزه اليقوت؟! وفقدت بمحوم، فلم يقدر عليها بوجه، وأيست بنفس حتى إن لم يبق عندهم غير شيء يسير من القمح والشعير فقط» وعندما بلغت حتى هذا حد، وأيقن أهل مدينة من هلاك، وعجز ملك بكمل عن نصرهم، ثروا تسليم مدينة لعدو، على أن يخرجوا منها بأموالهم وأهلهم، ودارت بينهم مفاوضات اتفق فيها على ذلك، ثم فتحوا أبواب لمدينة فدخلها الصليبيون، ورفعوا أعلامهم فوق أسوارها عند أنهم يقصدون لانطلاق

«وغدروا بأهل دمياط، ووضعوا فيهم السيف قتلا وأسرا، وباتوا تلك الليلة بالجامع يتجرون بالنساء ويقتضون البنات، وأخذوا المنبر والمصاحف ورؤوس القتلى وبعثوا بها إلى «بلادهم» وجعلوا الجامع كنيسة» وأرسلوا الأسرى، عن طريق البحر إلى عكا [illegible] في أكتوبر سنة ٢١٩ م (الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ) [illegible] بعد سبعة شهرا من نزول قوات الغزو إلى مياه دمياط

وأخذ الصليبيون يستعدون للزحف على معسكر المسلمين، الذي كان [illegible] «المنصورة» [illegible] أحد مصر والقاهرة [illegible] الاستيلاء على البلاد. «وصار بينهم وبين العسكر «المصريين» بحر أشمرم وبحر دمياط. وكان الفرنج في مائتي ألف رجل، وعشرة آلاف فارس» مدججين بالسلاح

مصر تحشد طاقاتها

[illegible] في [illegible] الكامل، [illegible] لا [illegible] في [illegible] إذ أن عوامل الطبيعة هي الأخرى قد ساهمت في [illegible] من أثقال الكارثة، فهاج البحر في فصل الشتاء، [illegible] معسكر المسلمين «[illegible]» [illegible] الفرنج في [illegible] «البلاد» [illegible] ذلك «تزلزل الملك الكامل، وهم بمفارقة أرض مصر». ولكنه عادت إليه [illegible] في مصر [illegible] «وقويت شوكة المصريين عندما عثموا قطعة بحرية [illegible] «[illegible] هي [illegible] لا [illegible] [illegible] خمسمائة [illegible] خمسة وعشرون رجلا» وأخذت طلائع [illegible] تصل من الشام. وأهم من ذلك كله أخذت مصر تحشد طاقاتها. وتنفذ قانون التعبئة العامة لدفع الغزو الصليبي عن البلاد [illegible] من الشمال إلى الجنوب إجراءات التعبئة العامة والحشد الكلي قائمة على قدم وساق

فأرسل الملك الكامل سبعين رسولا من قبله إلى مختلف الأنحاء والآفاق في العالم العربي والإسلامي «يستنجد أهل الإسلام على قتال الفرنج، ويستحثهم على إنقاذ المسلمين منهم، وإغاثتهم، وتخوفهم من تغلب الفرنج على مصر، فإنه متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها». [illegible] هذه البعثات وصول النجدات من «حلب» و«حماة».

وأخذ السلطان في تحصين المعسكر الذي أقامه في مكان مدينة المنصورة، ويقيم فيه «الدور والسادق والحمامات والأسواق» وذلك استعدادا لاستقبال الحشود التي أخذت تتوافد على ميدان المعركة وجبهة القتال من داخل بلاد مصر ومن المشرق: في الشام والعراق.

وذهب إلى القاهرة الأمير علاء الدين خلدك والأمير جمال الدين صيرم، والأمير حسام الدين يونس، والشيخ الفقيه تقي الدين طاهر المحلي. فجمعوا «الناس من القاهرة ومصر، ونودي بالنفير العام، وألا يبقى أحد. وذكروا أن ملك الفرنج قد أقطع ديار مصر لأصحابه، وأنه لا بد من خروج جميع الناس للقتال.

واشتركت في الحشد والتعبئة «سائر النواحي، ما بين أسوان إلى القاهرة [illegible] إلى آخر الحرف الشرقي، فاجتمع من المسلمين عالم لا يقع عليه حصر»، في جبهة القتال.

واحتشدت مائة قطعة من قطع الأسطول المصري في مياه النيل تجاه موقع المنصورة. واجتهد المصريون في حيلولة بين الأعداء وبين المؤن والإمدادات التي تتوالى عليهم، فأنزل الملك الكامل ناحية «شارمساح» شمالي شربين - ألفي فارس، ومعهم عدة آلاف من أبناء القبائل العربية المصرية وسارت السفن إلى رأس «بحر المحلة»، تحت قيادة الأمير بدر الدين بن حسون.

وفرض الوزير «الصاحب صفي الدين بن شكر» ضريبة خاصة للمعركة على أهل مصر والقاهرة، وخاصة «البحر والكتب» «وفر [illegible] من

الأملاك، وهو مال حبي من الناس، وحصل مالاً جماً، للاستعانة به على التسليح والقتال.

الجبهة الشرقية في المعركة

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه الاستعدادات للمعركة الفاصلة مع العدو، وتنجز فيه مصر عمليات التعبئة، قرر الملك الكامل مع إخوته «المعظم» حاكم دمشق، و«الأشرف» حاكم العراق، أهمية أن تدخل الجبهة الشرقية بكل إمكانياتها في المعركة ضد الصليبيين وذلك عن طريق مهاجمة قواتهم الموجودة على ساحل الشام، وعن طريق تجهيز النجدات والامدادات للمعركة الفاصلة في دمياط. وبالفعل سارت الأمور في هذه المسائل نحو تقدم ملموس. ولقد لخص الملك الكامل هذه الخطة في حديثه إلى أخيه «المعظم» الذي قال فيه: إن «المصلحة أن تنزل إلى بلاد الشام تشغل خواطر الفرنج، وتستجلب العساكر من بلاد الشرق». وهكذا شهدت بلاد الشام عدة معارك، في محاولة لتخفيف تركيز الصليبيين على دمياط.

ففي ١٢ ربيع الثاني سنة ٦١٥ هـ دخل الملك الأشرف موسى، أخو الملك الكامل، معركة انتصر فيها على ملك الروم «كيكاوس».

وفي شهر جمادي الثاني سنة ٦١٥ هـ - أي الشهر الثاني لسقوط برج السلسلة في دمياط - التقى الملك المعظم، صاحب دمشق، بالصليبيين في ساحل الشام، وقاتلهم قتالاً شديداً، انتصر فيه عليهم «وقتل منهم مقتلة، وأسر من فرسان «الداوية» مائة فارس، وأسرهم وأدخلهم مدينة القدس منكسي الأعلام».

كما نزل بمدينة «قيسارية» وفتحها عنوة، وحررها من الصليبيين، ثم سار إلى حصن «النفر» الصليبي، حيث فتحه وهدمه. وسير الجند والمقاتلين إلى مختلف مدن الساحل لشغل الصليبيين.

وحتى تستطيع جند المشرق أن تذهب إلى مصر لمساعدة أهلها، كان لا بد من قيام الأهالي بالدفاع عن مدنه وحصونه ضد الأعداء المتمركزين

[illegible] وهكذا خرجت العساكر من القاهرة إلى دمشق بضرورة أن يخرج لدمشقه (أهل دمشق) لدفعوا عن أملاكهم، الأصاغر منهم والأكابر. وذلك حتى يفرغ الجند لطلمي فيرحل إلى دمياط

وسرعان ما شرع الملك «المعظم» صاحب دمشق، مع حكم «دمشق» في إقناع الملك «الأشرف» صاحب العراق، بضرورة الاشتراك في محاربة دمياط على الرغم من سوء العلاقات بينه وبين أخيه الكامل وقد ورد «مسلموا في صائفة، وإذ أحاط الفرنج بديار مصر بمكوا إلى حضرموت وعفو آثار مكه والمدينة والشام» وهكذا حدث تحدث مشرق نشأ في جبهة الفرنج عند دمياط.

فجاء من «حماة» الملك المظفر محمود في عسكر كثيف.

وسحب الملك المعظم فرسانه وجنوده [illegible] وقلعته، وبعث بهم إلى دمياط.

وأرسل الملك الأشرف موسى بجنوده بقيادة الأمير سيف الدين بن كيف [illegible] وجاء صاحب «حمص»، وكذلك الناصر صلاح الدين يوسف [illegible] وصاحب «بعلبك» الأمجد بهرام شاه... الخ

وذلك بالإضافة إلى الجنود التي جاء بها أخوه كل من الملك المعظم والملك الأشرف صاحبي دمشق والجزيرة، وبعد ذلك حين علم الكامل بأن الناصر قد جمعت جيشه وأن [illegible] لقوية، بعد، كما كان من قبل، في مصلحة الأعداء ويعتبر [illegible] الناصر شمس الدين «صاحب [illegible]» (ت ٦٥٨هـ)، عن هذه الفترة التي حين عاد الكامل من خلال الملك المعظم التي يرويها ابن العبري بردي «عندما تقول [illegible] فلما فجر [illegible] شيخ شيوخ [illegible] حضر لفرنج دمياط، فبعد الكامل على مكان عنان، وقال له ترى؟ ما كان الشيخ؟ ما لنا بهم طاقة فقال له أعوذ بالله من هذا الكلام، قال [illegible]؟ قال لا لبعد الموكل بالمنطق، قال فأحدث الفرنج دمياط بعد قليل فلما طال حصار، فبعد يوم على مكان عنان، وقال [illegible]

[illegible] ؟ ما أقلهم ! والله ما هم شيء ! فقلت : [illegible] ، [illegible] ؟! قلت : قلت في يوم كذا وكذا : كذا وكذا ، فأخذ [illegible]

لقد كانت هذه القصة التعبير عن الحالة النفسية [illegible] بعد أن اجتمعت له أسباب النصر ، من بعد أن ظن أنه لا قبل له بالصليبيين ، حتى نقذهم بمغادرة البلاد

القتال ، والانتصار ، والجلاء

والأمر الذي لا شك فيه إن النجدات والمساعدات التي جاءت إلى مصر من المشرق العربي ، [illegible] الملك الكامل ، قد كان لها أثر قوية في زعزعة موقف الأعداء ، وكسر [illegible] على المصريين [illegible] الجهد الحربي والقتال الذي [illegible] في هذه المعركة [illegible] الجلاء ، كان مصدره العنصر الوطني المصري ، الذي تمثل [illegible] في عشرات الألوف من الفلاحين والصناع والحرفيين وأولاد البلد والتجار وأبناء القبائل العربية المصرية ، الذين احتشدوا للقتال وجاؤوا لتحرير دمياط من كل مكان ، من أسوان حتى القاهرة ومصر ، وحتى الحرف الشرقي كما ذكر مؤرخون معاصرون

وهذه الحقيقة التي [illegible] واضحة في هذه المعركة كل الوضوح [illegible] سمعة [illegible] التي [illegible] أعداؤه ، والتي يزعمون [illegible] مصر [illegible] تعبر عن [illegible] أعدائهم في تلك العصور ، [illegible] الذين تحملوا أعباء القتال في هذا الصراع

[illegible] كيف كان [illegible] معسكرات الصليبيين ، وكيف كانوا يتخطفون [illegible] وكيف تطور الأمر حتى أصبحت

هذه الغارات تتم في وضح النهار «فكانت الغرب عليهم حتى صاروا يخطفونهم نهاراً، ويأخذون الخيم بمن فيها»

كما يحكي لنا عن الدور المتعاظم الذي قام به المتطوعون والجنود من أبناء الشعب في القتال، وكيف أن دورهم هذا قد فاق دور الجنود النظاميين المماليك. وفي أثناء حديثه هذا يقدم لنا نصاً يدل بوضوح وجلاء على أن الشعب هو الذي لعب الأدوار الحاسمة في حسم هذا الصراع لصالح الوطن، وذلك عندما يقول: «وكانت العامة تكر على الفرنج أكثر مما تكر عليهم العسكر».

بل ويقدم لنا نصاً آخر أوضح فيه كيف أدى هذا الدور المتعاظم الذي قام به الشعب في ساحة المعركة إلى تزايد وزن العامة والجماهير، وبالذات الفلاحين، في المجتمع يومئذ، وكيف كرهت ذلك الفئات والطبقات التي ساءها أن يعلو قدر أبناء الشعب على المرتزقة والغرباء والمستغلين. وكيف رأى أحد شعراء هذه الطبقات المستغلة أن الخطر الصليبي هو الذي أتاح للعامة هذا المركز الممتاز، فبلغ به الحقد إلى الحد الذي فضل فيه الغزاة وحكمهم وتحكمهم على حكم أبناء الريف من الفلاحين، وذلك عندما قال:

يهددوننا بأهل «عكا» أن يملكونا، وأهل «يافا»
ومن لنا أن يلوا علينا فالروم خير من الريافا؟

ثم يعقب المقريزي مفسراً هذا الشعر بقوله: إن الشاعر «يعني أهل الريف، فإنه كان قد كثر تسلطهم، وطمعوا في أمر السلطان، واستخفوا به»..

وعلى كل، فلقي حمى لهيب القتال بين المصريين والغزاة. ودارت معارك بحرية في نهر النيل أبلت فيها السفن (الشوالي) المصرية بلاء حسناً، وأخذت سفن الأعداء تقع في أسر المصريين. وعندما أحس الصليبيون أن موازين القوى قد بدأت تميل في صالح المصريين، راسلوهم وخاطبوهم في أمر الصلح، ولكن بشروط. وكان الملك الكامل راغباً رغبة شديدة في وضع حد

[illegible] ثلاث سنوات، وكان يعلم أن جنده المصريين قد [illegible] فسوف يتعهدون عند نضجهم مع قسميين ولكن شريطة أن يتم جلاؤهم عن البلاد.

وتعهد قسطنطين في مصر جلاء عن مصر وتسليم دمياط، ثم يترك هم ذلك الكفء كل سنة خمسون سفينة من خيرها وسرداب صلاح لدين الأيوبي، وكان ذلك يعني الاستيلاء على كل فلسطين، وقطع طريق البر بين الشرق والغرب، وفصل عن وحدة بعض العربي التي كانت قائمة في ظل حكم الأيوبيين. فوافق ذلك الكفء، على أن يستثني من ذلك حصني «الكرك» و«الشوبك» حتى تظل الوحدة قائمة بين مصر والشرق، وتظل دولته محيطة بالفرنسيين من الشرق والغرب والجنوب والشمال. ولكن قسطنطين غدر بعد ذلك بالحصون. ولأمر ما وافق ذلك الكفء ولكن لغزه عدة حصون بوابة من مكة، فمن في قرص لزيد من شروط، فلو يرض ذلك الكفء «الا أن تعطوني حصنيه أنف دينار لعلمي بها من خزائنكم من سوء نفسي» فاستغل هذا الغرور قسطنطين كرهه ذلك الكفء، فأطلق العنان لروح القبائلية التي حشدها الشعب يومئذ من جنوب دمياط. وعند ذلك عبرت جماعة من مقاتلي مصر من «بحر محلة» إلى حيث لا تصل التي يقوم عليها معسكر الأعداء، وكان وقت وقت زيادة مياه النيل، في أوائل شهر «توت»، وكان يقاد بحريي بهم «فتح» مكان عظيم في النيل وبفريح لا معرفة لهم بخرائط مصر، ولا بأمر النيل فلم يشعروا إلا وقد غرق أكثر الأرض التي هم عليها، وصار حائلا بينهم وبين دمياط، وأصبحوا وبين هم جهة يستكونهم سوى جهة واحدة ضيقة. ثم شرع المسلمون في نصب الحسر على «بحر شموم فتح»، وعرب عليهم لعسكر فقطعت هذه الطريق تضيق على القسطنطين بين صخور محاصرين من كل جهات.

وكان من بين جنود قسطنطين مخاصره قائد من الفرنسيين، وبيكاته من جنده، ومعهم عدد كبير من الجنود المشاة، وعلى رأسهم «لوجب» فبعث

«عكا» التي كانت به قيادة جنده في بيت، وجند متطوعة من فرنسا وألمان وإقطاعيين، وعلى رأسهم ملك قبرص «Philippe» الذي سمته «ريتشارد قلب الأسد» «بلوكلد» وجند مسلمون يعاونون على طردهم، وتصفيتهم منهم الأشرف. وقد شارك بحريته عدد قليل من المصريين سماهم «المرقات» و«الحراقات».

وعندما أيقن مستشارو صلاح الدين، رسولاً بعد رسول، أن الملك الكامل صاحب وقف بدمياط، وخلاء، وتسليم دمياط، دون أية شروط على أن يطلق كل طرف ما لديه من أسرى، كما فعلوا لأسرى المسيحيين الذين كانوا بين جيوش صلاح الدين..

وكان لأخيه الملك المعظم عيسى هو موضع ثقته حتى بعده بقليل. وكان الملك الكامل كان يرى وقف القتال. ولذلك تحفظ قدوم إمدادات صليبية جديدة تدعم مواقفهم حتى سور دمياط. وطلب السلام الذي كان يتوق إليه عدد غير قليل من جنده المقاتلين. وتمسك برأيه، واقتنع به معارضوه.

وفي ٧ رجب سنة ٦١٨ هـ (سبتمبر سنة ١٢٢١م) جنح مندوبو المصريين إلى السلم: الأمان، والجلاء، وتسليم الأسرى.. وضماناً لتنفيذ بعض المسيحيين عشرين ملكاً وأميراً من ملوكهم وأمرائهم، من بينهم مندوب البابا، رهائن لدى المصريين، حتى بعث ملك الكامل بينهم رسله لأمير الصليبيين بعكا، وبعض جنوده، حتى تسلمه الأشرف. وتم الجلاء عن دمياط في ١٩ رجب، بعد عقده بإثني عشر يوماً.

وسجل المؤرخون أنها كانت هدنة. وما تكن صلحاً وإن مدتها كانت ثماني سنوات. وإن بعضها كان حقاً من حقوق المسلمين لم يحصروا، بشكل مباشر، هذا الصراع، من ملوك أوروبا وأمرائها مثلاً. وهي لم تكن صلحاً، لأنه ما كان لحاكم عربي مسلم أن يعقد مع الأعداء صلحاً بينما هم لا يزالون يحتلون شبراً من أرض العروبة والإسلام. فقد كانت لا تزال

تعددت صوره ومبادئ الالتحام فيه - حتى هذه اللحظات

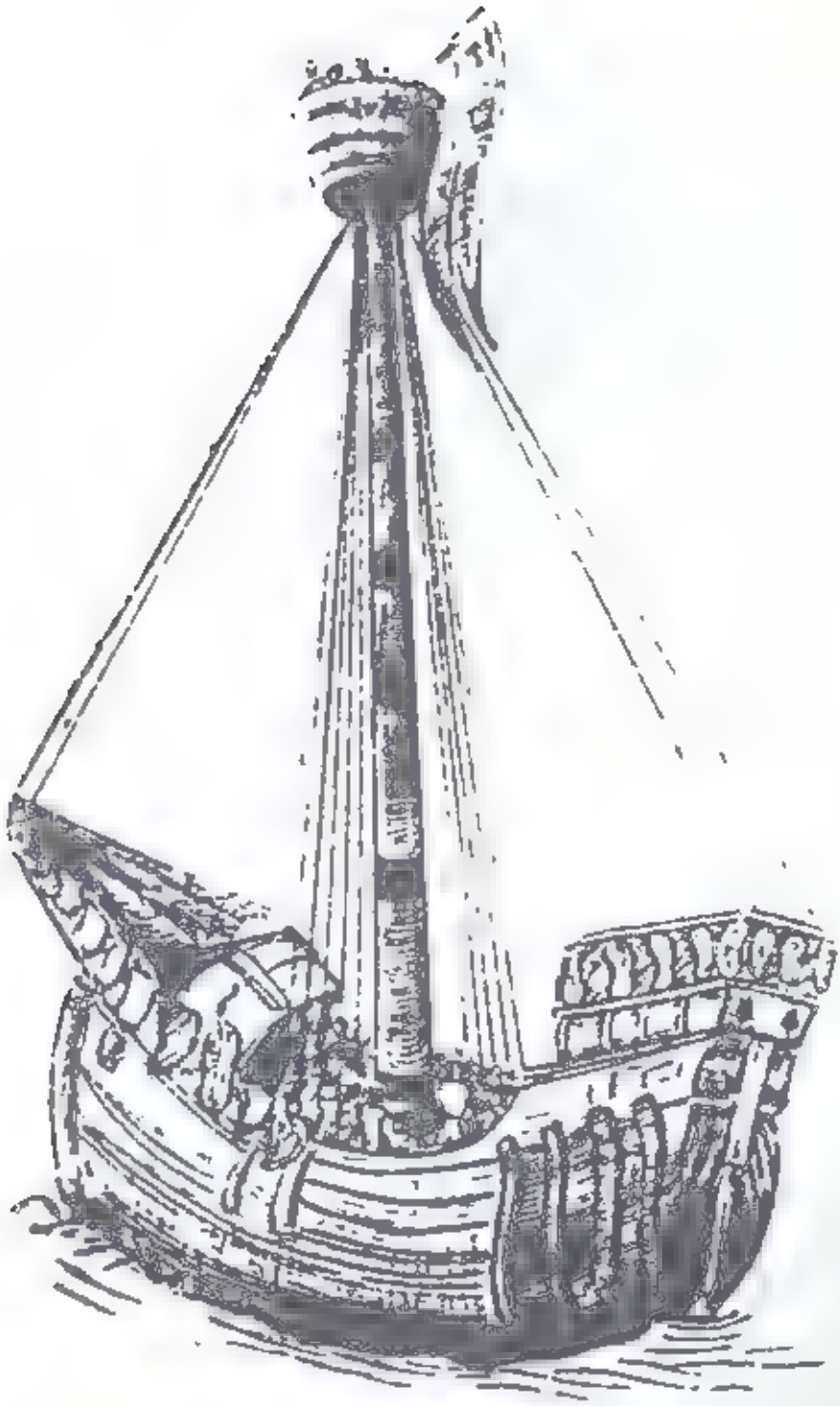

خرافة .. احدى السفن التي اشتركت في موقعة ذات الصواري القديمة .. والتي ظلت تستخدم في صد غزوات الصليبيين

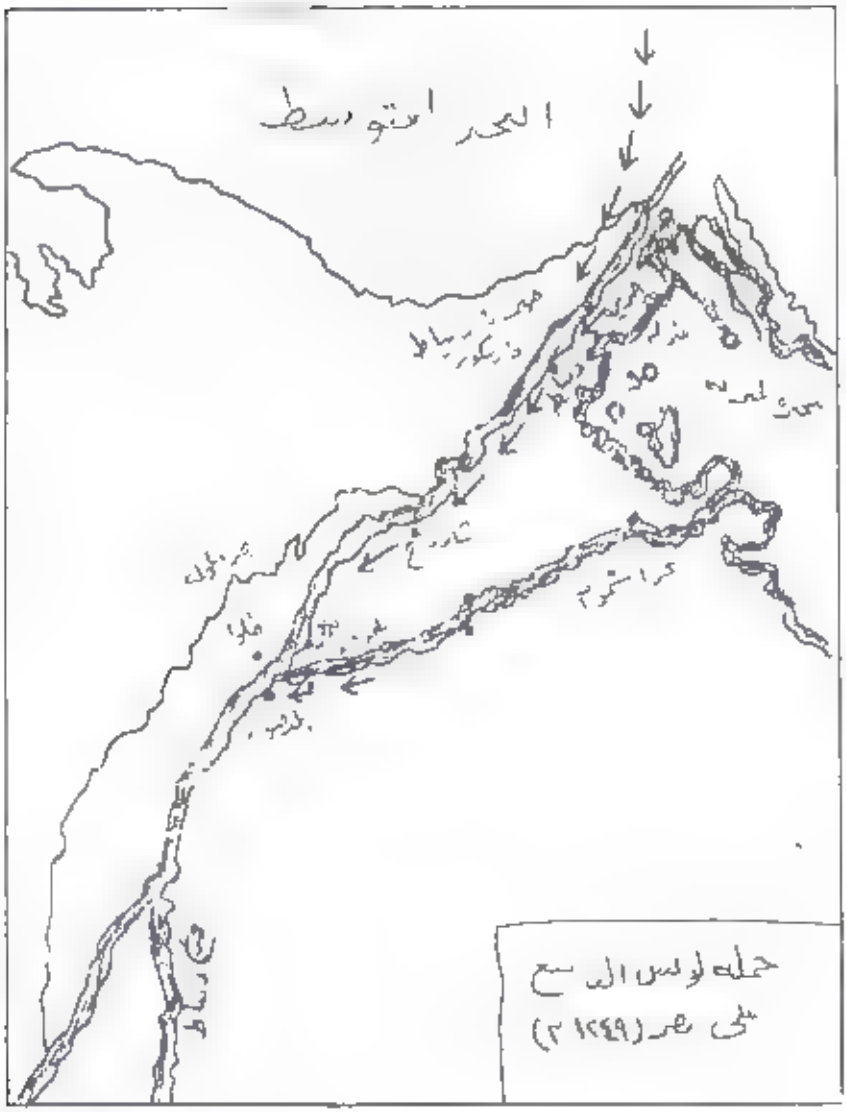
البحر المتوسط
حملة لويس التاسع
على مصر (١٢٤٩ م)

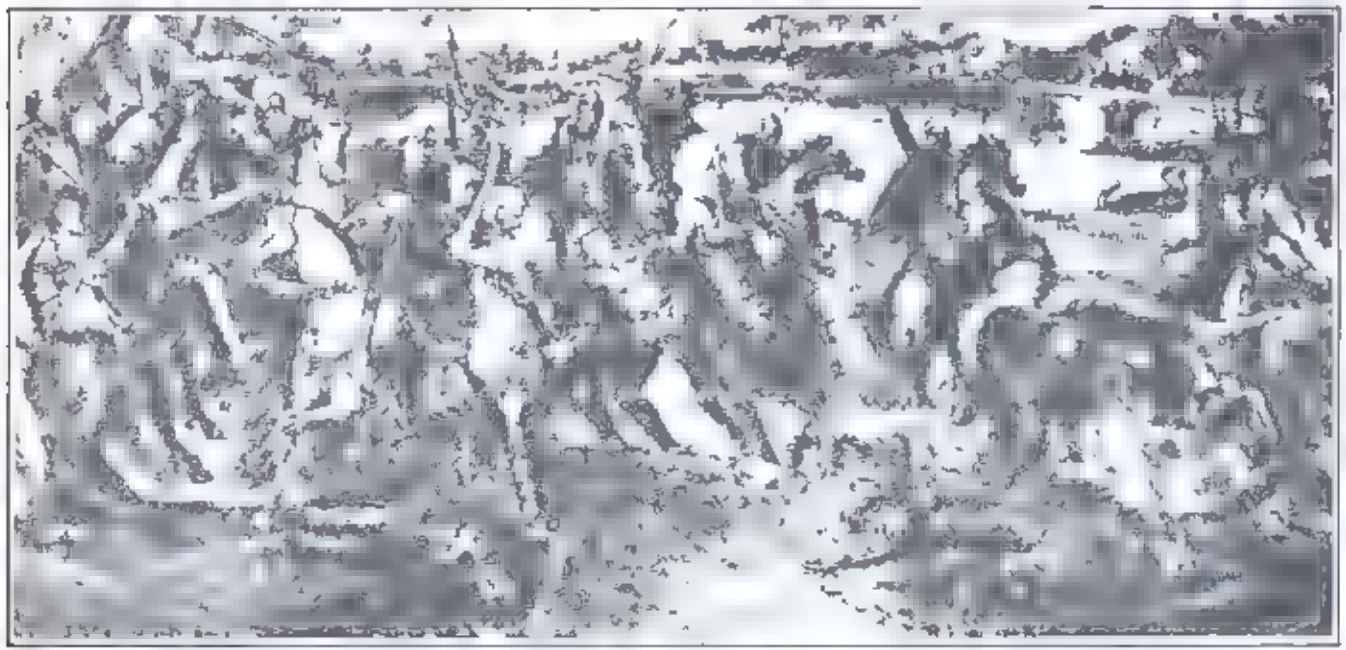

المعركة الفاصلة التي قضت على أحلام الصليبيين في المنصورة والتي انتصرت فيها المقاومة المصرية — لوحة من دار ابن لقمان هناك — كما يصورها أحد الفنانين

معركة المنصورة

[٦٤٨ هـ ١٢٥٠م]

نقض الصليبيون الهدنة التي قامت على أرض فلسطين بين الملك الأيوبي الكامل (١٢١٨ - ١٢٣٨م) والإمبراطور الألماني المستنير فردريك الثاني (١٢١٨ - ١٢٥٠م) وذلك عندما نجحت من أوروبا حملة صليبية جديدة فوصلت إلى الشام في سنة ٦٣٧ هـ (سنة ١٢٣٩م) وقام الصليبيون بإقامة قلعة عربية في القدس، وجعلوا «برج داود» أحد أبراجها، وذلك استعدادا للنشاط التوسعي الذي قرروا بدءه ضد العرب والمسلمين. ولكن القوات المصرية التقت بالجند الصليبي، واستطاعت بقيادة «الناصر داود» أن تنتزع منهم هذه القلعة الجديدة بعد حصار دام أحدا وعشرين يوما. وكما يقول «المقريزي» في (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك) إن الناصر قد «هدم برج داود، واستولى على القدس، وأخرج منه الفرنج، فساروا إلى بلادهم».

وأخذ «العسكر المصري» في تعقب جند الصليبيين، فساروا إليهم في منطقة الساحل الفلسطيني، حيث قلاعهم وحصونهم، «أوقعوا بهم هزيمة أخرى في يوم الأحد ١٤ ربيع الأول سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩م) عندما قتلوا منهم ألفا وثمانمائة جندي، وأسروا عددا من أمرائهم، وثمانين فارسا من فرسانهم ومائتين وخمسين من المقاتلين المشاة، وجيء بهؤلاء الأسرى إلى القاهرة، بينما لم يقتل من العسكر المصري» غير عشرة من الجنود

عن هذه الانتصارات التي كان «عسكر مصر» قد سرع في إحرازها، وأخذ يتعقب بها الجيش الصليبي الجديد، لم يكن هذا النصر في سهولة دون عناء، فقد استطاع الصليبيون أن ينقذوا من ثغرة خلافاتهم في جبهة العرب والمسلمين، تلك الخلافات التي ظهرت بين سلطان مصر بوصفه امتداد لصلاح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ ـ ١٢٤٩م) وبين الأمراء الأيوبيين في الشام، وبالذات عمه الصالح عماد الدين إسماعيل، صاحب دمشق، وناصر داود صاحب الكرك، وهما اللذان رفضا التعاون مع الصالح نجم الدين أيوب. وتوحيد الجهد الحربي في معركة ضد الصليبيين. فسعيهما وراء تأكيد استقلالهما الإقليمي على حساب وحدة شعب العرب الكبير

ومن هذه الثغرة في جبهة العرب أتى عدو الأمة الغربية الخبيث، فاستولى على كل حصونهم وقلاعهم من الشرق قد ضم بأسره، فاستطاعوا أن يفرضوا الإتاوة على أهل الشام عندما عرضهم حكامهم من أسرته مع المصريين، وفي سنة ٦٤٢ هـ (سنة ١٢٤٤م) ضرب على أهل الشام جزية تسمى مقرري «قصعة» سنوية، «من كل عشرة دراهم، واحد متوسط خمسة دراهم، ومن الفقير درهم». وجاء بهذا المقرر كتاب من صاحب «موصل» «نصر الدين لؤلؤ» إلى أهل دمشق «فمن أين لهم أن يعطي نحن من ركبي لدين نكتب على الناس، ونوقع الشروع في جملة من»؟

أما الصليبيون فقد استطاعوا استثمار هذه الثغرة في جدار وحدة كل الموقعات والأحلام بتقريب الخلاف مع مصر، ولعدم تلمس الصالح نجم الدين أيوب قد صاحب دمشق وصاحب الكرك إلى التحالف الصريح مع الصليبيين ضد مصر ومصريين، وعندما وضع هذا التحالف في التطبيق

فتح الصالح إسماعيل أيوب دمشق ومد نفوذه وسيطرته مع الإمارات الصغيرة، من وقع بتحويش الصليبيين السلاح من صناعه وتجاره بدمشقيين «فأكثروا من شراء الأسلحة والآلات الحربية من أهل دمشق» وصحبت أوساط الشعب في دمشق عن فيهم تجار السلاح وصناعه بالشكوى

والمعارضة، وذهبوا إلى «سلطان العلماء» يومئذ الشيخ العز بن عبد السلام يستفتونه، «فأفتى بتحريم بيع السلاح للفرنج» وقد حملة من على منبر الجامع الكبير بدمشق ضد الملك الصالح إسماعيل، مما أدى إلى عزله عن خطابته، وعتقائه، ثم هجرته من الشام إلى القاهرة سنة ٦٣٩ هـ (سنة ١٢٤١م).

وفي سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠م) بعث صاحب دمشق إلى صاحب «حمص»، وإلى أهل «حلب»، بل وإلى الصليبيين يطلب منهم النجدات والمساعدات لأنه خارج بجيشه لغزو مصر. وفي مقابل ذلك تنازل للصليبيين عن «قلعة صفد» وبلادها، و«قلعة الشقيف»، وبلادها، وأقسم معهم «صيدا» و«طبرية» وبلادهما، و«جبل عامل، وسائر بلاد الساحل»، ووصل الصليبيون بسبب هذه التنازلات إلى مدينة «نابلس»، بل لقد وعدهم الصالح إسماعيل «أنه يعطيهم جميع ما فتحه السلطان صلاح الدين الأيوبي» في نظير مساعدته ضد مصر وابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب؟!

وعندما علمت مصر بتحرك الصالح إسماعيل ومعه الصليبيون قاصدين غزوها، خرج الجيش المصري للقتال، ودارت الدائرة على صاحب دمشق وأنصاره، بل لقد سجلت هذه المعركة صفحة ناصعة لعروبة أهل الشام وتضامنهم القومي مع إخوانهم المصريين ضد الخونة والغزاة، ذلك أنه عندما التحم الجيشان انضم جند الشام إلى جند مصر، ووجهوا سيوفهم جميعا إلى الصليبيين، وكما يقول «المقريزي» «وعندما تقابل العسكران ساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة، ومالوا جميعاً على الفرنج، فهزموهم، وأسروا منهم خلقاً لا يحصون»؟! وبعد أن انتهت المعركة هرب الصالح إسماعيل وأنصاره، وعاد جند الشام مع إخوانهم المصريين إلى القاهرة، وجاؤوا معهم بالأسرى الصليبيين، فاستخدمهم الملك الصالح نجم الدين أيوب في بناء «قلعة الروضة، والمدارس الصالحية بالقاهرة»!

ولم يرتدع أو يعتبر صاحب دمشق من هزيمته هذه، فاستمر في طريق الخيانة، واستغل الصليبيون تحالفه معهم فأخذوا يعيثون فساداً في البلاد، وفي

يوم جمعة ٤ جمادى الأولى سنة ٦٤١ هـ (سنة ١٢٤٣ م) دخل غزة من ملك بن الناصر ، وهو وقتئذ وزير وأحد أمراء حصن « من حاشية الناصر » وسكنوا بالقرب في مدينة غزة حتى يوم الأحد ؟ من بهم قد استراحوا ثلاثة أيام ؟!

وكان ذلك على صاحب دمشق فكره غزو مصر ، بعون مع الصليبيين ، وبذلك تصير مجاورات بلاد صاحب مصر ، مثل بصاحب بحماة حمص ، بوجود جيوش حليفة للصليبيين ، صاحبهم ، وكان الخطر سيأتي الذي كان يتربص بالمشرق في ذلك الحين . فقد تكريت في سنة ٦٤٠ هـ سنة ١٢٤٣ م) ـ كي تكون « ملوكية » ـ « ابن سنة بين الناصح بحماة حمص ، وبين عمه الصالح إسماعيل ، صاحب دمشق ، وبين المنصور ، صاحب حمص ، على أن تكون دمشق ، عمه الصالح إسماعيل ، ومصر الصالح أيوب ، ولكل من صاحب « حمص » و« حماة » و« حلب » على ما هو عليه ، على أن تكون حصة وسكة (عملة) في جميع هذه البلاد للملك الصالح نجم الدين أيوب » وهو الأمر الذي توفق بين المصالح الخاصة والمنطلقات المعركة ضد الصليبيين . ويوفر بين استقلالية الأمارات ووحدة البلاد

رفض صاحب دمشق هذا المشروع لأنه يرى ، وطلب منه معونته في الاستعانة بالصليبيين في غزو مصر ؟! وفي سنة ذلك سلم إلى الصليبيين مدينة عسقلان وتعهدوا صيانة وتحصين « العمر لتتريح فتعميق وتحصين » وتمكن بتريح من تحصين بيت المقدس ، وتحسين موقفه بحماة ، فتفرغ لحرس على مصالحه الأخرى ؟ من بعد تبعث حيالة بصاحب دمشق ـ كي تكون من تعزي تردي في سنة ، هذه ، وحتى لا تدع وعد قد الصليبيين « بأنه إذا ملك مصر أعطاهم بعضها »؟! .

مصر تتحرك لتوحيد الجبهة

وفي الوقت الذي كان يشهد فيه جبهة تعزيزه هذا المشرق ، وبعد من تعزيزها هذه غدة ، لأنه الصليبيون ، وسعد بعيد من جنوبه مصر ،

كانت أوروبا تستعد لإرسال حملة صليبية جديدة هي الحملة السادسة بقيادة لويس التاسع، لتهجم على مصر وتهدم بقدر ما تستطيع ما بناه صلاح الدين الأيوبي.. وبذلك فإن مصر قررت أن تتحرك لتزيل من على مسرح الأحداث بالشام أولئك الأمراء الخونة الذين فرقوا صفوف أمتهم وساعدوا الأعداء في سبيل المحافظة على عروشهم وإماراتهم.

فخرج السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من القاهرة وسار إلى الشرق، وعسكر بجيشه في «بركة الحبش» حيث يستكمل استعداده. ومن هناك أرسل إلى «الخوارزمية» المقيمين بشرقي نهر العاصي، فعقد معهم اتفاقاً، واستدعاهم إلى الحضور كي يشتركوا مع الجند المصري في قتال أمراء الخونة بالشام. حدث ذلك في سنة ٦٤٠هـ، وفي العام التالي (سنة ٦٤٢هـ سنة ١٢٤٤م) تحركت جموع الخوارزمية من المشرق، فعبروا الفرات، وكان عددهم يزيد على عشرة آلاف مقاتل من الجنود الأشداء. وفي صراخهم يلقاهم الجند المصري بقيادة الصالح، فتجتاحهم وتدفعهم أمامه للصليبيين، بعد أن أفنى من بقي من الجنود الخوارزمية في المعركة التي سارت حتى وصلوا إلى «غزة». وهناك التقى بهم الجيش المصري فانضموا إليه، واستعد لقتال أمراء الشام المتحالفين مع الصليبيين.

وفي دمشق جهز الصالح إسماعيل الجند الذين سحب «حمص» «الملك المنصور» قسراً من دمشق إلى حمص ليقضي في «حكم» حيث انضمت إليه قوات الصليبيين، وسار الجميع نحو «غزة» لملاقاة الجيش المصري الذي انضمت إليه الجنود الخوارزمية هناك..

وعلى أرض المعركة التقى الجيشان، وسجل التاريخ صورة دقيقة دلالة كبرى وتعبير عميق. فصاحب دمشق وصاحب حمص وصاحب حماة وصاحب الكرك - في سبيل عروشهم وإماراتهم - وقفوا في صف الصليبيين ضد «عساكر مصر» الذين كانوا يحاربون لتوحيد الجبهة العربية كي تستعد للحملة الجديدة التي يحضر لها أمراء الإقطاع الأوروبيون في ذلك الحين.

وفي مواجهة الجيش المصري كانت ميمنة الجيش المعادي مكونة من الجنود والفرسان الصليبيين، وفي الميسرة عسكر صاحب حمص الكرك، وفي القلب الملك المنصور صاحب حماه ومعه جند صاحب دمشق الصالح إسماعيل. وكما يقول «المقريزي» إن الفرنج قد رفعوا الصلبان على عسكر دمشق، وفوق رأس منصورة صاحب حمص، والأقنة (القناوسة) نصب، وبأيديهم أواني الخمر تسقي الفرسان»؟!..

وبقد سفر هذا التحالف، تظهره بشع هذا، مشاعر جند مصريين، ورأو في هؤلاء الأمراء الخونة جيشاً في صدر العروبة والإسلام لا يقل خطراً عن الغزاة الصليبيين، رغم أسبقيتهم العربية الإسلامية التي لم يعد يستطيع ستر جرائمهم عن الأبصار. وتحتم حشدت، ودارت بينها معركة حاسمة، على أثرها جند مصر وعسكر خوارزميه بلاء شديداً، فدارت الدائرة على الأمراء الخونة، فقتل منهم من قتل، وأسر منهم من أسر، واستطاع قائدهم «منصور» صاحب حماه الفرار إلى دمشق في نفر يسير من أصحابه. وكما يقول المقريزي «إن جند مصر والخوارزمية، أخذوا بالسيف، ووضعوا فيهم السيف حتى لم يبق عليهم قتلاً وأسراً، ولم يفلت منهم إلا من شرد. فكان عدد من أسر منهم ثلاثمائة رجل، وقتل منهم ومن أهل الشام زيادة على ثلاثين ألف»[19].

«وجاءت البشارة بذلك إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب في الخامس عشر من جمادى الأولى، فأمر بزينة القاهرة ومصر وطبولهما وتعليق القنا والبنود». فقد حققت مصر أولى خطواتها الضرورية لتوحيد الجبهة القومية كي تستطيع مواجهة خطر الغرب الصليبي، وخطر الشرق الذي يمثله التتار الوثنيون..

وحدة المشرق ومصر تعود

وفتحت هذه المعركة أمام الجيش المصري الطريق كي يطرد فلول الصليبيين والأمراء الخونة المتحالفين معهم، وسارت قدما الملك الصالح نجم الدين أيوب الفرصة الذهبية لاستكمال توحيد الجبهة القومية. فسار

حمده وبوه بن حيث ستولوا على «عزة» وسوحيهم، وكذلك «نابلس» و«الخليل» و«بيت جبرين» و«لأغوار» و«بيسان» بتلعو هذه المدن وحصون من يدي الصليبيين وحلفائهم لأمراء الخوارزمية وفرضوا الحصار مدة من الزمن على الحصن الصليبي في «عسقلان»..

وفي نفس العام (سنة ٦٤٢ هـ سنة ١٢٤٤م) جهزت بقاياه جيشه قوة بقيادة «الصالح نجم الدين أيوب» بن الكامل محمد بن العادل، وبعد أن حاصر «نابلس» بعض الوقت، ذهب إلى دمشق، حيث كان لأمراء الخوارزمية قد عاصموا ثورتهم، وصل الجيش المصري المحاصر هم بقيادة حيث وبسطوا حكمه، حتى سنة عام ٦٤٢ هـ ودخل بعدهم الذي بعده حيث دارت المفاوضات التي سهلت لخروج الأمراء الخوارزمية من دمشق، وعودتها من جديد إلى أحضان الدولة العربية الكبرى وانضمامها من جديد قسطها في الاستعداد لمحاربة الصليبيين

وبعد تحرير دمشق «سلم الأمير الصالح نجم الدين أيوب» قلعة «الصبيبة» الصليبية التي تقع على قمة جبل «حرمون» وتوالت الفتوحات والانتصارات في سنة ٦٤٤ هـ (سنة ١٢٤٦م) سار الجيش المصري بقيادة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، فتح من يد الصليبيين «صفد» وهدم ما أقامه الصليبيون فيها من قلاع وحصون ثم سار بعد فتح «صفد» فتح نفس الشيء مع «عسقلان» في يوم الخميس ١٣ جمادي الآخرة سنة ٦٤٥ هـ (سنة ١٢٤٧م)، وعقب ذلك لم يصب خبر «قلعة الشقيف» من احتلال الصليبيين ولم يبق بأيديهم سوى بعض حصون وقلاع الساحل، كما أصبح لأمراء الخوارزمية ـ بعد هزيمتهم ـ شبه معزولين في بعض المدن القريبة من حصون الصليبيين

وكانت آخر معركة معركتهم الأولى في سبيل توحيد الجبهة الداخلية وهي معركة التي استغرقت تسع سنوات من الحرب والصراع بدأتها في سنة ٦٣٧ هـ واستكملت حتى أعلن ثمارها في سنة ٦٤٥ هـ..

مصر بوابة فلسطين

وعندما رأت الأوساط الصليبية في أوروبا أن مصر قد استطاعت توحيد جبهة القومية العربية، وأن الشرق قد تلاحم مع مصر تحت قيادة سلطان واحد هو الصالح نجم الدين أيوب، فكرت هذه الأوساط في ضرب مصر أولاً، وتوجيه حملة صليبية لم يسبق أن وجه لعرب مثلها عدداً وعدة، تحتل مصر، وحططوا في ذات الوقت تفتح معركة وجهها ثانية بالشرق العربي، تشغل هذا الشرق عن نجدة مصر ومساعدتها، في نفس الوقت الذي تكون فيه مصر مشغولة بالحملة الصليبية الغربية، فلا تستطيع نجدة الشرق، فيسقط الوطن العربي بأكمله في يد العراة

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف قرر البابا «ايوسنت الرابع» أن يستعين على تحقيق هذه الأهداف بقوى وثنية، لا تؤمن بأي دين، هي قبائل المغول، ضد العرب المسلمين الذين يدينون بدين سماوي مثل المسيحيين؟ ففي سنة ١٢٤٥ م (٦٤٣ هـ) أرسل البابا أحد رجاله - «جون دي بلان كاربيني» - إلى بلاط «خان» المغول كي يمهد لهذا الهدف بتحالف بين المسيحيين والوثنيين ضد المسلمين! وفي ذات الوقت أخذ في حشد قوى الإقطاع الأوربي ومرتزقته وفرسانه وجنوده حتى ملك فرنسا هو لويس التاسع الذي عهد إليه بقيادة الحملة الصليبية السادسة، ولي ستكون وجهتها مصر، باعتبارها قاعدة المقاومة العربية وقيادتها، وباعتبارها المفتاح والبوابة الأساسية من أيدي العرب والمسلمين.

ومما هو جدير بالذكر أن تقييم دور مصر هذا، ونظرة الصليبيين لها على هذا النحو، ليس حديث مبالغة ولا هو من آثار الكتابات الحديثة عن دور مصر العربي في عصرنا الحديث. فالمؤرخ «ابن واصل» وهو المعاصر لتلك الأحداث، يعطي هذا التقييم في عبارة واضحة وحاسمة بكتابه (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) عندما يقول عن لويس التاسع وحملته «أنه كان من أعظم ملوك الفرنجة، وأشدهم بأساً وكان متديناً بدين النصرانية

مرتبط به فحدثته نفسه أن يستعيد لبيت المقدس إلى الفرنج، وعلم أن ذلك لا يتم له إلا بملك الديار المصرية..»

وأخذ لويس التاسع يجيش جيشه على سطور مكون من مائتي سفينة وفي طريقه إلى مصر قام بحملة قبرص، كي يكمل استعداده، وبقضي شتاء (١٢٤٨ ـ ١٢٤٩م)، وهناك تجدد المسعى لفتح الجبهة الشرقية بوساطة السفير الذي هو يتجه رأس مصر بجيشه ليصبي خبر قدومه بقبرص سفره من «دمياط» بشار «جعفري»، حيث هناك مدخرات، ثم عادت وتصحبتها وفد من رجالات الحملة لبصبة لاستكمال المدخرات في بلاط «دمياط» الثاني وكان الصليبيون يستخدمون يومئذ في هذا البلاط كل وسائل، دون تمييز، لكسب هذه القوة بدعوتها إلى بلاد المغرب والمشرق كانوا يستخدمون نفوذ إخوان رؤساء «دمياط» «الدوقية حتوت» وكانت مسجنة بمصر؟ وكانوا يستخدمون نفوذ أحد قادة العسكريين المسلمين «الكبير» وكان هو لآخر مسجن بمصر؟ وكانوا يستخدمون حاشية من الأطباء والمكيين بمصر، كذلك ودعم بعض الذين كانوا مذهب سلطاني وبين مذهب البابا روما زعيم الكاثوليك..

وعلى حين لأخرى كان الإمبراطور الألماني مستمر «فريدريك الثاني» وهو الذي خرج على سلطة البابا، وعرض بحرمان الكنيسة بسبب دعوته إلى السلام ومعارضته بحروب الصليبية، وأثاره بفكر حضاره الغربية وقيم وثقافتها، كان هذا الإمبراطور بعث إلى البلاط الصالح نجم الدين أيوب بأنه لاستعداد لحربه القائمة في أوربا على قدم وساق دعي الحملة لويس التاسع على مصر

وفي الوقت الذي كان جيش الصليبي يستكمل استعداده في قبرص، كان البلاط الصالح نجم الدين أيوب بدمشق، وكان قد دخله مرض الذي لازمه حتى وفاته، فعزم على التحرك إلى مصر، ورغم مرضه، الذي جعله يسلمه على «المحفة» فيه قد دخل إلى مكان الذي سيدور عنده معركة حاسمة

مع الصليبيين، ذهب إلى «أشموم طناح» بالدقهلية، على مقربة من دمياط في شهر المحرم سنة ٦٤٧ هـ (إبريل سنة ١٢٤٩ م)، فدمياط كانت يومئذ هي المدخل الذي يأتي منه الغزاة الصليبيون لامتلاك البلاد. وكانوا بذلك يسمونها في ذلك العصر «عقيلة الإسلام وثغر الديار المصرية».

ومن على سرير المرض بمركز القيادة في «أشموم طناح» شرع الملك الصالح في إعداد مصر للحرب، لتعبئة طاقاتها، قبل أن يصل إلى أرضها جيش الأعداء. فبعث إلى نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين بن أبي علي يطلب إليه إرسال السفن الحربية (الشواني)، شيئاً فشيئاً، وكانت هذه «الشواني من صناعة مصر» كما يقول «المقريزي». ذلك أن السلطان كان قد أنشأ من قبل «قلعة الروضة» وجعلها بمثابة قاعدة بحرية يعيش فيها المماليك المسلحون، وعلى مقربة منهم السفن الحربية المجهزة. وكما يقول «ابن إياس» في كتابه (بدائع الزهور) إن السلطان قد «جعل حول تلك القلعة شواني حربية مشحونة بالسلاح معدة لقتال الفرنج إذا طرقوا البلاد، فتكون هذه المماليك على أهبة، فينزلون في الحال في الشواني ويتوجهون إلى قتال الفرنج. وكان عددهم ألف مملوك قاطنين بالقلعة لا يخالطون الناس بالمدينة»؟!

وأرسلت التعزيزات إلى حامية دمياط، «فشحنت دمياط بالذخائر، وأحكمت الشواني» - على حد تعبير صاحب (النجوم الزاهرة) - واختار السلطان من بين أمرائه الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، ذلك أبلى بلاء حسناً في معركة الشام لتوحيد الجبهة القومية، وطلب إليه أن ينزل بجيشه تجاه دمياط، على الضفة الغربية من النيل «لتصير في مقابلة الفرنج إذا قدموا».

وكان الملك لويس قد عرج، وهو في طريقه إلى مصر، وبعد أن غادر قبرص، على حصون الصليبيين وأمرائهم على الساحل الفلسطيني، فانضم إليه من فرسانهم ومقاتليهم عدد كبير. وساروا جميعاً حتى وصلوا إلى مياه دمياط في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة ٤ يونيو سنة ١٢٤٩م (٢١ صفر سنة ٦٤٧ هـ) في أسطول عدته مائتا سفينة و٩,٥٠٠ فارس و١٣٠,٠٠٠

حسبي، هذا عند المغيث وسوقة وبحده حسب بحصده سيف نوبس دته ـ؟!

إنذار.. يقابله تحدي

وورد «المعريري» خصص سيدنا بن سيف نوبس سابع وبين سيف الصالح نجم الدين أيوب، فسيد بعث نوبس برسالة إلى سلطان مصري وجاء فيه «أما بعد، فإنه لم يخف عنك أن بين لأمة المسلمة وبين أقوى بيك أمين لأمة محمدية وبينه غير خوف عنك ب هي حرائر لأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق سبي ونسلب منهم الرجال ونرمل النساء، ونستأسر البنات والبنين، ونحن منهم على خطر وقد أصبت لك ما فيه لكفاية، وبعثت بك بقطع من جيوشه قوية خشنة في كل الأبدان، ودخلت على نفوس ونرهبت، وخلت قلوبهم شمع صاعة للصلبان، ما ردني ذلك عن الوصول إليك، وقاتلك في أعز بقاع عندك وقد عرفتك وحذرتك من عسكر قد حصرت في طاعتي، ملأ سهل وجبل، وعددهم كعدد حصى، وهم مرسلون بيك بأسياف القضاء»!

وعندما قرئ هذا الإنذار على سيف الصالح نجم الدين أيوب في سرير مرضه، استدعى كاتب إنشائه عاصي الدين بهاء الدين زهير بن محمد»، فكتب إلى ملك نوبس «أما بعد، فإنه وصل كتابك وبت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن نريك سيوف الهند وهي أبيات غيابك بأيدي مغاوير رجال سيوف، وعظم حروبك، وفتحنا منكم حصون وجوهن، وفي جرائدنا منكم ذخير لأوخر ولأوئل، لكن بك أن تعلم على أنفسك بالندم، ولا بد أن ترل بك بالندم، في يوم أنه لا ينجيه عندك، فهنالك تبيع بك حصون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون إلى ساعي به مصرع، وبعث يصرعك، وولى اللقاء يقلبك. والسلام»!

وفي يوم ٥ يونيو سنة ١٢٤٩م نزلت قوات لويس التاسع، وعسكرت على مقربة من معسكر مصري الذي كان يقود جيوشه الأمير فخر الدين

ونصبت للملك لويس خيمة حمراء قام فيها. ولم يحدث في هذا اليوم سوى مناوشات هينة بين الجيشين، استشهد فيها اثنان من أمراء الجيش المصري - كان أحدهما صنيعاً قد حضر من الشام - هما الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام، والأمير صارم الدين ابن الوزيري. ثم حل الظلام فيصل بين المقاتلين.

انسحاب غير مفهوم.. ثم تعبئة

ولأمر ما.. لم يستطع فهمه ولا تفسيره مؤرخو ذلك العصر، كما لم يستطع فهمه ولا استساغه الملك الصالح نجم الدين أيوب، لأمر ما انسحب الأمير فخر الدين بعساكره من أمام الجيش الصليبي في مساء اليوم الأول لنزول الغزاة إلى البر، وبعد هذه المناوشات التي لا قيمة لها في عصر الحرب والمحاربين.. فانتهز فرصة الليل، وعبر بجنوده المماليك إلى البر الشرقي من النيل حيث مدينة دمياط، لا ينتظم إلى حامية المدينة وشعبها، بل ليواصل المسيرة إلى حيث يقيم السلطان في «أشموم طناح»؟ وأكثر من ذلك، فقد تخلف المنسحبون من بعض ذخائرهم «فأحرقوا الزردخاناه»؟!. ولما رأت ذلك حامية دمياط صنعت مثل صنيعهم، فانسحبت هي أيضاً إلى «أشموم طناح». ووجد أهل دمياط أنفسهم ولا أحد يحميهم من الجيش الصليبي الجرار، بعد أن انسحب المماليك فخرجوا مهاجرين ليلاً من مدينتهم، وكما يقول «المقريزي»: «وهم حفاة عراة فقراء، حيارى بمن معهم من الأطفال والنساء، وفروا إلى شموم، ورحلوا إلى القاهرة، فنهبهم الناس في الطريق..»؟!

ويعبر المؤرخون عن سدود هذا الانسحاب وغرابته، فيقول «المقريزي»: إن دمياط «كانت في أيام الملك الكامل، لما نازلها الفرنج (سنة ٢١٨ م) أقل ذخائر وعدداً منها في هذه النوبة، ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة، عندما فني أهلها بالوباء والجوع» من شدة الحصار؟!.. ويسمى هذا الانسحاب «فعلة»؟ ويقول: لقد «عدت هذه الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به»؟!

أم الملك الصالح نجم الدين أيوب، فيه سبب غضب من هذه الانسحاب المجري، وسيدعي لأمر فجر يوم وضعه تحت تصرفهم تقفون ساعة بين يدي الفرنج.. وما مات منكم إلا هذا الصبي: الشيخ نجم الدين؟ ».. وهم لسنوات أن يقتل كبار الأمراء المسؤولين عن هذا الانسحاب، ولكنهم اجتمعوا وتدبروا على قتله هو فقرر الرحيل بجيش حسبه معهم بين ما بعد خلاص من تحرير دمشق، وحسب تعبير «المقريزي»، فقد «كان الوقت لا يسع إلا لصبر وتعاضي»؟ ولكن اضطره إلى «الصبر والتعاضي» مع كبار المسببين والأمراء، تمنعه من يقتل الجراء بردع بحملة لدمشق، كي تكون مثلا حتى حد من تكرر مثل هذه الأمور - وكما يقول «ابن واصل» «إن الملك الصالح أحضر ثائب دمشق وشتمه، وشتم معه نجم الدين أميرا بسبب خروجهم من دمشق بغير إذن من السلطان» وذلك «بعد أن استفتى الفقهاء، فأفتوا بقتلهم».

ولقد كان الانسحاب من دمشق، وتركها خالية مفتوحة لأيوب، لم يفوق أحلام العراة الصليبيين، فعندما أصبحوا يوم الأحد ٦ أيلول، فلم يجدوا جيش الأمير فخر الدين، تقدموا حذرين نحو دمشق، فوجدوا أبوابها مفتوحة، فأخذوا يتحسسون الأمر ويستطلعون الأخبار، ولم يمر بخلدهم أن المدينة خالية حقا، وأخذوا أن تكون مكيدة، فتمهلوا، حتى ضمن أن الجيش قد فر وتركوها»؟! وعند ذلك دخلوا المدينة واحتلوها، لا بنصر حربوه، ولا لقتال تحملوا أعباءه، وفي - حسب تعبير «المقريزي» - «صفوا عفوا» بغير كلفة ولا مؤنة حصار»؟!..

وبيت الأمر قد وقف عند هذا الحد.. بعد أن خرجت الحملة في حلقات وراءها كل ما كان السلطان قد شحن به المدينة من مؤن وذخائر وآلات حرب وقتال. ولقد كان السلطان يسيح دمشق بوشك وفي ذهنه حصار الصليبيين لها منذ ثلاثين عاماً، فأراد هذه المرة أن لا يتصرفوا بسببه هذه المرة كما تصرفوا من قبل بعد ما يزيد على عام من حصار. وبث المسجون وراءهم كل ذلك، فسوف الصليبيون «على ما فيها من الآلات

حربية، و لأسلحة المصنعة، و لعدد الكثيرة، و لأقوات و لأزواد، و لدخائر، و لأموال و لأمتعة» وذلك علاوة على المدينة نفسها، وهي «حصن جليل منيع لا يقدر على أخذه بقوة» كما يعترف بذلك دميانة «وشحنوها بالمقاتلة» وكما يقول صاحب (بغية مراهره)، فقد كانت «هذه مصيبة لم يجر مثلها؟!»

وكان طبيعيا أن يقع هذا كله على الناس وقوع الصاعقة، وأن يسري الرعب في نفوس الكثيرين. فقوة الحملة الصليبية لم يسبق لها مثيل من قبل، و السلطان مريض لا يبرح سرير مرضه. وهذا هو ما قد حدث في دميانة ويصف «المقريزي» كيف «بلغ ذلك أهل القاهرة ومصر، فارتاع الناس ارتياعا عظيما، وتشوا من بقاء كلمة الإسلام بديار مصر»؟!

ولكن هذا الارتياع الشديد سرعان ما تحول إلى بداية حركة مقاومة شعبية كبرى، ألفت مصر إليها وفيها بكل ما لديها من طاقات

فقد قرر السلطان من مركز قيادته في «المنصورة»، فحملوه على سريره مرضه في سفينة، وحركوه (أي سحبت به في النيل حتى يزل بقصره هناك في يوم الثلاثاء ٨ يونيو سنة ١٢٤٩ م.

و بمجرد وصوله «المنصورة» (تشوش) أحدث عملاً هو أجل وأكمل من جميع ما قد تقدم ذكره إلى دخول البلاد

و بمجرد السلطان نجد العنصر الوطني، وعامة الشعب وجماهيره، بعد ذلك الذي حدث من جنوده المماليك في دمياط. وكما يقول «ابن إياس»: إن السلطان «أمر بإشهار (إعلان) النداء في مصر والقاهرة بأن النفير عام (للمقاومة وخروج للقتال) ولا يتأخر صغير ولا كبير. فخرج الناس قاصة، وسار الأمراء وأمر بجمع العربان من سائر النواحي، فاجتمع من العالم ما لا يحصى». ويكمل «المقريزي» صورة المقاومة الشعبية فيصف «... وجاءت العراة والرحالة من عوام الناس الذين يريدون الجهاد، من كل النواحي، ووصلت عربان كثيرة جداً، وأخذوا في الغارة على

الفرنج ومدوشتهم» ويذكر صاحب (النجوم الزاهرة) أن عدد المطوعين يومئذ قد استعصى على الحصر، ذلك أنه قد «وقع النفير العام في المسلمين، فاجتمع بالمنصورة أمم لا يحصون من مطوّعة وعربان» ومع عامة الشعب خرج العلماء والفقهاء والمتصوفة للجهاد، فكان في أرض معركة العز بن عبد السلام، وبهاء الدين بن الحميري، والشريف عماد الدين، وقاضي عماد الدين القاسم بن إبراهيم بن هبة الله، وقاضي مصر بن بنت الأعز، وسراج الدين الأرموي.. الخ.. الخ..

وتحولت «المنصورة» ومن حولها إلى جبهة قتال شعبية تألفت فيها مصر بكل ما تملك من إمكانيات ومن ينظر لهذا المجتمع المحارب يُعجب بتضحيات المصريين، بل أحدث في معنوياتهم ولاءهم على حماية بلدهم ومن حولهم وعلى امتداد شهور الحملة (ربيع الأول رجب سنة ٦٤٧ هـ) كانت عزائم المصريين على الأعداء لا تقطع وكانت حسائر العدو في ازدياد، وكان المحاربون يتنافسون في استئصال شأفة العدو وأسرهم، وكانت عندما تستخدم هؤلاء الأسرى في رفع الروح المعنوية وحث المزيد من المطوعين إلى ساحة القتال..

● ففي يوم الاثنين آخر ربيع الأول وصل إلى القاهرة ٣٦ أسيراً من أسرى الإفرنج، بينهم اثنان من الفرسان.

● وارتفع هذا الرقم في يوم ٥ ربيع الثاني إلى ٣٧.

● وبعد يومين كان عددهم ٤٢

● ثم في يوم ١٦ منه بلغ عددهم ٤٥ من بينهم ثلاثة من الفرسان

● وفي ١٨ جمادي الأول بلغوا ٥٠ أسيرا

● وفي ٣ رجب بلغ ٥٨ أسيراً من بينهم أحد عشر فارساً صليبياً

● وفي منتصف رجب استطاع المصريون أن يأسروا إحدى ملكات الفرنج

كما عدها من مقتنياته وما فيها من العدد بالقرب من «المنصورة» (بالرسم)

وكما يقول «المقريزي» فقد استمرت - الأسرى من الفرنج تصل في كل

يوم إلى القاهرة» فترتفع معنويات الشعب، ويدفع إلى المعركة بزاد جديد ووقود لا ينفد من أبنائه المقاتلين.

على جبهة المشرق العربي

وبالرغم من الخطر «التتري» الذي كان يتهدد المشرق العربي، والاستعدادات التي كانت قائمة في بلاط «المغول» للزحف على العراق والشام، والمفاوضات التي كان يقوم بها الأمراء الصليبيون لهذا الغرض هناك، فبالرغم من كل ذلك فإن مدن المشرق وشعبه آلت إلا أن تسهم في المعركة، وتحاول تخفيف الضغط الصليبي عن مصر، وخاصة بعد استيلاء لويس التاسع ـ دون قتال ـ على دمياط

فلقد قررت دمشق يومئذ أن يكون ردها على دخول الصليبيين دمياط هو فتح جبهة ثانية ضدهم في الشام، وكما يقول «المقريزي» أنه «لما بلغ أهل دمشق أخذ الفرنج لمدينة دمياط، ساروا منها (أي من دمشق) وأخذوا صيدا من الفرنج، بعد حصار وقتال. فورد الخبر بذلك لخمس بقين من ربيع الآخر (إغسطس سنة ١٢٤٩م) فسر الناس بذلك»

أما حصن «الكرك»، ذو الموقع الاستراتيجي في جنوب فلسطين، فقد كان حكمه ويحكم البلاد التابعة له «الناصر داود» وكان من الأمراء المعادين للسلطان الصالح نجم الدين أيوب. وفكر ولد «الناصر داود» ـ الظاهر شادي» و«الأمجد حسن»، في الإسهام الذي تمكنهما تقديمه في هذه المعركة، فقرر خلعه وإبعاده عن إمارة الحصن، وإعادة هذه الإمارة إلى حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب، وذهبا لتقديمهما فانضما إلى السلطان في «المنصورة»، وتسلم نائب السلطان حصن «الكرك» في ١٨ ربيع الآخر سنة ٦٤٧ هـ، فسر «السلطان سروراً عظيماً، وأمر فزينت القاهرة ومصر، وضربت البشائر في القلعتين لذلك الانتصار الذي حسد خلق الإيثار والوطنية وتقديم مصلحة المعركة ضد العدو ومتطلباتها على كل ما عداه..»

السلطان يموت.. والصليبيون يتقدمون

وفي ليلة الاثنين ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ (نوفمبر سنة ١٢٤٩م) توفي السلطان [illegible] (عاما). وقيل إنه قد ترك لزوجته «شجر الدر» عشرة آلاف ورقة موقعة بتوقيعه: (أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب)، كي تستخدم في المكاتبات حتى لا تعلن موته فيبت ذلك في عضد جيد، وترفع من معنويات [illegible] كما أوصى قبل موته بأن يكون السلطان من بعده [illegible] توران شاه، وأمر باستدعائه من حصن «كيفا» بالمشرق العربي.

ولقد قامت زوجة السلطان بإخفاء نبأ موته إلا عن اثنين فقط من كبار رجال الدولة هما: الأمير فخر الدين، وجمال الدين محسن [illegible] في قصر السلطان [illegible] «والمهتمر السلطاني على حاله [illegible] في كل يوم يمد.. والأمراء بحضر الخدمة..» وحتى طبق الطعام المفضل لدى السلطان - المزاور - «يدخل في كل يوم ويخرج على [illegible] في كل يوم رائحة من المنصورة إلى القاهرة في الأسبوع».

أما جثة السلطان فلقد غسلها أحد الأطباء الذين يدخلون بحجة العلاج، [illegible] حتى [illegible] الروضة، حيث دفن بها دفناً مؤقتاً، دون أن يشعر بذلك أحد من الناس.

ولقد سارت عملية السلطة إلى «توران شاه» بنفس السرية والإحكام. فخرج من مصر سر الفارس «قطاي» وهو قائد [illegible] إلى حصن السلطان الجديد. وبعد ثلاثة أيام من موت السلطان جمع نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين بن أبي علي، جمع [illegible] فبايعوا «توران شاه» بالسلطنة بعد أبيه، وصدرت الأوامر إلى خطباء المساجد بالدعاء له في الخطبة بعد أبيه، وكذلك بنقش اسمه على النقود بعد اسم أبيه. واتخذت هذه العملية شكل [illegible] من السلطان أن يكون [illegible] خصوصا وهو مريض.

وكل هذه الأعمال قد أثارت عدداً من علامات الاستفهام حول موت السلطان فالبعض يقدس نوته، ولم يجرؤ أحد على تفسير ذلك غير أن شجرة الدر «فهمت أن السلطان قد مات» فقررت كتمان الأمر حتى وصول جيوش مصر المنصورة، فحرصت على تدريبهم وتشجيعهم، ووصلوا إلى «فارسكور» في ٢٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ (نوفمبر سنة ١٢٤٩ م) وفي يوم الثلاثاء (٢٦ شعبان) قرئ على جميع أفراد الجيش بالقاهرة كتاب يقضي بهذا الخبر، الذي بعث به من معسكر «المنصورة» يحض على الجهاد ويدعو إلى مزيد من اليقظة يعلمه فيه بأنه لقريبة (يقرأ حذف وتلاً، وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون) فشهدت القاهرة ومصر وسائر البلاد مسرات جماهيرية إذ معسكر المنصورة يصفه «المقريزي» بقوله « ورنحت القاهرة ومصر لكثرة ارتياح الناس وحركهم للمسير، فخرج من البلاد ونواحي جهد لفرسخ عدم عظيم»، وهكذا استخدم شجرة الدر سلوك السلطان لتبث شائعة بين جنودها الصليبيون قد حدثت بموت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب..

مناوشات

● وتقدم جيش الصليبي فرنسا في «شرمساح» في يوم الثلاثاء ٢٠ رمضان سنة ٦٤٧ هـ بعد معركة ستشهد فيها «بعلاء» أحد أمراء المماليك وجماعة من جنود المسلمين.

● وفي يوم ٧ رمضان سنة ٦٤٧ هـ «شتد الكرب وعظم الخطب، لدنوهم وقربهم من المعسكر» بالمنصورة

● وفي يوم ١٣ رمضان وصل جيش الصليبي قبالة معسكر المنصورة، فعسكروا بين العربي، بين معسكر المسلمين بين الشرقي، وبين الجسرين «بحر شمزم» (بحر الصغير) وبين كل فريق بحر معسكره وحفر لأعداء خندق أمام معسكرهم، وبنو من خوفهم سور «وسترود المستشار، ونصبو المجانيق ليرموا بها معسكر المسلمين»

● ودارت بين الفريقين، على امتداد ما يقرب من شهرين (١٥ رمضان - ٥ ذي القعدة) مناوشات لم تنقطع في يوم من الأيام

● ففي ١٦ رمضان أسر المصريون ستة من فرسان الصليبيين، واستطاعوا أن يحصلوا منهم على معلومات هامة عما يجري بمعسكر الأعداء

وفي يوم عيد الفطر وقع في أسر المصريين أحد قادة الصليبيين (كونت) بل وكاد أن يقع في الأسر أحد أخوة الملك لويس (Count of Anjon)

● وفي يوم ٧ شوال أسر المصريون سفينة للأعداء وعليها مائتا جندي وقائدهم (كونت)..

● وفي يوم ١٥ شوال اقتحم عدد من الفرسان المصريين معسكر الصليبيين، عبر بحر أشموم، والتحموا معهم في القتال، حيث قتلوا أربعين من فرسانهم بخيولهم.

● وفي يوم الجمعة ١٦ شوال استقبلت القاهرة ٦٧ من أسرى الفرنج، من بينهم ثلاثة من أكابر فرسان «الداوية» الذين جعلوا عبادتهم ورهبتهم قتل العرب وإبادة المسلمين؟!

وكان الملك لويس قد شرع في إقامة جسر على بحر أشموم كي يعبر من فوقه جيشه إلى المنصورة، وأقام لحماية العمال المشتغلين بإقامته «برجين متحركين» على الضفة الشمالية للبحر، فسلط المصريون النار الإغريقية على هذين البرجين، وألحوا في الرمي حتى أحرقوهما في يوم الخميس ٢٢ شوال

وأخذ المتطوعون والعربان «والحرافشة» «من عامة المسلمين وسوادهم» يتفننون في الإيقاع بالفرنج، فأوقعوا بهم «نكاية عظيمة. وتخطفوا منهم وقتلوا كثيراً وكانوا يتحيلون في خطفهم بكل حيلة حتى أن شخصاً أخذ بطيخة أدخل فيها رأسه، وغطس في الماء إلى أن قرب من الفرنج، فظنوه بطيخة، فما هو إلا أن نزل أحدهم ليتناولها إذ اختطفه المسلم، وعام به حتى قدم به إلى المسلمين»؟!

● وفي يوم الثلاثاء ٥ ذي القعدة حدثت مفاجأة غير سارة لمعسكر المصريين [illegible] في المواجهة لصالح الصليبيين ذلك أن بعض الخونة ويسميهم « المقريزي » [illegible] حسن [illegible] على مخاضة في بحر [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] بقيادة [illegible] « الداوية » . ثم [illegible] وفرسان الأعداء بينهم في معسكرهم . وكان [illegible] فخرج مسرعا على جواده ، وتصدى لهم مفرد للفرسان [illegible] واستطاع الصليبيون الوصول إلى باب قصر السلطان [illegible] حتى [illegible] حطت .. حتى كان الأمير ركن الدين بيبرس [illegible] جنوده ، فصمد [illegible] ، [illegible] عن قصر السلطان [illegible] [illegible] [illegible] الأهالي مع [illegible] في [illegible] ، [illegible] على [illegible] [illegible] ولسهام « حتى أثنوهم عن حرمهم » ، وفيهم [illegible] لويس

● وفي [illegible] الذي كان فيه [illegible] بالفرسان ، [illegible] كي يدخل بنفسه إلى « المنصورة » ، [illegible] لا [illegible] [illegible] وفناء من ذهب معه من الفرسان

● وفي أول أيام شهر ذي الحجة استطاع الصليبيون الاستيلاء على سبع سفن مصرية (حراريق) ولكنهم لم يستطيعوا أسر من كان فيها من الجنود

● [illegible] ٩ ذي الحجة [illegible] [illegible] في معركة بحرية عند « [illegible] » [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] « [illegible] » [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في معسكر [illegible] وذرت المفاوضات بينهم وبين الأمير بدر الدين [illegible]

[illegible] وعرض الصليبيون في المفاوضات [illegible] البلاد [illegible] دمياط في [illegible] القدس وبعض حصون الساحل الفلسطيني، فرفضت طلباتهم وانقطعت المفاوضات.

[illegible] الصليبيون، مرة أخرى، [illegible] من [illegible] [illegible] فصنع المصريون [illegible] على [illegible] الأسطول الصليبي عند [illegible] الأخرى [illegible] الأسطول [illegible] من جهة [illegible] [illegible] وكانت [illegible] وخمسة [illegible] [illegible] في [illegible] الصليبيين [illegible] الأسطول المصري على [illegible] [illegible] «لا يطيقون المقام ولا يقدرون على [illegible]

● وفي يوم الجمعة [illegible] الرحيل [illegible] دمياط [illegible] [illegible] من الأثقال.

المعركة الفاصلة

كان الصليبيون قد عزموا على الرحيل من المكان الذي حوصروا فيه عند «المنصورة» إلى حيث توجد إمداداتهم وبقية قوتهم في «دمياط»، وأغلب الظن أنهم كانوا يريدون إعادة الكرة ومعاودة الهجوم على المصريين بعد أن تأتيهم الإمدادات والنجدات من أوروبا ومن الإمارات الصليبية على ساحل فلسطين. ولكن المصريين كانوا قد عزموا على الفتك بهم وإبادتهم حتى يقبروا معهم على أرض المنصورة حلم لويس التاسع وجيشه الصليبي في النجاح حيث أخفق من سبقه من الغزاة.

وفي ليلة الأربعاء ٧ إبريل سنة ١٢٥١م (٣ محرم سنة ٦٤٨هـ) بدأ تحرك الجيش الصليبي يريد الوصول إلى دمياط، وأنزلوا مراكبهم إلى نهر

... مسرين بالملام، ولكن المصريين سرعوا إلى العبور بينهم في ... العربي، وتقضوا عليهم من جميعهم، وكي يقول «مقريزي» «ولم يسلموا أفيتهم؟!» وعندما أشرقت شمس يوم الأربعاء كان المصريون قد حققوا بالجيش الصليبي، وأعملوا فيه سيوفهم ودوب حربهم، وأوسعوه قتلا وأسرا، وكانت مجزرة عظيمة شهدت فرسكور» معظم فصولها وأحداثها وفي هذه الساعات القليلة بيع عدد فتى الفرنسيس أرقاء بمدينة «بحسب قول «مقريزي» « بيعت عدة نفس عشرة آلاف في قول مقل وثلاثين ألف في قول مكثر» ما الأسرى من فرنسا وبقية مقاتلة ومن مصنع وعبرهم فقد بلغوا ستة آلاف يسير؟! ولم يستطع أحد أن يحصي عدد الغنائم التي غنمها المصريون من خيل وبغال وأموال وأسلحة وعدة وأعداد وفي هذا اليوم الذي بلغت فيه معركة المنصورة قدرها الذي قدر من حملة المقاتلين من عامة الشعب والجنود من الدماليك البحرية على حد سواء..

وعندما نصر الملك لويس فيه جيشه على هذه الصورة المروعة انحاز إلى ... من الأرض المرتفع عند قرية «منية عبد الله» المقابلة من «المنصورة» وبقية حوله جيشه من خيرة فرسانه ونبلاء جيشه، وكان قد أدرك جيشه الهزيمة، فتقلص الأمر، فأحاطه بيته وعدده بيده «المنوفي الحاجب بالجيش المصري»، غير أن فرسان الملك الصليبي لم يقبلوا الأمر الذي صمم عليهم، فحاربوا معركة بحرية فوق فيها عن جرهم، بجيشه فرنسيس قد سقسيها في النيل حيث غرق فيه؟!

وقبض على الملك لويس، وقد تحالف مع عدد من جيشه فيهم من إخوته، وأسروا إلى سفينة مصرية (جرافة) سارت بهم في النيل إلى المنصورة تحيط بها عدة سفن «تضرب فيها «بكوسات» (صنوج نحاسية) وطبول» وعلى الرغم لشرفي سارت جنود المصرية منصرة، وعلى ... سارت الغنائم من متنوعات وعدة وأعتدة وفي هو وهناء وسرور بهذا النصر العظيم» بين الأسرى مقيدون بالحبال وعندما وصل الركب إلى المنصورة قيد الملك الأسير إلى جيشه محتفل في دار القاضي الحنفي إبراهيم بن

لقمان، كاتب سر السلطان..

وكتب نور الدين في عاصمته، وفي عدد من مدن الشرق مثل مصر وحلب، وأرسل إلى نائبه في دمشق الأمير حسام الدين بن لاجين (المعروف بـ«المظفر» تحريفاً) المملوك الصليبي، ومعه كتاب بشر بالصوم يقول فيه «الحمد لله الذي أذهب عن الحرم نجس المشركين، ومن بشر بصوم شهر رمضان ذخراً، ومن لله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين فيه كل قد استفحل شره واستحكم ضره، وبشر بعد من البلاد والأهل والأولاد، فوده لا تناسبه من روح الله، وقد كان يوم لاثنين مستهل سنة ست وستين فتحنا الخزائن، وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وحشدنا لا يعلمهم إلا الله، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق، فلما كنا بينه لأربعاء ركبوا حبائلهم وأثقالهم، وقصدوا دمياط هاربين ... وقد كان استقر بعض في أذهانهم عامة الليل، وقد حل بهم الخزي والبوس، في صبيحة يوم الأربعاء قتل منهم ثلاثين ألفاً، غير من ألقى نفسه في البحر، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج، وبعث الفرنسيس (الملك) إلى «سيدا»، وطلب الأمان لنفسه وأخذه وأكرمه، وتسلم دمياط بعون الله وقوته، وجلالته وعظمته».

وصل المملوك الصليبي في الأسر بدار ابن لقمان، يقوم على خدمة «الطواشي صبيح المعظمي» شهراً كاملاً (٧ ربيع ـ ٦ ربيع) ثم يطلب المصريون منه فداء مالياً لنفسه ولا لأحد من حاشيته أو حواشيه، لأنهم قد فروا من جيشه «لفداء» الذي يريدون. وهنا يطلب إليه أن يتعهد بدفع فدية تعادل وزن مائتي ستون نفسه دون قتال في دمياط. ويسجل صاحب (النجوم الزاهرة) هذه الحقيقة التاريخية الهامة عندما يتحدث عن الأسرى في قوله «إنهم اتفقوا على أن يسلم (لويس التاسع) دمياط، وأن يعطي هو والكنود (جمع كونت) ثمانمائة ألف دينار (٨٠٠,٠٠٠ فرنك) عوضاً عن كل دمياط من الخواص، ويطلقون سراح المسلمين، فحملوا على هذا وقوموا خواص التي بقيت في دمياط بأربعمائة ألف دينار، وأخذوا من عند

[illegible] ثم [illegible] عصر يوم الخميس ٦ مايو سنة ١٢٥٠م (٢ صفر سنة ٦٤٨) [illegible] من المنصورة إلى دمياط حيث [illegible] المصري في يوم الجمعة ٧ مايو بعد احتلال دام أحد عشر شهرا وتسعة أيام [illegible] وفي [illegible] من دمياط [illegible] الذي [illegible] وسفك الدماء واحتلال بلاد العرب [illegible] إلى الله؟

الدرس والنهاية

والأمر الذي [illegible] المصريين في إجهازهم على الجيش الصليبي، وقتلهم حتى الفرسان الذين وقعوا في الأسر بالمعركة [illegible] كانوا على يقين أن الملك الصليبي [illegible] على العودة للانتقام [illegible] من دمياط إلى فرنسا، [illegible] الصليبي في «عكا» [illegible] في إحياء التحالف «الصليبي - التتري» ضد العرب والمسلمين، فأرسل في سنة ١٢٥٢م رجل الدين «جيوم» «بروك» إلى «قراقورم» عاصمة التتار، وظل هناك خمسة أشهر يسعى لدى الخان التتري «منكوقان» [illegible] بلاد العرب والمسلمين [illegible] هذه [illegible] المصريون [illegible] في المنصورة من قتل وأسر وعقاب، وصاغ الشاعر الصاحب جمال الدين بن مطروح ذلك التحذير شعرا فقال:

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال نصح من قؤول فصيح
أتيت مصر تبتغي ملكها	تحسب أن الزمر بالطبل ريح
فساقك الحين إلى عسكر	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك ودعتهم	بحسن تدبيرك بيض الصريح؟
إن كنت عولت على عودة	لأحد ثأر أو لعبد صحيح
[illegible]	والقيد باق والطواشي صبيح؟!

فعدل الملك الصليبي عن العودة إلى مصر، ولكنه أراد أن يجرب حظه [illegible] في بلد عربي آخر هو «تونس» فعزم على غزوه، وساعده البابا وعدد من

ملوك أوروبا (انكلترا، وناشلونيه وغيرهما) وهناك دارت عليه الدائرة مرة أخرى، فهزم جيشه، ولقي فيها حتفه سنة ١٢٧٠م، سنة ٦٦٩ هـ).

وسخر منه يومئذ شاعر تونس أحمد بن إسماعيل الزيات عندما خاطبه فقال:

يا فرنسيس هذه أخت مصر ... فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبرا ... وطوشيك منكر ونكير؟

وهو شعر إذا افتقد جمال الشعر وعذوبته فكأنما استعارت منه العذوبة والشاعرية روعة الانتصارات التي أحرزها الشعب البطل عندما دافع عن وطنه فحول مصر من بوابة الغزو فلسطين إلى مقبرة للغزاة وقلعة لتحرير فلسطين.

معركة عين جالوت

[٦٥٨ هـ ١٢٦٠م]

الزمان: منذ سبعة قرون. وعلى وجه التحديد في ١٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠م (٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ) والمكان: على أرض فلسطين في قرية قرب مدينة «الناصرة»، تسمى اليوم «جالود»، وكان اسمها في ذلك التاريخ «عين جالوت» حيث دارت معركة تاريخية انتصرت فيها جيوش العرب والمسلمين بقيادة مصر ضد جحافل التتار.

وسجل التاريخ في ذلك اليوم أول هزيمة للجيش التتري الذي لم يعرف من قبل سوى الانتصارات. كما سجل هزيمة للعرب اللاتيني الصليبي الذي تحالف مع «هولاكو» ضد العرب والمسلمين.

ولكن هذا النصر العربي الكبير لم ينه فصول الصراع بين الحضارة العربية وبين الأعداء. فكما تحالف العرب الصليبي مع التتار الوثنيين بالأمس ضد العالم العربي، يعود اليوم للتحالف مع الصهيونية العنصرية ضد العروبة ومقدسات المسلمين..

ولذلك تبقى دروس انتصار الأمس معالم حية على طريق انتصارات المأمول. فلقد كانت الوحدة هي طريق النصر في «عين جالوت» كما أعاد

النصر في «عين جالوت» وحدة المشرق العربي مع مصر، بعد أن انفرط عقدها منذ أيام «صلاح الدين»..

لغرب يحاربنا بقبضة الآخرين؟

كان قد مضى على انتصار صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في «القدس» نصف قرن، فشل فيه الصليبيون الذين تشبثوا ببعض الحصون والقلاع على الساحل الشرقي للبحر الأبيض، مثل «صور» و«عكا» وغيرهما، كما فشلوا في الاحتفاظ «بالقدس» أو أي من المناطق والمدن التي حررها العرب والمسلمون. ومن ثم أخذت إمدادات الغرب الاستعماري هذه الأمارات والحصون تقل وتضمر، فعدت عاجزة عن مواصلة البقاء في الأرض العربية، ولم يكن يمد في أجلها إلا ضعف الأمارات العربية، والفرقة التي أصابت جزء الوطن العربي بعد صلاح الدين، وخاصة عندما استأثر المماليك بحكم مصر بينما بقيت أمارات الشام فريسة للضعف والمنازعات بين بقايا الأمراء الأيوبيين..

غير أن الغرب الاستعماري كان قد قرر أن يقوم بجولة أخرى في صراعه ضد حضارة العرب والمسلمين، وإذا كانت قوة المدنية، وعلاقات دولة بعضها مع البعض الآخر، والحالة التي عليها بقايا إمارته وقواعده الاستيطانية في المشرق، إذا كانت هذه العوامل لا تتيح الفرصة كي يقوم هو بهذه الجولة الجديدة، فليبحث إذن عن قوة مدمرة يستخدمها ضدنا في هذا الصراع، ويفتش عن قبضة حديدية يحاول أن يصرع بها هذا الشعب الذي يعيش ما بين الخليج والمحيط.

ولقد توافق هذا التفكير الاستعماري مع ظهور قوة الدولة المغولية في وسط آسيا، تلك الدولة التي كونتها قبائل وثنية جبلية متبربرة، اختطت لنفسها طريق السلب والنهب والتدمير، واتخذت من تدمير الحضارات وتخريب المدن صناعة لا تعرف غيرها من الصناعات..

وقبل منتصف القرن الثامن عشر الميلادي كانت هناك استعدادات في بلاط الدولة العثمانية لقيام زحف مدمر يستهدف احتلال الكثير من بلاد أوروبا بالإضافة إلى منطقة شمال غربي أوروبا وهنا بدأت فعلا الاستعدادات الجهود الفعلية كي يجعل وجهة هذا الزحف شرقي إلى بلاد العرب والمسلمين، ولكي يتم التحرك عن المقدس فيه وبين هذه القوة وبينه العنصر الذي يقف معها بوصفه عربيا، ويعد منطقة شاسعة على المقدس وعلى كل ما يمت بصلة وفلسطين

● في سنة ١٧٤٥م بدأت السفارة السويدية في باريس تتلقى تقارير من «فرفورم» عاصمة الدولة العثمانية تشرفه، وأن هناك تعاونا بين «جون دي كاري» وبين حيث قام بمساعدات فعلية وشاقة استهدفت جوانب مطامع استراتيجية إلى بلاد العرب، وإقامة حلف بينهم وبين المسلمين

● وعندما قطعت من كل الخطة الفرنسية التي قادت ملكها لويس التاسع عشر، فاستهدفت مصر في الحقيقة وعلى طريقها فلسطين، بوقعت هذه الخطة في حرب «فرنسا» (١٧٤٨ - ١٧٤٩م) لاستكمال الإستعدادات، وهناك جاء إلى «لويس التاسع عشر» تقارير من قبل «حاكم» بتار «جنوى» حيث معه تحت يده، وقد عاد إلى «فرفورم» صاحبها بعد فرنسة لاستكمال بحث حول بسيط حتى تدرس من سبيل لبحث مسرح عربي، في لوقت الذي يهاجم فيه «لويس التاسع» مصر عن طريق «دمياط»، فلا تستطيع مصر بحدة المشرق، ولا يبقى حدة المشرق أن يقف إلى جانب مصريين

● ولم تقض هزيمة «لويس التاسع» في مصر عن جهود سابقة بعقد هذا الحلف، إذ خرجت من حصن فرنسي في عكا سنة ١٢٩٢م بعثة فرنسية رئيسة رجل يدعى «جيوم دوران»، وذهب إلى «قرفورم»، وسعيت للوصول إلى بلاط «جون» سري «ملكة» ن «جمة أسير» لأجله لوصول إلى الإتفاق مشود.

● وبدأ الصليبيون في استغلال هذه الظروف بكل ما يستطيعون ، حتى ماء الوجه وكرامة الرجال ، ويحدثنا المؤرخ العربي « ابن أبي الفضائل » في كتابه « النهج السديد » كيف ذهب « بوهيمند » الصليبي إلى مملكة التتار يستجدي ويستنجد بهم ضد المسلمين ، فكيف نال نصيبه في غنائمهم ، وعندما [illegible] قادهم [illegible] فتحت لهم [illegible] من البلاد والحصون بكل خسة ، فصار [illegible] إلى الإمدادات [illegible] [illegible] الأمير الصليبي [illegible] ، [illegible] الصليبية [illegible] « [illegible] » [illegible] ([illegible] « [illegible] ») [illegible] [illegible] عسكري [illegible] ؟ ! ولكن الصليبيين يستمرون في محاولات

● [illegible] في [illegible] [illegible] إلى طائفة دينية مسيحية تعيش في بلاد المغول ، هي طائفة « النسطورية » ، التي تعتنق المسيحية على مذهب النسطورية [illegible] [illegible] المغول [illegible] الصليبيون للاتصال مع [illegible] المغول ، وذلك على الرغم من أن الغرب يرى في المسيحية النسطورية هرطقة وكفراً [illegible] النسطورية [illegible] [illegible] إلى [illegible] من الغرب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الشرق [illegible] تبيح لهم التسامح وحرية الأديان .

وسعى الصليبيون [illegible] « هولاكو » [illegible] « [illegible] » ، وكانت المسيحية النسطورية [illegible] على [illegible] [illegible] وبعد مفاوضات استمرت خمسين يوماً في « قراقورم » بين « هولاكو » وبين الأمير الصليبي « هيثوم » [illegible] [illegible] الإمارة الصليبية « [illegible] » على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، [illegible] [illegible] في هذه المفاوضات [illegible] الأمير الصليبي « هيثوم » [illegible] « [illegible] » [illegible] الصليبيين في [illegible] [illegible] [illegible] . وتحقيق [illegible] بلاد العرب [illegible] من ذلك نجحوا في أن يقرر « هولاكو » أن يكون نائبه في [illegible] [illegible] « كتبغا » [illegible] [illegible] [illegible] المسيحية على مذهب النسطوريين ؟ !

وبعد ذلك جمع الأمير الصليبي « هيثوم » جيشاً انضم به إلى قوات

« هولاكو » وقدم « لطرق » لارمي مسيحي كي تمنح بركته لجحافل جوفي وحشده الزاحفين لتدمير حضارة العرب والمسلمين ؟ !

بغداد . . وما حدث لها

وبعد أن دمر الجيش المغولي الدولة « الخوارزمية » في فارس ، بدأ زحفه على العالم العربي بدخول بغداد في ٧ صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٣ فبراير سنة ١٢٥٨ م) حيث قام بمجزرة مشهورة ، ولا يزال ، مصرعاً لكل من مر بها وعلى مدى أيام ظلت المدينة تحترق بمكتباتها ، وقصورها ومساجدها ، وبيوتها ومدارسها ، وتلك الأيام من أيام الله وقد حكى بعض المؤرخين المسلمين ، ومنهم من عاصر تلك الأحداث في بغداد ، أهوالاً تقشعر لها الأبدان ، وتشيب لها الولدان ، وتذيب القلوب والأكباد ، حتى يروى أن جد حفيد « هولاكو » دخل رفقة من رفاقه مدينة بغداد ، فأخبر فيها على بعض أهلها بحجة نشمة عليهم ورحمة بهم حين علم أن مهمة هؤلاء الأطفال قد قتلوا من قبل ؟ ! وحتى قدر بعض المؤرخين عدد القتلى في هذه المذبحة من هل بغداد بسبعمائة ألف (٨٠٠ ألف نسمة) فيهم خليفة العباسي ، وأهل بيته وعشيرته من الأمراء والوزراء ؟ !

ما يقين بحجم من قتل من هل بغداد في مذابح المغول ، ولكنه يصور حجمهم في كتبه (التاريخ والتراجم) عندما يصور « ابن كثير » بغداد بالأمس ، خرج من تحت الأرض من كل تصوير وتقرير كأنهم موتى نشروا قبورهم ، وقد نكر بعضهم بعضاً ، فلا يعرف ولد والده ، ولا أخ أخاه ، وحشرهم جميعاً في ساحة ، فقتلوا ، وبلاحظ كل سكانها من قتلى ! وطيرت الأنباء صورة ذلك الهول الذي ترى بغداد في بلاد الشام ومصر وغيرها من الأقطار .

الشام بعد بغداد

وسرع « هولاكو » في الإستفادة من أثر الهزيمة التي حدثت للعرب في

بغداد ، فأرسل إلى حاكم مدينة « حلب » ، الملك « الناصر » ، رسالة يقول فيها
إن ما حدث لبغداد إنما هو قضاء الله ، وإنه « قد قتل بغداد خليفة
آبائي ، وقتل فرسانها ، وهدم مساجدها ، وشرد سكانها ... كما فعل بمدينة
عمورية إذ دخلها قومه فسبوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون)
يدعوه إلى الإسلام مشورياً ، قائلاً له إنه وقف على كتب هذا الفارس
مرحلات وأنابيك وفرسيك إن ضاعة سلطان الأرض ساهشاه « إلى رأس »
(ملك الملوك على وجه الأرض) تأمن من شره وشر جيوشه ... ، وهذا نص
« هولاكو » في رسالته هذه : « لم يخبر ملك بمصر من الاعتماد على مصر ،
بعتاد لا مثل عتاده ، فقد أتاه ما لم يأته وقد سمع من خبر سهامنا وغيرها ما هو
قدرنا ، فأطلعوه على حقيقتها من « كرماني سروي » (مخبر رجل مسافر ،
مصر) ، وإن كنتم في شك من ذلك فاسألوه ، وإن كنتم في لا ترضى
بمخبرها ... » ؟

وأحدثت هذه الرسالة ذعراً شديداً في ربوع الشام ، وصار يتعذر على
الإتجاهات ، خاصة بعد أن أتبع « هولاكو » تهديده هذا بالزحف على البلاد ،
فعبرت جيوشه نهر الفرات وأحدثت تحت قيادة « وسلو » تدميراً في القرى
والمدن والحصون

● « الملك الناصر » صاحب حلب ، استطاع أن يحشد جيوشه ويعسكر في حصن
« الكرك » في جنوب فلسطين ، وعندما اقتربت جيوش « هولاكو » من حلب
طلبت ثلاثمائة من أمرائه في صفوف عسكره ، وحدثهم عن ، من شأن وجود
« ابن عم خانقي » يعتزم من شأن هولاكو « ويتحدث عن جيشه الذي لم
يقهر وعن سعيه ويدعوهم إلى مداراته والدخول في طاعته ، ولما رفض هذا المنطق
أمراء كثيرون كان على رأسهم يومئذ الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري »
الذي صاح « بخانقي » وضربه بسيفه ، وقال له ـ حسب رواية المقريزي في
كتابه (السلوك) ـ : « أنتم سبب هلاك المسلمين » ؟ ! .. وانسحب « بيبرس »
ومن معه من أمراء وجنود الذين رفضوا مبدأ خيانة « الإسلام » و « المسلمين »
« غزة » ومن هناك كتبوا إلى سلطان مصر « الملك المظفر قطز » ، و بعثوا جميع

على توحيد جهود المعركة بقيادة قاضية صلاح الدين » فقد تم هذا الإتفاق ، انضم « بيبرس » بجيشه إلى جيش مصر .

● وكان السلطان « الناصر » قد تعاون مع مصر « قاضي حلب » كمال الدين عمر بن العديم » يطلب النجدة لدفع خطر التتار ، ويحكي « ابن تغري بردي » في (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) كيف بدأ هذا التوقيت في قصة « بكتوت » ، وكيف تعاون في « قصة حسن » مؤتمر حضره السلطان والأمراء والأمير « بيدمر » الذي يعتمد عليه في « التتار » ، وكان « بيدمر » هذا من قواد قاضي بلاد مصرية « نائب السلطان بالشام » وكان السلطان مستقر في دمشق سوف لشيخ « عز الدين بن عبد السلام » ، فاستشاره في الحادث ، وكان الاعتماد على ما يشير به عز الدين بن عبد السلام » وخلاصة ما قاله أنه إذا طرق التتار بلاد الإسلام وجب على كل (الإسلامي) قادم ، وحرم بكم الأمراء) ان تأخذوا من الرعية ما يستعينون به على جهادكم ، بشرط لا يبقى في بيت المال شيء ، وتبيعوا مالكم من الجواهر « الحلي » وغيره وآلات اسفيسه ، ويقصر كل احد على مركوبه وفرسه وسلاحه ، ويتساووا هم وعامة أن أخذ الاموال من العامة مع بقاء في يدي الخاصة من الأموال والآلات الفاخرة فلا » ؟ !

وأخذت مصر في الاستعداد لنجدة الشام . وبعثت إلى الملك « الناصر » مع رسوله « كمال الدين عمر بن العديم » الذي صحب في عودته إلى « حلب قاضي قصبة مصر » برهان الدين الخضر »

● غير أن الملك « الناصر » صاحب حلب ، لم يكن على ثقة من الانتصار على « هولاكو » ، كما أنه لم يكن على سعة من الوقت في انتظار قدوم الجيش المصري حتى يشد عزمه على الدخول في معركة مع مصر ، بسبب الضعف الذي أتاح للتتار سهولة الزحف على هذه البلاد

وعندما سقطت « حلب » بيد « هولاكو » في المحرم سنة ٦٥٨ هـ بعد حصار سبعة أيام ، أعمل التتار فيها النهب والسلب والقتل ، وبلغ

يقول « المقريزي » في كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك) إنهم « استباحوا فيها الدماء » حتى امتلأت الطرقات بالقتلى ، وصارت عساكر التتار تمشي على الجثث من القتلى « وبلغ الأسرى فيها ما قدر بنحو مائة ألف من النساء والصبيان » [illegible] وعندما حدث ذلك [illegible] الملك « الناصر » [illegible] من معه من دمشق إلى « غزة » يريد الالتجاء إلى مصر ، ولكنه عاد وتردد خوفا من عقاب « الملك المظفر قطز » [illegible] الإسلام [illegible] ، وذلك بعد أن تركت دمشق لتسقط في يد العدو خالية من الجيوش المقاتلة ؟ ! [illegible] كانت قد تجمعت لديه [illegible] ، فلم [illegible] قد [illegible] إلى مصر [illegible] الجيوش [illegible] ، وبقيت [illegible] جيشه [illegible] من الشام إلى مصر بعد سقوط حلب ودمشق [illegible] [illegible] لسقوطهما [illegible] ، ولكن [illegible] ، فلم [illegible] خروج « الناصر » ، ووقعت بينهم [illegible] الجيوش [illegible] ، حتى [illegible] قد [illegible] ؟ ! [illegible] لأن [illegible] « الناصر » [illegible] في [illegible] [illegible] ، على الرغم من أنه قد اجتمعت لديه [illegible] الجيوش [illegible] من العرب والعجم والتركمان والأكراد والمتطوعة « يريدون المقاومة والقتال . . ؟ !

[illegible] ذلك [illegible] الشام [illegible] [illegible] ، [illegible] في [illegible] [illegible] مصر

هولاكو يطلب من مصر الإستسلام

وكانت [illegible] [illegible] الشام في يد العدو قد [illegible]

في [illegible] ، [illegible] الجيش [illegible] على [illegible] مصر

[illegible] في [illegible] [illegible]

[illegible] فيها [illegible] ، [illegible]

[illegible] إلى [illegible] الملك المظفر قطز « يطلب منه الاستسلام » ، [illegible]

[illegible] إلى مصر [illegible] من [illegible] ، [illegible] « [illegible] الملك [illegible]

[illegible] « [illegible] الأعظم » [illegible] الملك [illegible] ، [illegible]

دونه ، وهي ممكنة بتدبير مصرية ولا خوف من أحمال ، ... في بحر حتى ... في أرضه ، حتى من سخطه ، وسيقضي على من حوله قصته ... فإنكم بخضع بلاد مصر ، وعن قريب فريخر ، فخضعو بعركم ... ... فلي أن يكسف بعضه فيدعو ويعود عليكم خطأ ، فيحرمكم من بركة ، ولا يرق من شكواكم ... وقد سمعتم أنه قد فتح بلاد ، وقتل معظم جنده ، فعليكم بالهرب ، وعليه بقصد أي أرض تأوكم ، وأي طريق يحميكم ، وأي بلاد تحميكم ؟ ! في لكم من سيوفه خلاص ، ولا من مهنده مناص ، فمن طلب حربه ندم ، ومن قصده فقد أسلم ... فقد أعذر من أنذر ... فلا تقبلو خطأ ، وأسرعو بالهرب قبل أن يصرم حربه ما هنا ، ويوفي بحوكم شررها ... فما بقي مقصد سواكم ... » ؟ !

ولقد حسمت هذه الرسالة بحكمة موقف التردد الذي ساد بعض الأوساط المصرية في ذلك الحين ، هؤلاء الذين كانوا يأملون أن يتسع الخرق على الراقع ، وألا تمتد يد الاجتياح إلى الديار المصرية ، فروح المقاومة الحقة قد ... ، وانبعثت إليهم بعد أن أصبحت الحرب واقعة ... في سبيل الدين والإسلام ، بالإضافة إلى الحرب والعرب ، وذلك من رسالة هولاكو ... ف أثبت أن الشام ما هي إلا بوابة مصر . وأن مصر ما هي إلا قلب الوطن العربي ، وأنه لا استقرار بالشام إلا بقهر مصر ، ولا ... حكم مستقل بمصر إلا إذا ارتبطت به أقاليم الشام .

وتحكي صاحب (النجوم الزاهرة) حال الناس بعد ... من الخوف من جور التتار على مصر ، فقد تعرضت مصر في مشرق عربي ، وقتل الكثير من سلاله بعد تهديد « هولاكو » لها ، فتحول بعض السكان إلى ... مصر على مصر ، وتجمعوا على حدود مصر لا سيما ، كثيرة عددهم ، وستلائهم على معظم بلاد المسلمين ، وبهم ما قصدوا إلى لا فتحت إلا بمعسكر إلا هزمته ... وهرب جماعة من الغربية ... ... وهرب جماعة من ... ليس وجحر ، وسكنوا بقبور في داخل مقبرة وخوف شديد ، متوقعون دخول العدو وأخذ البلاد »

وقد [illegible] هذه الإخوة الأبرياء نفس شجاع ونفس مشوقة للحرب والقتال وحب رفيع وروح معنوية وجمع كتيبة حسن صورة خروج نفسه لأعداء الحرب بأسرع طريق بأحسن الوسائل والأساليب .

● فكان يخطب في الأمراء المترددين ويقول : « يا أمراء المسلمين ! لكم ربكم تأكلون أموال الناس بالباطل ، وتمنعون الناس عن الجهاد في سبيل الله وأنتم متوجه ، فمن اختار الجهاد فليصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته !! ، فإن الله مطلع عليه ، وحقيقة حريته مسجلة في رقائق الحساب » ، فيكتب هذه الإثارة إلى صفوف القتال أبصروا من الأمراء المترددين .

● وفي بعض الأحيان كان يلتقي بالأمراء المجتمعين لمصلحة الحرب والقتال ، ويدير معهم خطة الإجتماع لقيام بالأمراء المترددين ، حتى إذا انعقد الاجتماع ، وجاء إليهم في مجلس ، كان يتأمل ويجلس من غير تكلم وهو في سلاح كأنه مستعد على هؤلاء مترددين ؟ ! ويستطرد بذلك حتى أن يكتب المزيد من الأبصار لصف معركة والقتال

● وإني أحسن كان يخرج سلاحه في عسكره وبصره ، ويصيح في الأمراء قائلا : « قد خرج أحمد بنفسه » حتى جاء يوم الذي « اجتمعهم فيه ، وحضهم على القتال بالقتال ، وذكرهم ما وقع بأهل الأقدمين من الخسران والذلة والحرمان وخوفهم من وقوع مثل ذلك ، وحثهم على استعداد لقاء عدو ، وبصرهم بإسلام المسلمين ، وحذرهم عن الفضيحة بأن يكون من الجبناء ، وحضهم على الإجتهاد في قتال العدو ، ودفعهم عن بلاد » .

وهكذا جمعت كلمة مصر على الخروج لقاء الأعداء ، وإجلائهم عن البلاد ، واستقام شأن مهم رغم لأثر الكثرة بالانتصارات التي أحرزها جيش التتري الذي لم يكن قد هزم قط حتى ذلك الحين

الإستعداد للقتال

وعندما اجتمعت كلمة الأمراء على حتمية الخروج لقاء العدو ، وصار ء

فقد ... حدث لإسعاد ... للمعركة جرى على هذه وسائل في كل مجالات فقد كانت كلمة الشعب مجتمعة على ذلك من حين ... وبرزت إلى الوجود في جلاء ووضوح تلك الظاهرة التي صاحبت تاريخ مصر على الدوام ، ظاهرة انفراد أحمد المملوكي بأمور سارعت على السلطة والسلطان ، وعزوف العنصر الوطني المصري عن الدخول في هذه المتاهات التي لا تنتهي حقدها ، وقد صار حق الحظ للوطن ، ووقفت ترجمة أقدام العراة المصريين سحاب تقدم دور العنصر الوطني ، وسجلت كتب التاريخ محات وإشارات عن مشاركته الفعالة في هذا المضمار

فالمماليك الذين فرضت الأسلام المحترفين الحرب في تلك العصور ، في سبيل إتقانهم لصناعتهم هذه كان الشعب قد بذل لهم الكثير من الأموال والعديد من الأرواح ، ولكن النصر العام الذي حققه « تلك العناصر الفقيرة » المغلوبة في سبيل الله والوطن ، قد استحوذت عليه كل العناصر الأجنبية التي عاشت في هذا الوطن بوصفها ... وأصبحت تحكم القاهرة ، بصفة عامة جرجوا تلك العناصر بأنهم « أمم عظيمة من العرب والعجم والتركمان والأكراد المتطوعة » . . كما يتحدث « ابن أياس » في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور) عن جموع العرب الذين انضموا إلى الجيش في معركة « مرج دابق » وكيف اجتمع هذه المعركة بوصفه « من العساكر ما لا يحصى » كما يتحدث « المقريزي » في (السلوك) عن وحدة الجند الشام مع الجند مصر ، وكيف « خرج تلك السفر قطر بجميع عسكر مصر ، ومن انضم إليه من عساكر الشام ، ومن العرب ، والتركمان ، وغيرهم » قاصداً قتال الأعداء

وفي الميدان الاقتصادي ، تحولت موارد الدولة إلى خدمة المعركة ، ويقدم لنا « ابن إياس » صورة دقيقة لكيفية تحويل اقتصاد مصر خدمة هذه المعركة ، فنجد أن تلك السفر قطر « جد في سبيل جمع الأموال فاجتمع من أهل مصر والقاهرة عن كل رأس من الناس من الذكور في الصغير والكبير من أجرة الأملاك والأوقاف شهر واحد ، وأخذ من أغنياء الناس والتجار كافة ما وافقهم معجلاً ، وأخذ من أرباب الأقلام (عن المحتسب) تلك السفر ،

و حد على بعض و سوق في حرة شهر شيع جنده ف جمعه من لاسه ب في هذه المعركة ستمائة ألف دينار ، فأنفق على العسكر والعربان » .

وحين في تريح وضب . حتى في عصر سمايتك أن يسمح بمثل قسمات حتى في مثل هذه لظروف . فلقد أشرنا من قبل إلى حديث يشيع عن الدين بن عبد السلام » الذي طلب من الأمراء أن يتنازلوا بعامة و ب يبيعوا ما لديهم من تحف الدهشة في سبيل المعركة في مقابل مطالبة الناس بدفع كل ما لديهم من أموال وفي « قيرنسة الحرب » هذه لي حدثت عنها « ابن إياس » نجد مواطن من العامة يدفع ديناراً ، ومسيحي تعفار واحد و لساقيه يدفع أجرة شهر ، يراد عنها بالنسبة للأغنياء ركاة أموالهم وممتلكاتهم مقدماً . أما الأتراك الذين كانوا يمثلون الطبقة الثرية في ذلك الحين فقد اقتطعت منهم الدولة ثلث ما لديهم من أموال . ؟ !

عن أن كثرة الجيوش ، وحصور لأموال لم يكن كافية بوحده لرفع همة المصريين في الحرب ضد أعدائهم ، ذلك أن العدو كان بالنسبة لهم مجهولاً لم تعرف هويته في يوم من الأيام ، ورجل المصري الذي خرج من أوساط الشعب هو الذي يألفه هو لأن الحرب المقدسة الإجبارية المصري كل ما خلف و ، ه من حضارة وعبقرية وبالتالي جهد « ذلك المظفر قطز » في معالجة هذه الجانب عند الجند والمواطنين وفي سبيل ذلك خرق عدة سوابق مرعية و معروف عليه من المحرمين ذلك أن الرسالة التي بعث بها « هولاكو » إلى مصر تضمنت قد جعلها إلى « قطز » ـ كي قدمت جملة من الأعيان ، وكان مثل هؤلاء الرسل يتمتعون من الخروج و يرغب بقدر ما يقع بالفعل على ه الجيش الشرقي من دمار وأهوال وكان « قطز » غير ب مثل هؤلاء الرسل ، ومثل بجثثهم ، وبعرضهم على سائر أنحاء مصر في الأماكن العامة ، كي يكسر جدة الفزع من المغول ، وحتى تتحسر موجة الخوف فيهم ، بعد أن أخذت في الصعود بعد سقوط كل من صنعت مصر من سعد ذات اليمين و شمال

وكان جند الجيش المصري يعلم « قطز » وصمته إلى ما يملكه ، ف

الأربعة فقتل أحدهم في « سوق الخيل » تحت القلعة ، والثاني قرب « باب زويلة » ، والثالث قرب « باب النصر » والرابع « بالزيدانية » ... ثم بعد ذلك كما يقول المقريزي - « علقت رؤوسهم على باب زويلة » وهذه الرؤوس أول رؤوس علقت على باب زويلة من التتار » وكان هذا الحدث الذي يعني اختفاء التتار والإستهانة بهم والإصرار على قتالهم وإذلالهم في نفس الوقت الذي تبرز فيه « الملك المظفر قطز » من القلعة ، على رأس الجيش ، خارجا للقاء العدو في ٥ شعبان سنة ٦٥٨ هـ .

الخروج للقتال

وفي الطريق إلى فلسطين خط الجيش رحلته في مكانين استكمالا للإستعداد ، وهما « الزيدانية » وبينهما « الصالحية » في الطريق إلى المشرق وكان في صحبة « قطز » بهذه المسيرة « الملك المنصور » صاحب « حماة » الذي لجأ بجنده إلى مصر ، وها هو يعود مع الجيش المزاحف للقاء التتار ، وكذلك أخوه « الأفضل علي » .

وحدثنا ابن تغري بردي « كيف أرسل « قطز » إلى « الملك المنصور » في معسكر « الصالحية » يطلب إليه أن يهتم بتقشف جنده أثناء المقام وأثناء المسير ، وكان الوقت في رمضان ، فكتب إليه يقول : « لا تحفل في مد سماط (مائدة) ، بل كل واحد من أصحابك يفطر على قطعة لحم في صوفة (المخلاة المعلقة في جنبه الأيمن) » وذلك حتى يحيا الجند حياة جدية استعدادا للقاء الأعداء .

ومن « الصالحية » تحرك الجيش صوب « غزة » ، وكانت يومئذ بيد « التتار » وعندما وصلت أنباء خروج الجيش إلى التتار ، وقربه من أرض فلسطين ، جمع القائد السري « كتبغا » - وكان في « النقاع » - كل ما لديه في جميع أنحاء الشام من جند وعتاد

وجعل المصريون على مقدمة جيشهم الأمير بيبرس البندقداري ، وما « قطز » بأن يكون طليعة الالتحام بالأعداء ، وفي (غزة) كان ...

[illegible] التتار في شاطئ نهر « أبغضي » كي يصلوا صفوفهم ويجمعوا قواتهم للقاء الفاصل بينهم وبين العرب والمسلمين . .

[illegible] الجيش المغولي على « عين » بعد [illegible] وحد ، وفي صباح يوم السبت هجموا له بجيوش ، ولبثوا هناك في « عكا » بضعة أيام يقاتلون ، حتى هاجم صاحبه بيبرس العرب ، وقلب جيشه في حلوقهم كالشوك ، وسلب راحتهم فصاحوا بطريق الجيش بالرحيل ، وكانوا قد أعدوا له عن طريق لا يتصور إلا حتى يخالوه ويشعروا فيه بمرارة وسلب راحته عند شدة بأسه . وكان « قطز » بقلب جيشهم هناك ، فرفض عروضهم هذه ، وأصر منهم كما يقول المقريزي . « أن يكونوا لا له ولا عليه ، فمن [illegible] منه متى تبعه منهم فرس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع فقتلهم فلم يلق التتار ، تأميناً لظهر جيش المسلمين .

ثم سار « بيبرس » على رأس جزء من الجيش في مقدمة الرحف ، حتى في مناوشة طلائع التتار ، يقدم تارة ويحجم أخرى ، يخلص فيها معارك جزئية صغيرة ، حتى تهيأ لأمر مجموع جيشين متحفزين إلى الوقوف مواجهة عند قرية « عين جالوت »

المعركة الحاسمة

[illegible] شمس يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ صباح حسن مواجهة في انتظار بدء القتال . وكان لا يدري في « قلوب المسلمين وهم عظيم من أمر » لأنهم أمام جيش لم يروا هزيمة تحيق به حتى الآن ، ولأن معظم [illegible] في هذه المعركة تعني سقوط حصن الأخير بمعروفه و[illegible] سلاحه الذي لا يقهر . ولكن المسلمون كانوا « يعتقدون في أنفسهم ، وكانت من يقدمون من عزم ومحاربين وأحد الملاحون المسلمون ، من أهل بشرى محصنة ميدان معركة سوف يدون في سجلها ، ويعلو صياحهم وتهليلهم وتكبيرهم لأشعار الحماسة في جيش المسلمين عندما بدأ القتال وعلت وسمعت دقت طبول « كوبلاي » للسقوط والأمراء لتتحول إلى موجات صوتية

دافعة للحماس ومعينة على الإقدام ومانعة من التفكير في أي شيء غير القتال .

وانظر « الملك المظفر قطز » أن الجناح الأيسر لعسكر المسلمين قد اضطربت صفوفه . فتملكته مشاعر الحماس ، وانثنى « بالجودة » إلى الأرض من فوق فرسه ، وصرخ في الجند بأعلى صوته ثلاث مرات : « وا إسلاماه ! وا إسلاماه ! وا إسلاماه ! ! » واقتحم بنفسه صفوف القتال ، واستطاع بمن معه أن يسد ثغرة الميسرة فتماسك الجيش وصمد واستمر احتدام الصراع واشتداد القتال . ؟ !

وأخذ « قطز » ينتقل من مكان إلى مكان ، يشجع الجند ، ويحسن إليهم الموت والاستشهاد ، ويحسد لهم المصير الأسود إذا ما انتصر عليهم التتار ، ويباشر بنفسه الكر والفر والقتال . وقتل الجواد الذي تركته بسهم أطلقه الصبي المغولي الذي استنقذه من رسل « هولاكو » ؟ فترجل وباشر القتال من فوق الأرض ، وعندما رآه على هذه الحال أحد الفرسان الأمراء ، قدم إليه فرسه ، فرفض ، وقال له : « ما كنت لأمنع المسلمين الانتفاع بك في هذا الوقت ! » . .

وعندما أشعل موقف السلطان هذا الحماس في قلوب الجيش ، استطاع المسلمون زحزحة التتار عن مواقعهم ، فلجأوا إلى حماية الليل المجاور لمكان المعركة . وحمل عليهم المسلمون حملة ثانية أشد من الأولى ، انتهت بإبادة نصف مقاتليهم ، وفرار النصف الباقي إلى « بيسان » .

وعند ذلك نزل السلطان من فوق فرسه ، ومرغ وجهه في تراب المعركة ، وقبل أرضها ، وصلى ركعتين في أرض الميدان شكراً لله الذي أعانهم على هزيمة الأعداء . ثم ركب إلى « بيسان » حيث وجد الأعداء قد جمعوا صفوفاً وعدداً وعتاداً يكاد أن يفوق إمكانياتهم في « عين جالوت » . ؟ ! ولكن الانتصار الأول الذي أحرزه الجيش المغولي المسلم كان قد قرر مصير هذا الصراع ، فسرعان ما لحقت الهزيمة ثانية بالتتار في « بيسان » كما لحقت بهم في « عين

حاولت ... ووقع أمر وأهم قبل وصول ، وجاء بعثة هم « كنعان » مكبلا من يدي بسطاء ، على حين تعقب « نبرس » فلولهم ، في جماعة من الشجعان إلى طرف البلاد ، وسيوفهم هي البلاد والصباح ، فدار الأمر بينهم مقتلة عظيمة ، حتى إنه لم يسلم منهم إلا القليل جدا !

ويحكي « ابن أبي نقدا » أن « خوري دي دريين » ملك مصر قصر « ابنه » عندما تزوج « كنعان » وكيف قال له « قصر » في يأمر نفسه « أنت رجل مبارك معها ! ... هأنت بعد أن سفكت كثيرا من دماء شريفة ، وقضيت على الأنفس والعظماء بوعود لكاذبة ، وهددت بالموت كل من عارضك بالأقوال الرائفة المزورة ، قد وقعت أخيراً في الشرك » . ؟ !

وأراد « كنعان » أن يرهب « قصر » فقال له « لا تطمح بهذا مصادقة معاجلة ، فإنه حين يسمع « هولاكو » ما وقع ، سيف على بحر عظيم ، وينتقم منك حين يعلم البلاد من أدريحان حتى دار مصر ... إن هولاكو لا يلبث أن يقف درس مثل كتبا . » . ؟ !

ولكن « قطز » أجابه بجواب من أن هذا لصراع قد حسم في « عين جالوت » ، فقال « لا تطمح في هذا فإن نبرس نبرس (شار) ، فإنهم يرون أعمدهم بمكر وخداع ، لا يبرحونه وشهيته » ... ثم وضع الأمر حين تبين « فوس شمس » أحد مطوق « كنعان » على بسطاء عندما قص رأسه عن جسمه كي يطوف به في مختلف أنحاء البلاد . ؟ !

كي يحكي صاحب (محبوب القلوب) ذلك الخبر الذي أحدث بعثات من الأمراء بسطاء على محاربته بنفس رخيصة لا يبركب أبناء لإنجاده مع الأعداء ، فيقول له « لو صادفت - وبعد بالله - بعض مغول وتتار ، كنت رحمت وراح الإسلام ! » وعند ذلك أجاب بسطاء « أنت لو كنت رحمت في أحد من أبناء الله تعالى وأهل الإسلام في كل الله بقطعة ، فقد مات ذلك الصباح نجم الدين أيوب ، وقبل بعده به ذلك بعظم نور ... »

وقتل الأمير فخر الدين بن الشيخ ، مقدم العساكر يوم ذاك (غزو الصليبيين بدمياط والمنصورة) ومع ذلك نصر الله الإسلام بعد اليأس من نصره » [illegible]

(المغزى والنتيجة)

وعاد الجيش المنتصر ، يستقبله مدن الشام وقراه ، ويتقدم إلى سلطانه إمارته معلنة عودتها إلى الوحدة مع مصر ، تلك الوحدة التي كان قد انفرط عقدها منذ أن مات صلاح الدين الأيوبي .

وسجل التاريخ أنه على أرض فلسطين استطاع العرب والمسلمون في « عين جالوت » أن يحسموا لصالحهم جولة من جولات الصراع ضد حضارتهم وتقدمهم واستقلال بلادهم ، وهي الجولة التي هزموا فيها قوة التتار الوثنية العنصرية المتحالفة مع الصليبيين ، كما كان قد سجل من قبل انتصارات صلاح الدين في جولة سابقة ضد الأعداء على نفس الأرض ، أرض فلسطين .

وفي كل هذه الجولات ، كانت الوحدة هي سبيل استعادة الحق العربي الإسلامي ، وطريق تحرير هذه الأرض من غاصبيها ، كما كان القتال على هذه الأرض ، وإحراز النصر فيه ، الخيوط التي تنسج من جديد وحدة العالم العربي وتمنحه اليقظة والقوة والتقدم والإزدهار .

بونابرت بالعمامة المملوكية ؟ !

معركة بونابرت
ضد الشخصية المصرية

[١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م]

الأمر المؤكد أن ما كان يدور في جبال بونابرت ، وهو في الطريق إلى مصر ، على رأس حملة عسكرية من ٣٦ ألف مقاتل ، كان مختلفا إلى حد كبير عما يدور في جبال كثير من الغزاة والمغامرين الذين راودهم الأمل في إخضاع مصر والمصريين.

كان منذ اللحظة الأولى يحاول أن يجعل غزو الشخصية المصرية معركته الكبرى ، بل إنه أعطاها من الأهمية ما فاق أهمية السلاح والجنود.

إن ذكاء بونابرت في هذه الحملة النفسية التي صاحبت الغزو يبدو واضحا في تخطيطه لغزو الشخصية المصرية ، ليس فقط من خلال نقاط الضعف في هذه الشخصية ، ولكن من خلال نقاط القوة فيها.

وهكذا كان يقول لهم:

« مصر - أيها المصريون - هي الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها ما يشبهها أو يدانيها »

ومع ذلك لم يستطع بونابرت العظيم أن يصل إلى العمق الدفين للشخصية المصرية ، ولم تستطع الحملة بالتالي أن تجني ثمارا من أرض مصر حتى بعد أن تم لها الاحتلال بالانتصار على جيش المماليك.

وعندما غادرت الحملة الفرنسية البلاد المصرية في رحلة الإياب كانت قد فقدت جنودها الذين جاءت بهم . وفقدت نهائيا كل الآمال التي راودت قائدها في الاقتراب من قلب الناس على ضفاف النيل

ومن هذا المنطلق الذي تمثل في شخصية « بونابرت » وأحلامه ، والتي كانت تجسيد الأمان الاستعمار الفرنسي ومخططاته ، يستطيع أن يبصر الخط الذي ربط كل تصرفاته حيال المصريين ، وكيف حاول منذ اللحظة الأولى أن يجعل غزو الشخصية المصرية ، معركته الكبرى ، وكيف أعطاها من الأهمية ما فاق أحيانا أهمية السلاح والجنود والقتال ، وكيف أهم شخصيا بهذه المعركة على جبهة القلوب ، والنفوس ، والأفئدة ، بينما ترك الأغلبية الساحقة من معاركه الحربية في أقاليم البلاد لقواد الحملة الآخرين .

(غزو الشخصية المصرية)

ومنذ المنشور الأول الشهير الذي أعده « بونابرت » ، وهو لا يزال بعد في عرض البحر لم ينزل بجنوده إلى أرض البلاد ، والذي ترجم إلى العربية ووزع على الناس ، يلمح كيف خطط « بونابرت » لغزو الشخصية المصرية ، لا عن طريق نقاط الضعف في هذه الشخصية فقط ، كما يبادر إلى الأذهان ، وإنما أيضا عن طريق نقاط القوة فيها !! وكيف مزج في بياناته وأحاديثه ومواقفه بين هذه العوامل المختلفة والمتناقضة ، واتخذ منها جميعا ثغرات حاول النفاذ منها إلى نفوس المواطنين المصريين

ففي منشور الحملة الأولى ، وهو الذي انفرد بروايته الجبرتي ، أصدق وأعظم من أرخ لذلك العصر ، يحاول بونابرت أن ينفذ إلى قلب مصر ونفوس أهلها عن طريق :

١ ـ إثارة ذكريات المجد المصري القديم وبعثها من جديد ، والحديث عن أن مصر هي الإقليم الحسن الأحسن ، الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها ما يشبهه أو يدانيه ، وكيف شهدت هذه البلاد [illegible]

والخبرات الواسعة والسحر الكثير ، وغير ذلك من مظاهر العبقرية والعمران والثروة والغنى .

وصفوة القول ما كان يهدف إليه نابليون هو أمر خطير عظيم الشأن بالنسبة لمصر والمصريين ، إذ كان هدفه هو تصحيح الفوارق الحضارية بين هذا الشعب بتاريخه وبين حكام المماليك الذين كانوا يحكمونه بالاشتراك مع الأتراك العثمانيين في ذلك الحين .

٢ ـ ومن هنا كانت إثارة نابليون لذكريات مصر السوداء عن حكم المماليك ، وتذكيره أن يتفرد المماليك بالبلاد « بعد ما قدمت إليكم لا أخلص حكمكم من يد المصريين » وادعائه في ختام خطابه بأنه « يعلم أن المماليك » ؟ !

٣ ـ ولقد كان في حساب نابليون ، يومئذ ، أن يترك المماليك يواصلون في تركهم حكم المماليك الطغيان في النفوس والبؤس ، والمماليك الطغاة في صحبة عدة المماليك البؤس وحكم المماليك الكثير من المعاناة ، فتحدث بينهم في مشورة الأمور عن أنفسهم جميع سقطة المماليك وسقطاتهم ، وذلك « لأن جميع الناس مفتونون بحب الله ، وإن سيئ الذي يشرفهم على عيوبهم هو بعض الفضائل والعلوم فقد » وهي غير الخصائص لا تملكها المماليك

٤ ـ كما حرص « نابليون » في خطته في هذه الحرب المقدسة والغزو الذي يريده بشخصيته المصرية على أن يكون إعلاء شأن مصر والمصريين ، واحترام المماليك ولغتهم ، هو حساب حسابه ، وسعادته ، لا حساب مصر والمسلمين والشعب المصري وتحرره من كل المغتصبين وسائر القيود .

وبالقدر الذي تعمد فيه نابليون إلى مصريين ومماليك كان يتعمد الذي حاول أن يضرب به بين المصريين والفرنسيين . وقد كان من الممكن أن يفكر نابليون وبرونو صديقه بمصر ، وخصوصا في الشرق ، كانت هذه بعثة عن التفكير القومي الذي لم يكن قد تبلور بعد في ذلك الحين ، ومن ثم حرص على أن يعلن المماليك بكل المعاني أنه جاء من دائرة الإسلام ورده المسلمين ، كما حرص على التحدث بصفته الخليفة مع خلافه

بدينه لعقيدته ، وتحدث عن أن "الفرنسيين" في كل وقت من الأوقات ، صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء لأعدائه ، أدام الله ملكه ؟ ! "

بل لقد ذهب "بونابرت" في حربه على [illegible] إلى أبعد من هذا ، فقدم نفسه لمصر على أنه مسلم ، وأنه يشبههم [illegible] ، من حيث الموقف الفكري ، وأيضاً من حيث العمل والتطبيق ؟ !

وهو لم يكتف - كما صنع مستعمرو الشرق وعملاؤه من بعده - بالحديث عن أنهم ليسوا صليبيين ، [illegible] مسلمون ، [illegible] "أهل كتاب" ، بل افتتح منشوره الشهير المعروف بقوله : "بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، لا ولد له ، ولا شريك له في ملكه"[1] [illegible] عن عقيدته المسيحية في "التثليث" ، ثم تحدث عن الإسلام [illegible] ، وكيف أنه أشد الإسلام وتدين من المماليك ، فقال : "إني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى ، وأحترم نبيه ، والقرآن العظيم"[2] [illegible] شخصية خاصة به [illegible] [3]

ثم حدث أن [illegible] على [illegible] ، [illegible] الإسلام والمسلمين [illegible] "بونابرت" في [illegible] البكري ، [illegible] على محاربة الإسلام ، [illegible] الإسلام والمسلمين .

(يحتفل معهم بالمولد)

[illegible] في [illegible] ، ومشاركة في [illegible] الاحتفال بالمولد النبوي في [illegible] الاحتفال الشرعي . [illegible] أدرك [illegible] "الشيخ البكري" في ذلك ، [illegible] الاحتفال على [illegible]

حملته ، وإن تساهم وجوده في الاحتفال ، ويحكي الجبرتي في حديث شهر ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ ، فيقول : « وفيه سأل « صاري عسكر » ـ بونابرت ـ عن المولد النبوي ، وهل لم يعملوه كعادتهم ؟ فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال ، فلم يقبل ، وقال : لا بد من ذلك ، وأعطى له ثلاثمائة ريال فرنساوي معاونة ، وأمر بتعليق [illegible] وقناديل ، [illegible] الفرنساوية يوم المولد ، وبعثوا في ميادينهم وضربوا طبولهم وزيادتهم ، [illegible] الكبيرة إلى بيت الشيخ البكري ، واستمروا يضربونها طول النهار والليل « بالبركة » تحت داره » .

وشارك « بونابرت » في [illegible] الشرقي ، [illegible] في هذه الاحتفالات ؟ !

ومثل ما حدث في المولد النبوي حدث في مولد الإمام الحسين ، فعندما حان موعده ، بعد انقضاء المولد النبوي ، عزم المصريون على عدم إقامته ، احتجاجاً على الاحتلال ، وقرروا ألا يقيموه إلا بعد زوال هذه الغمة عن البلاد ، وعودة الأوضاع فيها إلى ما كانت عليه ، وأخبر الجواسيس « بونابرت » بذلك التدبير ، فتدخل في الأمر ، فأقيم الاحتفال في نطاق ضيق ، وحضره « بونابرت » شخصياً .

(يستعين بالقضاء والقدر !)

ولعله لم يكن هناك في تاريخ الغزاة والمستعمرين الذين تعاقبوا على مصر ، والذين هزمتهم مصر ، من حاول استغلال نقاط الضعف التي أصابتها الخرافة بالدين زوراً وبهتاناً ، كما صنع ذلك « بونابرت » خلال حملته على مصر ، فلقد استخدم في أحاديثه وبياناته ومنشوراته تلك التصورات الضارة [illegible] على الفكر الإسلامي عن القضاء والقدر ، وتجنب تماماً الإشارة إلى المفهوم الصحيح عند المسلمين لأوائل هذه العقيدة ، بل ومفهومها الصحيح عند المصريين القدماء .

ولقد شهد الفكر الإسلامي ، وشهدت حياة المصريين على عهد

« [illegible] كما في هذين المفهومين المتناقضين ، هذه العقيدة ، التي [illegible]

فالفصل الرومي « محمد كريم » حاكم الإسكندرية عند دخول « نوبرت » هـ ، يرى في عقيدة القضاء والقدر روحاً روحية تمنح النفس الموهنة المستسلمة والعزم لخوض المعركة ضد الأعداء بروح الفدائيين والشهداء ، وهو يردد ، لكل أحد كتب ، فلا معنى للحذر أو التردد في التضحية والفداء ، لأن الحرص على الموت في ساحة القتال هو السبيل إلى الحياة ، وهو بذلك يرفض أن يدفع ثلاثين ألفاً من الريالات حكم به عليه الفرنسيون مقابل وقف تنفيذ حكم الإعدام ضده ، ويجيب القاضي الفرنسي عندما يسأله « أنت راضٍ عن نفسك ؟ » ، قائلاً « إذا كان مقدوراً عليّ أن أموت ، فلا يعصمني من الموت أن أدفع هذا المال ، وإذا كان مقدراً لي الحياة فمن يدفعه ؟ » ويصرّ باستشهاده على سمو روحي ومقاومة وفداء

والضابط المصري ، ابن الإثنى عشر عاماً ، يخرج من قريته « المتاعي » التي سوف تحتل مهمته الأولى السطو على معسكر للفرنسيين وسرقة سلاح وتسليمه لرجال المقاومة الشعبية ، وعندما يقع بين الفرنسيين يرفض الإعتراف على مخرجه وشركائه ، ويقول لهم « إن الذي أمره بهذا العمل هو الله القدير على كل شيء » ؟ !

ولكن « نوبرت » ، في حربه الفكرية لغزو شخصية مصرية ، يتجاهل هذه المفاهيم التي عرفها المصريون بعقيدة القضاء والقدر ، ويحاول محاولات كثيرة ومستمرة كي يصور غزوه ومشروعات إعادة تطويره على أنها هي قضاء الله وقدره الذي لا بد من مقاومته بكل رفض وكل تسليم ، فيحاول بكل أساليبه من خلال « المعلم » الذي « يعرف » كيف يحاور الشاب ويقنعه قائلاً

« إنك تعلم ولا تعرف ، تعلم أكثر منكم ومع ذلك رفضكم أن يعلمكم ، إن الذي يخلصني من خصائص من صلاح عقله وفكره ، فلا يجب عليّ أن أخلصه بحياته التي في هذا العالم ، ولا يجوز لي أن يدين له بمعرفته ما يسره به

سبحانه وتعالى ، والعقل يعرف أن ما وعده به تقدير من الله تعالى وإرادته وقضائه ، فمن شك في ذلك فهو أحمق جاهل مغرور ، وقد علم الله سبحانه وتعالى في أزل هلاك عدوه الإسلام وتكسير جيوشه من الصليبيين ، فقدر في أزل أني أجيء من المغرب إلى أرض مصر هلاك الذين طغوا فيها وحكموا بالأمر الذي حرب به ، ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه . واعلموا أيضا معشر المسلمين أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع هذه الحوادث ، وأخبر في آيات أخرى بأن موعده في مستقبل الزمان وكلام الله في كتابه صدق وحق لا يتخلف . . . » .

(يشاركهم في وفاء النيل)

ثم أمر نابليون « بمصادرة مصر لقوته ، وشاهدها بعينه في الاحتفال « بوفاء النيل » ، وشارك بنفسه في الاحتفالات الدينية ، بل زاد عليها في هذا الاحتفال « فنصب خيمته بجانب خيام شيوخ البلد يوم الخميس ١٥ وفاء سنة ١٢٣٣ هـ ، وهو الاحتفال الذي قطعته سنتين وقصر عمره ، وكيف حرم نابليون » « الرقاب للدينار » وبعض العلماء على الإشراك في الاحتفال « وركب صحبتهم بموكبه وزيه وعساكره وضربوا له خيمة في قصر قصره بشاطئ النيل ، وكسروا حجر بحضورهم وغمسوا فيه الخليج » وبعضهم » ، حتى جرى الماء في الخليج ، وركب بعدهم في صحبته حتى رجع إلى داره . ولم أعلم لله تعالى يخرج منهم أحد تلك السنة لنشر في مراكب على بعدة سوى بعض شيوخ والنطط والأروام والإفرنج للتنزه بنسائهم ، وقليل من الناس البطالين » ؟ !

« ثم كانت وفاته المسجلة بين قدم وحدث بشعب بساتين في قتال بعض مقاتلين لفرنسيين الذين جاء بهم « بونابرت » إلى مصر ، فإن بعض الجنود الذين حضروه هذا الشعب بعد ما كانت بعض الجنود خلفه وهو بعض المسجلين وطلبه ، فلما دنى من الجسر الذي بمحل يعرف « بالمعلق » هجم عليه رجل من بين الجنود بوقفته ، فأصابت كل عناصر الاستعمار في صميم

أجمع ، والتي جاءت بصحبته إلى مصر ، بل على كل ذلك هنا في مصر ، وعلى ضفاف النيل .

ولقد كان السبيل الذي سلكته الشخصية المصرية إلى تحقيق الانتصار على هذا المخطط البونابرتي ، هو الصمود في وجه المحاولات لعروها والتأثير فيها ذلك الصمود الذي سلك فيه الشعب العديد من الطرق والكثير من الدروب .

(سقوط الأسطورة)

فعلى الرغم من أن الانتصارات غير العادية التي حققها « بونابرت » في أوروبا ، قبل مجيئه إلى مصر ، كانت كفيلة بتقديمه في صورة البطل الذي لا يقهر ، والقائد الذي لا يستعصي عليه منال ، وعلى الرغم من أن انتصاره في مصر ضد الجيش المملوكي ، وضد العثمانيين كان ساحقا ، على الرغم من كل ذلك فإن المقاومة الشعبية المسلحة قد قدمت العديد من الأدلة على إمكانية هزيمة الجندي الفرنسي والضابط الفرنسي المسلح جيدا وحديثا ، بل وقدمت الدليل على إمكانية هزيمة هذا الجيش العصري حتى عندما يكون قيامه تحت القيادة الشخصية والمباشرة لـ « بونابرت » نفسه .

وإذا كان ذلك لم يتمثل في معارك كثيرة ، ولا في لقاءات ذات أثر حاسم في إنهاء الاحتلال ، فإنه قد تمثل في تلك الثورات التي قام بها سكان القاهرة حيث كان « بونابرت » يعيش ، ويمارس القيادة اليومية والمباشرة ضد نشاط الثوار .

وحدث كذلك بطريق السخرية الشعبية والجماهيرية من ذلك القائد الذي دوخ العالم ودك العروش وأذل القادة والجيوش والملوك ، ففي إحدى جولاته المفاجئة ، وأثناء عودته من بيت الشيخ السادات ، أبصرته الجماهير ، فتجمعت من حوله ، وأخذوا في الصياح ، حتى اضطرب أمره ، وداخله الخوف من معية ذلك الجمهور ، ولم يكن بيد الناس سلاح يخافه ، بل لم تنطلق حناجرهم بشعارات الاحتجاج على احتلاله ، وإنما كتبوا بقراءة (الفاتحة) بصوت جهوري مسموع ؟ ! فارتجفت لذلك أعصاب القائد الكبير .

(لا تعايش مع الغازين)

وفي الوقت الذي لا تصدر فيه بكثير من الأشياء عن هزيمة العسكرية التي حدثت « بونابرت » مباشرة أثناء غزوه مصر ، فإن الجبرتي يعتقد اعتقادا عريضا وصريحا لا يتصور الإرادة المصرية أمام الغزوة ، فهي ترفض بأي كل محاولات لإيجاد أي نوع من أنواع التعايش بينها وبين الفرنسيين .

ويحكي الجبرتي كيف « ضرب الفرنسيون على عسكر بونابرتة » مثلا ، فهم سقطوا عنده ، بمجرد « بونابرتة » من الجنس ورجع وبنده فيستاك (أروت) مقوم ثلاثة أثواب ، كل فستان من ثلاثة عروض أبيض ، أحمر وكحلي ، فوضع وجه منه على كتف الشرقاوي ، فرمى به إلى الأرض واستعفى ، وتغير مزاجه ، وامتقع لونه واختل طبعه ؟ ! !

فقال لهم المترجم يعرفهم بدلالة الشرب وزي الفرنسيين « لا تشبهوا ، أنتم صرتم أشباه نصاري عسكر ، وهو يقصد تعميمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإن غيرتم بدلتكم لعسكرية وتجردتم وصرتم بلباسكم مزيته في قلوبهم » لم يعبأ العبيد ولقده بهذا النص وذلك الإغراء ، فأجابوه « بأن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا من المسلمين » ؟ !

(الإنتصار العظيم)

ولعل أحداً لو سأل أكثر الناس تفاؤلاً بالنصر ، يوم دخل بونابرت مصر في ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ م ، وهو يوم تلي ثروات حبته بن نصر ، هل سيتمكن هذا الشعب من تحديه على الرحيل بعد عام واحد وتسعة أيام ، في ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ م ؟ !

لعل أكثر الناس تفاؤلاً بالنصر يومئذ لم يكن يستطيع أن يجيب على هذا التساؤل بالإيجاب .

وبكل روح الشعب العظيم ، ومقاومته الإيجابية العظيمة ، هو الذي جعلت القدر الأسطوري الذي ذهب العالم ، والذي جعل النصر طويلا شرقه يترنح على عرشه ، والذي قال « إن من قد تجهت إلى الشرق ، وسهوى

فتوحاته العظيمة ، وصرفني عن التفكير في أوروبا » ، إن روح الشعب ومقوماته قد دفنت كل هذه الأمان والمشاريع والأحلام ، وجعلت « بونابرت » يفر من مصر بليل ، بل ويعترف بأن على رأس أسباب رحيله « إلى بلاد الفرنساوية » هو « لأجل راحة أهل مصر » الذين قرروا أن لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار ، ولا تستريح لهم نفس حتى يرحل هو وجيشه عن البلاد .

ولم تكن كراهية المصريين « لبونابرت » واحتلاله ، يعني حبهم للنظم المملوكية العثمانية القديمة ، فحتى الفرنسيين أنفسهم قد أدركوا وسجلوا « أن المصريين يمقتون حكم المماليك ، ويرهبون نير الأسبانة ، ولا يحبون حكمها ولكنهم لا يطيقون حكمنا ، ولا يصبرون عليه إلا بأمل التخلص منه »

معركة رشيد

[١٢٢٢ هـ ١٨٠٧ م]

رسم للشيخ عبد الرحمن الجبرتي

لأن لصراع قديم ومرير بين حضارة الشرق وأطماع الغرب الاستعماري ، بدت صفحاته في التاريخ كالموجات ، تمتد حتى تبحر في كثير من الأحيان

فالإسكندر الأكبر يزحف على الشرق ، ليعمم إمبراطورية الروماني على أنقاض حرية شعوبه ، ونفوذ الفارسيين ثم ينهض الشرق مرتدا ثوب الإسلام ، متسلحا بأسلحته المادية والروحية ، كي يحرر الأرض من الرومان والبرنطيين ثم تأتي موجة الصليبيين في العصور الوسطى لتسلب من جديد ما استرده العرب والمسلمون وبعد نحو قرنين من الزمان يتصدى لهم صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس وقلاوون وبنوه ليجهزوا على كل أحلام الغزاة الصليبيين ثم يأتي العصر الحديث ، فتبدأ الفصلة من جديد سالمون يتقمص شخصية الإسكندر ويحلم بتعمير طوريته الشرقية ، فيفتح للغرب باب الاستعمار الحديث ، ليدخل منه الإنجليز وكل الطامعين . حتى أسماء الحركة الصهيونية العنصرية الذين يحاولون في القرن العشرين إعادة الروح إلى تكيان الصليبي العنصري الغرب في قلب الوطن العربي ، على أرض فلسطين وهم في حولتهم هذه حديثة ، يحبون أنفسهم بالنجاح فيما فشل أسلافهم الغزاة منذ أقدم العصور

(دائماً يخطئون الحساب)

وكثير من الناس يتساءلون : كيف تأتى لهذا الشرق أن يخرج ظافراً من كل المعارك في هذا الصراع الطويل ؟ ؟ وكيف صمدت عناصره الوطنية الأصيلة واستعصت على الذوبان والإبادة والانقراض ؟ ؟ وكيف تحدت مقوماته الحضارية مكان العامل المؤثر ، حتى في الغزاة ، بدلاً من أن تنهار وتخلى مكانها لمقومات المستعمرين ؟ ؟

كيف لم يحدث ذلك ، ولا شيء منه ، على الرغم من أن هؤلاء الغزاة قد سعوا إليه ، واستهدفوه ، وأعلنوا أنهم قاب قوسين أو أدنى من النجاح في تحقيقه في كل مرة وطئت فيها أقدامهم أرض هذه البلاد .

ونحن نعتقد أن السر الأكبر وراء فشل المستعمرين والغزاة هذا ، كان ولا يزال كامناً في عجزهم عن فهم الروح الصالحة السارية في أوصال هذه المنطقة سريان الحياة ، ونسيانهم أو تناسيهم أن غزوهم واستعمارهم للبلاد إنما أسهم ويسهم في شحذ الهمم ونفض الغبار عن عناصر الأصالة في هذه الأمة ، وإذكاء النيران التي خيل إليهم أنها قد خمدت بفعل المظالم أو الفقر أو التناقضات التي تعيش فيها هذه البلاد .

* * *

ففي مطلع القرن الماضي ، وبعد أن كسب الشعب العربي في مصر جولته ضد حملة نابليون ، خيل للإنجليز أن حظهم في هذا الميدان سيكون أسعد من حظ الفرنسيين . وعندما اضطرت قواتهم التي جاءت إلى مصر كي تساهم مع العثمانيين في إجلاء جيوش نابليون عندما اضطرت جيوش الإنجليز هذه إلى الجلاء ، ومغادرة الإسكندرية في ٣٠ يناير سنة ١٨٠٣ م ، اصطحبت معها كبير الأمراء المماليك في ذلك الحين « الألفي بك » ، وظل في انجلترا وقتاً طويلاً يعد معهم ويعدون معه الخطة للسيطرة على البلاد . وذلك ظناً منهم أن فشل نابليون قد جاء بسبب افتقاره إلى حرب من داخل البلاد تمنحه المساندة والتأييد ، وأن اعتماد إنجلترا على المماليك سيمهد لهم السبيل لنجاح الإحتلال .

ودرس حر بعصبة لإنجلترا من قبل نابليون ، وبدأت بينهما تلك سيحققون نجاح الذي لم يستطع تحقيقه نابليون . فبقد حتل نابليون ، وفي مدينتها الفاخرة ، وبشرت جنوده بالأقاليم ، وخالطوا بعضهم بعضي ، ومن ثم تعرض جنده لمخاطر « الكتلة السكانية » ، وجاءت بالحصبة إلى وجه قبيح بالثورات بشعبه ، والأسوأ بسببه وبدأته بعض جنوده ، كل بعضه وبث قرر الإنجليز بحملتهم التي هدفت الحيلولة دون « مالك بي فريزر » والتي وصلت سفنهم إلى الإسكندرية في ١٦ مارس سنة ١٨٠٧ م ، ث بتحشوا ذلك باحتلالهم مراكز مؤثرة في حياة البلاد ، وفي ذات الوقت بعيدة عن « الكتلة السكانية » الأهلية ، حتى تظل قنوات المرور التي تربط بين « ٥١٠٠ » مقاتل ميزة التجمع والتمركز ، فلا تتعرض لمثل ما تعرض له جنوده .

وكانت الإسكندرية يومئذ ولاية مستقلة عن مصر تتبع مباشرة عثمانلي مقره ، ولا تتبع بالتبعية حاكمه في القاهرة الذي كان يمثلها محمد علي باشا في ذلك الحين . كما كانت تعود « رشيد » و « دمياط » تابعة تتبعية مباشرة للعثمانيين . وبذلك قرر الإنجليز على أن يكون احتلالهم - في بداية الأمر - مركز لقيادة عن جنود مصريين وحكومة القاهرة ، وجاء في التعليمات التي وجهت إلى قوتهم في شرق البحر المتوسط أوائل سنة ١٨٠٧ م أن الهدف ليس احتلال البلاد ، وإنما تحديد مراكز مؤثرة ، وخاصة الإسكندرية ، وذلك لإعطاء الباشا وحكومته الاحترام الكامل لدى بريطانيا العظمى « رغبة صادقة في أن تكون لهم علاقات ودية في كل الأوقات مع بريطانيا العظمى » [1]

وعندما كان الإنجليز يخططون لتحتل جنودهم مصر في البلاد ، لم تكن حتى بداية المرحلة الأولى من عصر محمد علي المصري ، يخلو من حملة العثمانيين الذين كانوا يعيشون في مصر ، من الأتراك ، والأرناؤط ، وغيرهم من الأجناس الذين كانوا يكونون طبقة الذين يسيطرون على

---

(١) د . محمد فؤاد شكري [مصر في القرن التاسع عشر] جـ ٢ ص ٥٩٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م

بعدهم ـ لا يحسبون التقدير الحقيقي لدور هذا العنصر الوطني في تحطيم كل الموجات الغازية التي جاء بها الأعداء إلى أرض هذه البلاد ... كانوا يزعمون أن هذا الشعب سلبي ، غير محارب ، لا يفكر إلا في الخلاص من حكامه الظلمة الطغاة ، وأنه ينتظر الأجنبي دائماً ليخلصه من هؤلاء الحكام ، ثم يسلم له الزمام ..

وفي تقرير بعث به أحد الوكلاء الإنجليز من القاهرة إلى « السير الكسندريون » في ١٣ ديسمبر سنة ١٨٠٤ م ، ويقول : « إن مصر في حاجة شديدة إلى سيد جديد ... وإن أول القادمين سوف يلقى ترحيباً ، وإن الأحزاب المناضلة (المتناحرة) فيما بينها سوف تلتف حول « العلم الأجنبي » ، وتتوق الملاحون للحماية الأجنبية تبسط عليهم لتمنع عسف الحكام بهم ... وإن قوة أجنبية صغيرة سوف تكفي للاستيلاء على مصر وعلى حكومتها »

وقبيل وصول سفن الحملة الإنجليزية إلى البلاد ، أخذت تقارير قنصلهم في الإسكندرية « مسيت » تتوالى إلى رؤسائه في لندن ، وإلى « الجنرال فريزر » ، حاملة مثل هذه العبارات : « إن السكان يميلون إلى الإنجليز بدرجة طيبة ... إن الأهلين يرغبون من زمن طويل في أن يحتل الجنود البريطانيون بلادهم ، وهم لن يقاوموهم ... لقد قلت ، ولا أتردد في تكرار القول بأن سكان مصر أصدقاء للإنجليز ، وأنهم يتوقون للتحرر من نير الأتراك والأرنؤود »[٢].

(الأتراك يستسلمون)

ولقد زاد من اطمئنان الإنجليز إلى هذا الوهم ، الذي توهموه وعاشوا عليه ، انهيار الجند العثماني بعد وصول الحملة الإنجليزية إلى الإسكندرية ... فحاكم المدينة العثماني « أمين آغا » وكبار التجار والأعيان قد سلموا المدينة للإنجليز ، ووقعوا شروط التسليم في ٢٠ مارس سنة ١٨٠٧ م ، بعد مناوشات

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٥٩٠

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٠٢ ، ٦٠١ ، ٧١٣

شكلية وتدهية م بدهب صحبته من لأتر ك سوى ثلاثه وعشرين جندي ، ومن الإنجليز سوى ستة من القنص وثمانية أصيبو بجرح وكانت حظة لإستسلام معدة سلفاً ، بدليل أن « مسيت » قد كتب إلى رئسه « وبدهم » في ٢٩ فبراير ، أي قبل شهر من وصول حملة ، يقول « إن حاكم لإسكندريه وكبار علماء ب قد أكدوا لي تأكيداً قوياً أنه لن يتعرض لي أحد بشيء مهما تكن لظروف والأحوال . . »[1] .

أما سلاح القوات لتركيه لتي كانت تضم في لقاهرة بمجرد وصول أخبار ستسلام الإسكندرية ، فإن خرق بصورة أدق تصوير عندما يقول إنه « لم شع أحد الإنجليز بالإسكندريه ، دخل لعسكر ونيس وهم عظيم ، وعزم أكثر لعسكر على لسفر إلى جهة الشام ، وشرعوا في قضاء أشغالهم واستخلاص أموالهم التي أعطوها للمصايفين والمستقرضين بالربا ، وبذال ما بأيديهم من لدراهم والقروش و « الفرنسه » التي يثقل حملها و « المحبوب الورق » لخفة حملها ، ثم سعوا في مشترى أدوات لارتحال والأمور لسلامة سفر لبر ، وفرق لكثير منهم نساء وسافروا من عندهم من بقرش و لأمتعة »[2] (الجبرتي جـ ٤ ص ٥٤ طبعة بولاق) ويفسر « يوسف عزيز » لذي كان يعمل ترجماناً لقنصلية لإنجليزية بالقاهرة عند جلاء لمرتزقة لأتراك لذين تركوا سلاحهم بوشيد بألف وخمسمائة جندي ، ويقول « وقد أخفى هؤلاء أنفسهم في بيوت المدينه في لأحياء لأكثر عزلة عن عيون ولم يجرؤوا على الظهور إلا بعد وصول لأسرى الإنجليز إلى لقاهرة » عندما انتصر عليهم الشعب في « رشيد »[3] .

أما لذين لم يلقوا السلاح ويختفوا في بيوت من جنود لأتراك ، فقد تجمعوا من لجنة وسيئة لشراء وزيادة لمعلم لواقعه على كهل المواطنين ، فكانوا يجمعون الإعانات والتبرعات ، ويخرجون « بالطس و لبرمر و لبيارق » « وبدهب جميع إلى بولاق ، يوهمون أنهم مسافرون (بالقفل) على قدم الاستعجال بهمة

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٢ ص ٦٠٦ ، ٦٠١

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٢٠

ونشاط واجتهاد ، فإذا وصلوا إلى « بولاق » ، تفرقوا ، ويرجع الكثير منهم ، [illegible] الناس في [illegible] ومن [illegible] بالفعل ، ذهب فريق منهم إلى [illegible] ، وفريق إلى [illegible] ، ليجمعوا في [illegible] من أهل البلاد والقرى [illegible] « [illegible] » ، [illegible] ، [illegible] ، [illegible] ، [illegible] ، [illegible] » [illegible] وكما يقول [illegible] « [illegible] يفعل المجاهدون ؟! »[1]

[illegible] السلطان [illegible] ، أمير المؤمنين وخليفة المسلمين [illegible] ، فقد كتبني [illegible] في ٦ ربيع [illegible] سنة ١٢٢٣ هـ [illegible] فيه « [illegible] ورود [illegible] الأربع عشرة قطعة من [illegible] الإسكندرية ، [illegible] ، حتى [illegible] ، [illegible] لإهتمام خروج العساكر [illegible] « [illegible] سليمان باشا [illegible] « صيدا » وإلى يوسف باشا والي « [illegible] » بتوجيه العساكر إلى مصر للمساعدة »[2]

[illegible] الذي أصدر [illegible] السلطان هذا المرسوم يأتي بعد ثلاثة أشهر من [illegible] الشعب المصري [illegible] الإنجليزية في رشيد ؟ ، [illegible] من مصر [illegible] « الأستانة » في ٢٦ [illegible] « [illegible] الإنجليز في المعارك » [illegible] ؟ ! » [illegible] الأتراك ! ! .

(والمماليك يخونون)

[illegible] المماليك ، [illegible] موقفهم موقف الخيانة الصريحة [illegible] فهم كانوا يعتبرون معركتهم أساسا ضد محمد علي باشا ونظام حكمه

---

(١) الجبرتي [عجائب الآثار] جـ ٤ ص ٥١ ، ٥٢

(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٩

الجديد ... ويعدون مشروع لإنجلترا بغزو بلاد مشارقهم هم ... في شهر « لأبي بك » في مدن سوت يشرف على الإعداد له ... حتى ... جمع قد جمع جيشاً مملوك يزيد على تعداد جنود حملة « فورو » ... يطلق في مدونة « ... » يتطر قدوم حملة الإنصاف إليهم ... وكل يوم ... عنه قبل مجيء ... لأربعين يوماً في مدينة الجزيرة ... ويحكي خبرين كيف « حضر الأحد ... ذلك إلى الإسكندرية ... فوجدوه قد مات ... ثم يسعهم الرجوع ... في أمره ... قسمين (مملوك بصعيد) ... يستدعونهم يكونوا مساعدين لهم على عدوهم ... ويقولون لهم ... جئنا بلادكم نستدعيه « لأبي » مساعدتكم ... فوجدنا لأبي قد مات ... وهو شخص واحد منكم ... وأنتم جمع ... فلا يكون عندكم تأخير في حضور بقضاء سعيكم ... فإنكم لا تدرون فرصة بعد فرصة ... وتندمون بعد ذلك إن تكاسلتم »[1] .

وسحب مماليك بلاد على الجيزة ... وبكلهم عجزوا عن إسعاد الأحباب في نصرة فوت لاحتلال ... وتوجس خيفة من سعيهم بأن هم شروا بقوتهم في قراه من بصعيد حتى الإسكندرية ... بعد ... عنه ... تطاهم مع بعده فأعطوا ولاءهم للمحتل ... وتسمى منه خلال مدينة « رشيد » حتى يفتش قلبهم ... ويعلو صوتهم ... ويجرؤوا على مقاومته والانضمام حركة « شاهين بك الألفي » إلى « صديقه محترم ... » ... « ... » تحتل بر بصعيد ... يقول : « إن سائر البكوت عظم فرحهم ... وبخاصة عندما عرفوا ... بقدوم لعظمى قد أعلنت حرباً على ... تعالى من أجل إعادة السلام وإنهاء ويرجع الحكومة المملوكية في مصر « ... » ... في تعلق شخصي فيما حدث ... معتقد ... ولك أن تؤكد هذا لكل من يهمهم الأمر ... بأني اعتبر الأمة الإنجليزية لصديق الوحيد لي ... وهي حميتي الوحيدة كذلك ... ولن أعترف بسواها صديقاً وحامياً لي ... وسوف يكون طبيعياً إذ تبغي سقوط رشيد أن استخلص من ذلك أن الخطوط الإنجليز صاروا فريسة ... وسوف يسرع

---

(١) المصدر السابق ... جـ ٤ ص ٤٦

للإنضمام إليهم ... وأرجو أن تبلغني سريعاً خبر تسليم رشيد ، لأنه كلما تأجل سقوطها أتيحت للعدو فرصة أكبر لتحصين وتقوية نفسه »[1]

أما إبراهيم بك فإنه يكتب إلى الجنرال « فريزر » في ٢١ أبريل سنة ١٨٠٧ م ، معتذراً عن عدم الإنضمام الفوري إلى قوات الحملة خوفاً من العائلات المملوكية من انتقام « العدو » ، ويعد ، قائلاً : « وعندما تستولي أنت على رشيد ، سوف تأتي - إذا وافقت على ذلك - إلى المشرق من القاهرة ، بينما ترجف أنت على شاطىء النيل الغربي للإنضمام إلينا ، وترسل إلينا عند وصولك إلى جيزة ما يفيد ذلك ، فنحضر نحن لمقابلتك في يوم يصير تحديده عند « منابه » ... وهناك تتحد قواتنا معكم ضد العدو ... ونسأل المولى تعالى بفضل مساعدتكم أن ينال النصر على أعدائنا »[2] .

ولقد فتحت خيانة المماليك هذه ثغرة كبيرة في جدار الصمود الشعبي ، ولم تحرم الشعب فقط من جند المماليك ، وإنما حجبت محمد علي وقواته عن مواجهة الغزو الإنجليزي ، إذ وقف متربصاً بالمماليك ، يخشاهم إن هو شارك في مقاومة الغزاة ... بل وأكثر من ذلك وأهم ، أدت خيانة المماليك إلى سيادة السلبية واللامبالاة في بعض الأوساط ذات النفوذ الشعبي الكبير في ذلك الحين ، تلك الأوساط التي كانت تؤيد المماليك ضد محمد علي ، فاتخذت موقفاً سلبياً في البداية من الإنجليز أنصار المماليك وأعداء محمد علي ... وكان موقفها السلبي هذا مساهمة إيجابية انضمت إلى العوامل التي رجحت كفة انتصار الإنجليز

ففي ٢٨ مارس سنة ١٨٠٧ م ، أي قبل معركة « رشيد » الأولى بأربعة أيام ، يكتب القنصل الفرنسي « دروفتي » الذي اشترك في المقاومة والتحريض على القتال بحكم تناقض مصالح دولته مع إنجلترا ، يكتب عن موقف عمر مكرم ، ويتحدث عن عدم حماسة مقاومة الإنجليز أصدقاء أصدقائه المماليك ، ويقول : أنه « لا مجال للشك في أن هذا المهيج الشعبي المقتدر قد انحاز إلى

(١) [مصر في القرن التاسع عشر] جـ ٢ ص ٦٢٨ ، ٦٨١ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ .
(٢) المرجع السابق ، جـ ٢ ص ٦٨٧ ، ٦٨٨

الإنجليز ، وكسبه هؤلاء إلى جانبهم ، وأنه أراد لعثور على وسيلة تأمن له على سلامة نفسه ، الأمر الذي يفسر مسلكه في هذه اللحظة ، وهو مسلك يكاد يكون طابعه عدم الإهتمام التام »[1].

وبسبب حسن كريت ، نقيب الأشراف في « رشيد » ، ورحل السيد عمر مكرم ، يقف من فوات الحملة موقف الملاطفة ، فلا يتحمس لمقاومة وفي اللحظات الأولى يدعون الإنجليز إلى مدينة ، يبعث برسول من قبله إلى القيادة الإنجليزية ، يطلب منها أن تعين له من جنودها « حرس شرف » لحراسته[2].

ويقتدي به بعض أثرياء المدينة فطلبوا من الإنجليز حمايتهم وأنفسهم على ثرواتهم ومصالحهم وهؤلاء الأثرياء هم الذين سبق وتذمروا ضد حكومة محمد علي سنة ١٨٠٥ م عندما فرضت عليهم ضرائب قيمتها ٤٠,٠٠٠ ريال ، ووقف معهم في ذلك التذمر السيد عمر مكرم[3]

ولكن موقف التهوين هذا ، لم يكن هو الطابع العام لموقف القيادات الفكرية والدينية في ذلك الحين فلقد سجل لنا الجبرتي موقف المشايخ الذين أدركوا ضرورة وحدة كل عناصر الأمة ضد الغزاة ، فسعوا لتوحيد قوى البلاد ، بما فيها المماليك ومحمد علي ، ودعوا يقاومون المماليك في ذلك ، وعندما قال المماليك لهم « إن الإنجليز أتوا يستدعاء الألفي لنصرتنا ومساعدتنا » . قال لهم المشايخ « لا تصدقوا أقوالهم في ذلك ، وإذا تمكنوا للبلاد لا يبقوا على أحد من المسلمين وحالهم ليس كحال الفرنساوية لا يتدينون بدين ويقولون بالحرية والمساواة ، وأما هؤلاء الإنكليز فإنهم نصارى على دينهم ، ولا تخفى عداوة الأديان ، ولا يصح ولا ينبغي منكم الانتصار بالكفار على المسلمين ، ولا الإلتجاء إليهم »[4] فكانوا يدلون الوجه المشرق لصمود الشعب حتى من قبل أن ينتصر في معركة « رشيد »

---

(١) المرجع السابق ، جـ٢ ص ٦١٩

(٢) د . محمد عمارة [العروبة في العصر الحديث] ص ١٢٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م

(٣) [عجائب الآثار] جـ ٤ ص ٤٩ .

(وسلطة محمد علي تنهار)

م تنجح جهود محمد علي ولا تنجح في جعل المماليك يحتمون عن «لأنهم حمية قريرة» ، لأمر الذي كان يسبح محمد علي وقوته التي كانت تحارب مماليك في صعيد لم تشارك في صد قوات بعثة ، ولم يكن محمد علي قد جرى بعد بناء معسكرات لإدارته ولعسكريته التي يعتمد فيها على العنصر يوصي ، فأخذ في عدد من مناصب وتدرب في جهاز دولته مدنية جديدة ، ولا كان بعد جيش يوصي مصري على نقيض قوصي محمد مزيجة من أخلاط شعوب عثمانية لم يكن شيء من ذلك قد حدث بعد ، ولذلك قبل جهاز الدولة والمسطة والعسكر لأرنؤوديه التي كان يعتمد عليها حكمه قد هب هي لأخرى تجرد أن حتى لإنكليز لإسكندرية ، كي حدث معسكر العثمانية لأتراك . .

ويصور خبرى سهير جهاز دولته في « دمهور » عاصمة بحيره ، وكيف بدأ شعب جهود حثيثة كي تتسلل هذه بسطة وتخوض معركة بن حياة ذهني ، ولكن دون جدوى ، فيذكر أنه قد ورد بن نعيب لأشراف السيد عمر مكرم » مكتوب من أهالي دمهور مضمونه أنه لما دخلت لمراكب لإنكليزيه بلي لاسكندريه هرب من كان بها من عسكر ، وحضروا بلي دمهور ، فعندما شاهدهم « بكاشف » (حاكم) لمركز بدمهور وبن معه من عسكر ، انزعجوا انزعاجا شديدا ، وعزموا على خروج من دمهور ، فخاطبهم كبراء بلدة قائلين لهم كيف تتركون وتذهبوا ، وهم سوا ما حلاك ، وقد كنتم تقدم من حروب « لأنجي » من أعظم مساعدين لكم ، فكيف لا تساعدون لآن تعضدوا بعضكم في حروب لإنكليز ؟ ! فلم يستمعوا بقولهم ، بشدة ما دخلهم من خوف ، وعزموا مساعيهم ، وخرج بكاشف بنفسه وخيمته وبقية بعسكر ، وعندي وذهب إلى « فوه » من بيته ، ثم أرسل بقي بقية من أحد الأثقال فهذا ما حصل أخبرناكم به »[1] .

وهكذا بكل حال جهاز سلطة بالقاهرة يحس منه في دمهور فرعم

(١) المصدر نفسه جـ٤ ص ٤٦ ، ٤٧

تعيينات محمد علي في رحلاته دونما بالإسعداد لغزو الإسكندرية، لأنهم قد
عدوا هذا الأمر وسيلة مريحة من الأثرياء ونسبت ولهبت جميع الأموال. فكان
«حسن باشا» مثلا، يخرج كل يوم في صورة مذهب للقاهرة «ورجع في دوره
من النهار، فسلب منها، ثم يخرج في الصباح وعسكره وبيشه يتسلون
بسلب الناس، يعيثون ويخطفون ومع ذلك فعساكر الألبان هي ولاة
وفي كل يوم يشعلون النار في جهة بحجة محاربة الإنكليز»(١).

ما يدين عدد وتذهره فعلا من هؤلاء اللصوص، فهم مستعدون
لاقتلهم سلبهم، «شوربجي عسكر» يرى في نفسه وفي مكنته
وقدرته على السلب والنهب والحرق، كيف يشاء، حتى وصل
إلى منزله. وكذلك «طاهر باشا» الذي سخر في أثره، و«إسماعيل كاشف»
المعروف «بالصوباجي» فرض على البلاد جورا وشرا وعلى ذلك
وقصى حسرتي يفتش عن هؤلاء «المحاربين» «بل حتى فاعتبرهم
سوريون لاستلام مهمته من البلاد، وبرموزهم بعنفهم وكبتهم. ثم يضيفون
أثناء مصادفة، مما يضاف إلى ذلك من حق طرق المعتبر: «على
ذلك»(٢)؟!.

هذه كانت حال الحملة الفرنسية بقيادة، ورجال حاشيته بعضهم في
مصر، منهم بعض الإنكليز الذين سبقوا، وذلك بالإضافة إلى حملته
الصريحة للممالك.

(الشعب يقاوم وظهره للحائط !)

وعندما أبصر الإنكليز مهددة مؤسساتهم العثمانية، بعسكريته وإدارته،
وأيقنوا من ولاء المماليك، شرعوا في تغيير مخططهم القديم الذي قضى فيه
هدفهم هو احتلال الإسكندرية فقط مساعدة المماليك. فقد بيت صنوعهم
احتلال «رشيد» حتى يستطيعوا الثقة بالجناح ويضمنوا تقدمهم إلى جسر
بحري والقضاء الإنكليزي «مستر» جد بعثة من «فرير» احتلال

(١) المصدر السابق، جـ٤ ص ٤٥
(٢) المصدر السابق، جـ٤ ص ٤٧

« رشيد » و« برحمانية » بحجة صمان حصول جيش على نصوص ، « جلال « دمياط » مع بروز الجنود لأثر ش به وكتب « فرير » إلى رؤسائه تصف الموقفة على احتلال « القاهرة » تساعده مماليك له من كبو به يجندون «امشة» مكاناً للقاء قبل دخولهم معاً إلى القاهرة.

وتفعل بدأ لإنكليز حصب هم من جهة خسوب جون « بو مندور » في ٢٠ مارس سنة ١٨٠٧ م بقوات تعدادها ١٤٠٠ جندي يقودها خسرو « ووكوب » ويساعده لبريجدير « عبد » وفي حسابهم أن الطريق أمامهم سهل معبّد ، إذ ليس في هذه المدينة سوى ٢٥٠ جندي ، تضم بينهم مثيهم ، بتسيح ردي، وروح معنوية هابطة ، وبين من ورائهم وضع سياسي و عسكري يبعث على الثقة أو يدعو إلى المقاومة والصمود وكانت حسابات لإنكليز حتى ذلك حين أن الشعب في شوق لانتصار قوات الإحتلال !؟ ولكنهم كانوا على موعد مع درس من دروس تاريخية كبرى تي تقف هذ الشعب للغزاة والفاتحين عبر التاريخ .

(رشيد في المعركة الأولى)

فجر يوم الثلاثاء ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ م (محرم سنة ١٢٢٢ هـ) بدأ لإنجليز هجومهم على المدينة ، بعد أن قسموا قواتهم إلى ثلاثة طوابير تهاجم من ثلاثة جهات من بحيرة الخليج وبساتين على شاطىء النيل ومن لوسط ومن الميسرة وكان التصور لأول قوحي، بأن الجيش لم يجد أحداً يقف عليه ، لا من القوات المخصصة للمدينة فقط ، وإنما من « الأهالي » لذي اتخذوا مواقعهم في الأحراش على يساره ، ومن الفلاحين الذين جمعوا على عجل، لآخر نهار لنيل، وقد انتهت هذه الفلاحة بدورها إلى قوات هذا لتصور !؟ وعندما تمكن جنود « ووكوب » الذي قاد التصور الثاني ، من دخول المدينة من إحدى ثغراتها بدون قاومة تذكر تقدموا بعد خروج قائده لبريجدير « عبد » وحين استطاع الإنجليز أن ينجح قد جسهم ، في الوقت الذي كان شعب المدينة يعتقد أن المعركة الحقيقية لم تبدأ بعد وفي

ساعة من الزمن انضم الجنود المطاميون الى قوات الشعب المسلحة داخل الدور والبيوت ، والتحموا بهم في صف واحد لينهالوا الرصاص على الانجليز من كل مكان . وفي خطاب نحو الجيش الذي كان يعد للاحتفال بالانتصار إلى حيث من القلعة والخرجي ، ويقدا تجاهد للفرار ، والشعب في أثرهم يضيق عليهم سبل النجاة . وأحصى الانجليز خسائرهم في هذا اليوم فبلغت أكثر من خمسمائة ما بين قتيل وجريح وأسير ، من بينهم قائد المعركة الجنرال « ووكوب » الذي قتل برصاصة في قلب مصري ، شعل بعزة النار في الدور التي تحصن فيها . وقد تم هذا النصر بتصدر « أهل البلد » ومن معهم من العساكر « البدين كالبو » المسهرين والمستعدين بالأرقه والنعف وصيقل السيوف كما يقول الجبرتي أصدق مؤرخي ذلك العصر[1] .

وحاول « فريزر » في تقريره الذي كتبه لوزير حربيته عن هذه المعركة في ٦ يونيو أن يقلل من شأن ما حدث ، وأن يرجع هزيمتهم إلى عدم استكشافهم موقع المدينة قبل دخولها ، ولكنه أشار إلى حقيقة هامة عندما تحدث عن أسباب صمود المقاومة ضدهم ، وكيف أن سبب هذا الصمود كان في تحت الضوء المكشوف ، وللجوء إلى أساليب أخرى في القتال تفيد المقاومة وتشل فعالية تفوق الإنكليز ، فتحدث كيف تصور الأمر بأن أصبح الجنود الانكليز « تحت رحمة العدو ومنصرته ، وهو عدو لا تخشى بأسه عند الالتحام معه في ميدان مكشوف ، ولكنه يصبح منعت أحضر حسيمة للغاية إذا هو جم في موضع يشد منه يقينا ، ويتلاءم تماما مع أساليب قتاله ، كالبيت الوضع الذي وجد فيه . . »[2]

ولقد حسم هذا الانتصار الشعبي موقف الصالح المقاومة ضد كل عوامل التهديد والقوى التي تحدث موقف الفرقة والاستسلام ، كما تشبث في القاهرة ومدن الأقاليم وقرى حركة التطوع والاستعداد للمعركة القاصمة التي

---

(١) [عجائب الآثار] جـ ٤ ص ٤٧

(٢) [مصر في القرن التاسع عشر] جـ ٢ ص ٦٤٨

أخذ العدو يعد له لتجهيز حملته الثانية على « رشيد » .

● فالسير حسن كريت ، نقيب أشراف رشيد ، تحول إلى صف مقاومته ، وعلى رأسه وقيادته في الاستعداد لمعركته . وبعث إلى سنبل حاكم دمنهور رسالة تطلب نجدة وتساعده في مقاومة الحصار المفروض على المدينة

● وفي ٥ يوليو ، بعد أن وصل الأسرى الإنكليز ورؤساء قبائلهم إلى دمنهور بدأ عمر مكرم في الدعوة إلى عقد مجلس عام لتجهيز متطوعين للسلاح ، فنبه على الناس وأمرهم بتحصيل السلاح « وذهب للجهد في الإنكسر حتى محاوري الأزهر ، وأمرهم بترك حضور الدروس وكذلك أمر مشايخ الجوامع بترك إلقاء الدروس »[1] .

● وكانت ثقة الشعب وزعمائه وعلمائه قامت في القاهرة لجنة وطنية لتحصين المدينة . وتجهيز الدفاع عنها والإشراف على التطوع والسفر مساعدة « رشيد » . . وكما يقول الجبرتي انه « حصلت جمعية ببيت القاضي ، وحضر حسن باشا ، وعمر بيك ، والدفتردار ، وكتخداياتك ، والسيد عمر النقيب ، والشيخ الشرقاوي ، والشيخ الأمير ، وباقي المشايخ فتكلموا في شأن حادثة الإنكسر ، والاستعداد لحربهم وقتالهم وصدهم ويجب أن يكون الناس والعسكر على حال إلفة والشفقة والإتحاد ، وأن يمنع العساكر عن التعرض للناس بالإيذاء كما هو شأنهم ، وأن يساعدوا بعضهم بعضا على دفع العدو ، ثم تشاوروا في تحصين المدينة وحفر خنادق »[2] وبعد تحويل هذه المقاومة إلى حملة وطنية شعبية حقيقية تقود بعض مقاومة والاستعداد بالإحتمالات وفي عهد محمد علي الذي كان لا يرى إلا بعينه ، وفي ظل قصور جهاز دولته ومساهمات بكلاهته وبشكيته برجالات دولته ، بعد هذه الملحمة الشعبية الفذة لشعب مصر في « جمعية بيت القاضي » في ٧ يوليو الشاهد في حفر

---

(١) [عجائب الآثار] جـ ٤ ص ٢٠

(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ٤٨

حسنين ... ورغم خبرته في قيادة الجيش وأهل البوغاز وحنكته ... بعد وقت حرف وتردد ... وجمع من البعض خزينة تحتوي على بعض أجرة خمسين ، وعشرين ، وكسبت من بولاق ، ومصر ذوي مكس ، ومصري لأروام ، وشوام ، ولاقاط ... وشتره ... بعض والمؤوس والقرم والات الحفر .. وشرعوا في بناء حائط مستدير أسفل ... قلعة مسبعة[1] ... وفي لجوء إلى التمويل الشعبي لأعمال المقاومة هذه، وأيضا في تحمل الطوائف المختلفة للمحنة المحتمة نصيبها في قدم المساواة مع المسلمين في أعمال مقاومة دلالات هامة في طبيعة ومضمون هذا العمل الشعبي الكبير.

● وحدث هذا الموقف المشرف مساعده رشيد في فترة تعتبر من أخطر فترات تاريخ مصر الحديث حيث حكم الإنكشارية من جهة، وحصار المماليك بقيادة خسرو الذي انضم إليهم من مختلف الطوائف المصرية والعربية من الغربية، وترك حاكم الجيزي، وكثير من العدوية، والأسيوطية، وأولاد أيوب، حتى اجتمع في رشيد منهم ... نحو الكثير من أهالي بلاد البحيرة، وغيرهم، وأهالي رشيد، ومن معهم من المطوعة، والعساكر، وأهل دمنهور[2] ... بحيرة، وغيرهم.

● في خلال حكم محمد علي لديه مهمة عسكرية حتى الإنكشارية الإسكندرية، وفرزه، من أجل حكم دمنهور، فقد حاول حاكم مصر العثماني "أولي برشيد"، فذهب حتى (كاشف) دمنهور من ... سعيد ... بشارة، فحاصره فدفع بعض شيوخ، وجمع كثير من سعيد الواصلين، وأسرع المشرون تبع المماليك، وهم جوسة لأبرك ... يسعى في بيوت لأعيان يشروهم ويأخذون منهم المقاشيش والخلع»[3]. تماسة المصر الذي لم يجرؤه ؟ !

● بعد خمسة أيام من تعيين «جمعة بيت مقاصي» ... محمد علي في

---

(١) المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٠

(٢) المصدر السابق، جـ ٤ ص ٥٢، ٥٣

(٣) المصدر السابق جـ ٤ ص ٤٧

القاهرة ، ووجد القيادة الوطنية الشعبية تنهض بعبء الإستعداد للمقاومة والقتال . فتوجس خيفة من هذا التحرك الشعبي الكبير ، وحاول عزل العنصر الشعبي عن المعركة وقصر أعمالها على الجند النظاميين ، فعقد اجتماعاً في داره ، وطلب من كتخدائيك وحسن باشا خروج للحرب ، وظهر اتجاهان في هذا الاجتماع ، اتجاه ممثلي الشعب الذين قالوا له : إننا نخرج جميعاً للجهاد مع الرعية والعسكر » واتجاه محمد علي الذي قال لهم : « ليس على رعية البلد خروج وإنما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر ؟ ! » (١) . لكن الشعب كان قد أخذ بيده زمام المبادرة بالفعل ، وقررت « جمعية بيت القاضي » كانت قد عرفت طريقها إلى التنفيذ والتطبيق ، وفي الوقت الذي تحولت فيه « رشيد » إلى معسكر شعبي يجسد وحدة الأمة وإصرارها على القتال ، كانت « المصادفة » - حسب تعبير الجبرتي - هي التي قادت بعض رجال محمد علي إلى هذه الناحية ، كي يشهدوا المعركة ، ويساهموا فيها ، ويقطفوا وحدهم ثمار الإنتصار .

(رشيد في المعركة الفاصلة)

وفي ٣ إبريل تحركت الحملة الإنكليزية الثانية إلى رشيد ، بعد أن جاءتهم الإمدادات والنجدات التي طلبها « فريزر » من « صقلية » ، وبلغ تعداد قواتهم هذه المرة ٢.٥٠٠ جندي يعززهم قوة بحرية هامة ، أي نحو من ضعف عدد قواتهم في الحملة الأولى . كما حاولوا الإستفادة من دروس الحملة الأولى ، فضربوا الحصار من حول المدينة متخذين من « إدكو » قاعدة خلفية لهم ، ثم زحفوا إلى « الحماد » ومرتفعات « أبو منصور » ونصبوا مدافعهم فوق التلال المحيطة برشيد . وكانت خطتهم أن يضربوا المدينة بالمدافع ضرباً مركزاً ، وأن يجبروها على الإستسلام دون أن يدخلوا بجنودهم وسط السكان .

غير أن هذا التفوق الإنكليزي في العدد والإستعدادات ، وذلك الحذر والتخطيط الجديد لم يغير شيئاً من تصميم الشعب على المقاومة والقتال . فكانت الخطة الشعبية هي الإستمرار في نفس الطريق الذي حقق النصر في

---

(١) المصدر السابق جـ ٤ ص ٥١ .

المعركة الأولى ، طريق الإنتصار على العدو بواسطة إلغاء فعاليات التفوق والميزات التي تمتاز بها قواته وأسلحته ومحاربوه .

● وبدأت المناوشات بين الفريقين ، المحاصرون يصبون نيرانهم على المدينة ، والمقاومة ترد عليهم بالنيران واضطر الإنكليز إلى توسيع دائرة الحصار كي يكونوا بعيداً عن مرمى نيران المواطنين ، فقام بعض أهل المدينة بصنع أنواع من الأسلحة البعيدة المرمى ، حتى قيل إنها كانت أبعد مرمى من أسلحة الإنكليز ؟ !

● ولما لم يجد هذا الحصار ، لجأ الإنكليز إلى سلاح جديد ، فأرسلوا رسلاً إلى داخل المدينة لتقسيم الصفوف وتفريق الكلمة ، وأخذوا يعدون التجار والأثرياء بالحماية والمحافظة على مصالحهم ، ويهددون الناس بأن الممالك في طريقهم لفك حصونهم وسياحة مدينتهم ، ولكن هذا السلاح قد فشل هو الآخر . .

● وبعد أسبوع من بدء الحصار أخذ المواطنون زمام المبادأة في الهجوم ، فأخذت سرايا من فرسان المدينة تخرج للهجوم على صفوف الحصار لاختبار نقاط الضعف فيه ، واكتشفوا أنها في منطقة « الحماد » ، كما أخذوا في جمع المعلومات عن العدو وقواته واستعدادته بواسطة الفلاحين والفلاحات الذين كانوا يخالطون جنوده في شكل عمليات للبيع والشراء في سوق ريفي يبيعون فيه البيض والسمن والدجاج ؟ ! .

● وفي يوم ٢١ إبريل سنة ١٨٠٧ م شن الوطنيون هجوماً على مواقع العدو عند « الحماد » حيث كان الكولونيل « ماكلنود » يتولى القيادة ، ودارت معركة باسلة وحافلة بالمعاني والدلالات استمرت ثلاث ساعات ، وقع فيها الغزاة بين القوات المهاجمة من رشيد وبين الفلاحين من أهل قرية « الحماد » ، وكانت المعركة الفاصلة ، في ذلك اليوم الذي هزم فيه الإنكليز للمرة الثانية ، حيث خسروا ما بين ١٣٠٠ و ١٤٠٠ من جنودهم ما بين قتيل وجريح وأسير ،

وهرعت فلولهم في غير رجعة نحو الإسكندرية في مشهد مرعب مهين على البلاد .

● ويصف جرتي هذه المعركة ، وسبب الشعب فيها مستحدثة لي أسلحة فعالة لتعوق تقدم الجيش المسلح للأعداء ، ودور الشعب الجبلي في كل ذلك ، فيقول : « كثر المتطوعون ، ونصبوا لهم البارق وأعلاما ، وجمعوا من بعضهم ذخرهم ، وصرفوا على من انضم إليهم من الفقراء ، وحرجوا في مواكب وطبول ورمور فيما وصبوا في متاريس الإنكليز ، فهجموهم من كل ناحية ، على غير قوانين حروبهم وترتيبهم ، وصدقوا في الحملة عليهم ، وألقوا أنفسهم في الميدان ، ولم يباشوا مرميهم ، وهجموا عليهم ، وخبطوا بهم ، وأدهشوهم بالتكبير والصياح حتى أبطلوا رميهم وبيارقهم ، فألقوا سلاحهم ، وطلبوا الأمان ، فلم يلتفتوا لذلك ، وقبضوا عليهم وذبحوا الكثير منهم ، وحصروا بالأسرى والرؤوس - على الصورة المذكورة - وفرّ الباقون على الإسكندرية »[1] .

● وصورة أخرى من هذه المعركة يقدمها لنا جرتي حيث يعلق بقوله : العربي محبوب في حقيقة مذهبه بعشيرته الحاضر ، فقد كان في صفوف المقاتلين « من جملة المتطوعين رجلان من أهل « مكة » يجاور بقسمين بمصر (يسمى أحمد البحيري ، وأخوه يسمى سلامة) ، كان في « الوقعة » يحمل مائة من عشيرته وغيرهم ، يقفون عليهم ويحرضونهم على الثبات ويعدونهم بالنصر ، ويقولون لهم في تدبيرهم ، وبدلا حيلهم في ذلك ، وهم يعدهم هزم الإنكليز وكسرهم ، فرقى ما عسى أن يبقى معهم من الأشياء على من خرج لحرب الإنكليز ؟ ! »[2] .

فهي إذن مقدرة الشعب التي أحدثت في هذه المعركة وفي سواها من المعارك التي ظهرت في خروج الشعب على المتطوعين بالحيلة والمكر من أجل حصار الأعداء ، والشعب لديه حيله في تكريه

(١) مصدر السابق ، جـ ٤ ص ٥ .
(٢) مصدر السابق ، جـ ٤ ص ٥٣ .

الشعب ليواجه بها تفوق العدو، ويكسر بها حدة هذا التفوق ... والتضامن العربي الذي تواجد في أرض المعركة بالدم والمال ... هي إذ التي حققت للشعب انتصاره على الإنكليز في رشيد في معركتي ٣١ مارس و ٢١ إبريل سنة ١٧٠٧ م، فكتبت بهذا النصر جولة ضد أعدائه الذين اضطروا لتوقيع شروط الإنسحاب والجلاء عن الإسكندرية في ١٩ سبتمبر من نفس العام ... بعد أن جاءوا ومن خلفهم أحلام التوسع والسيطرة التي راودت كل الغزاة هذه البلاد، رحلوا ومن ورائهم كلمة قنصلهم « مسيت » التي كتبها في ٢٢ إبريل، قائلا

« سوف يدهش العالم أجمع عند سماعه أن جيشاً أوروبياً قد عجز عن أخذ بلدة مثل رشيد »، لأنهم كانوا لا يزالون عاجزين عن الفهم والتقدير السليمين لروح الصمود والتحدي التي تميز بها هذا الشعب على مر التاريخ[1]

(١) [مصر في القرن التاسع عشر] جـ ٢ ص ٧١٢

معركة فتح عكا

[١٢٤٧ هـ ١٨٣٢ م]

هناك حقيقة هامة أغفلها ويغفلها عدد من الباحثين والمثقفين الذين تسربت إلى نفوسهم مشاعر اليأس وأحاسيسه بعد قيام إسرائيل ، وشنها الحرب ضد الوطن العربي في سنوات ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ م . اليأس من قدراتنا القتالية ، وكفاءة الجندي العربي ، والمصري بالذات ، في ميادين القتال .

ورغم إخلاص العديد من هؤلاء المثقفين العرب لأمتهم ، وحبهم لها ، إلا أن العزلة التي فرضتها عليهم ظروف حياتهم ، كمثقفين ، والتي ابتعدت بهم عن أماكن حياة ونشاط وتجمع الكتل الشعبية الأساسية التي يتكون منها شعبنا - فلاحون وعمال - إن هذه العزلة قد حرمتهم الرؤية الصادقة لمدى الصلابة والعناد المستترين خلف الطيبة والوداعة والهدوء التي يتحلى بها أبناء هذا الشعب . وهم المنبع الأساسي للمقاتلين الذين حشدتهم بلادنا على خطوط القتال منذ أن أعادت بناء جيشها في أعقاب عدوان ١٩٦٧ م .

وإذا كان تاريخ أية أمة من الأمم إنما يمثل بالنسبة لحاضرها ومستقبلها معالم تهتدي بها ، وتتعلم منها ، وطاقة هائلة تذكي في روحها قدرات بلا حدود . فإن تاريخ هذه الأمة العربية ، والشعب العربي في مصر بالذات ، حافل بالشواهد التي لا تقبل النقض على أن هذا الشعب الذي احترف صناعة

حضارة لسنمية منذ قدم العصور ، كان هو الشعب الذي قاوم وبقاً يصون مسيحة انصاره و قادرة على حمية هذه حضارة ومسرة خصومهم عبر التاريخ الطويل .

وعلى أن الفترات التي اعترضت ـ شذوذاً واستثناء ـ قيام هذه حضارة انصبه و لاضعه ، م يفقد هذا شعب قدرته القالية ولا كفاءة بقائه في ساحة بقاء ، بل لقد سكنت هذه القدرات في أعماقه ، وعاشت في عمقه ووجدانه ، تكمنه وتتفاعل معها صبره وتعده ، حتى تحين له الفرصة فتستعيد مجدها فيه ، بحطمة عدائه ، وعندئذ تصيب الدهشة والذهول كل أولئك الذين انعزلوا عن أعماق حياة هذا الشعب ، ويصيبهم الدوار من هول المفاجأة التي بدت لهم بعد أن حسبوا هذا الشعب لا طاقة له بالحرب ، بل فقد أساليه بالجد في ميادين القتال .

هذه الحقيقة التاريخية الشاهقة قد غاب وعيها وستكنه بعدها عن كثير من المحللين في صفوف المثقفين العرب ، ودعك من الأعداء الحريصين على طمس هذه الحقيقة كي لا تؤدي دورها في بعث هذه الأمة ، و حدها مكانها الطبيعي بين الأمم والشعوب .

الصحوة القتالية :

فهي بعقود لأولى من القرن التاسع عشر شهدت مصر قيام « دولة » حديثة ، في ظل حكم محمد علي باشا الكبير ، فتخلصت من نظام الإلتزام لاقطاعي ، ومن فرسان الإقطاع المماليك ، وسيطرت على وادي النيل وحدوده التي فرضتها عليها الطبيعة ، فوضعت حضارة ومستقبلها بمشورة الصفحات المشرقة في تراثها وتاريخها وكذلك الصفحات الحالكة في أعماقها وتضيفها أوروبا إلى التراث الحضاري للإنسان

وكان لا بد لهذه الصحوة من أن تصطدم بأعداء هذه الأمة بطبيعة الأشياء :

- التحالف الممثل في السلطة العثمانية
- والاستعمار الأوروبي ، الذي يرى في صحوة مصر وبعثها سبيلاً لبناء وحدة عربية تقيم في مركز العالم قوة كبرى تمحي كل أحلام مستعمرين ،

من الإسكندر ، إلى قمبيز ، إلى هرقل ، إلى نابليون ! .

وبعد حكم محمد علي باشا الكبير ، حكم مرتزقة من كل الأجناس ، والألوان ، والأعراق ... الخ ... حتى أن تصنع قوة عسكرية لمصر التي تحمي هذه الحضارة الخالدة ، فتحرر وتصحح هذه الشرذمة والخلاسية ... لأنها لم تكن مؤهلة كي تكون حامية لهذه الحضارة ... ووحده يحيى على ، أخيراً ، أن الإنسان الذي احترف صناعة الحضارة منذ أقدم العصور ، هو الوحيد المؤهل ، في هذه البقعة ، لحماية هذه الحضارة والدفاع عنها ضد كل الأعداء ... ففتح باب الجندية - [الجهادية] - أمام هذه الأمة في عشرينات القرن الماضي ، بعد أن كان موصوداً ، وبعد أن ظل موصوداً أمامها منذ عهد الدولة الفرعونية قبل الآف من السنين ؟!.

عكا يفتحها المصريون :

ومن بين المعارك الكثيرة التي خاضها الجندي العربي المصري الباسل في ذلك التاريخ تبدو معركة التي دارت له فيها حصون « عكا » المنيعة ، وركعت تحت أقدام قلاعها الحصينة في ٢٧ مايو ١٨٣٢ م ... بعد أن حاصرها وفيها الجنديين فيها - ومن ورائهم الإمبراطورية البريطانية العتيدة أشهر أيامه .

ولم تكن المعجزة التي حققها الجندي المصري ، بفتحه « عكا » ، فحسب ، فقد كان له فتح مدينة الحصينة التي يضرب بها المثل عبر التاريخ في الاستعصاء على الفاتحين المحررين - ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان في الأمر معجزة جديدة تشهد للجندي المصري بالتفوق في ساحات القتال .

● فهو قد فتح مدينة التي ضمت وقف الصليبيون ، بحشودهم الجرارة المؤلفة من خيرة فرسان العصور الوسطى ومزودة بالأسلحة الحربية التي أعدتها مصانع أوروبا الحربية بمعرفة الشرق ، أمهر العاملين ... وظلت وقفت هذه المدينة الصامدة عصية تأبى أن تهزم أو تستسلم لهؤلاء الغزاة ... حتى قد تبع الأمر بقوة حصونها ومنعة قلاعها الجندي الذي جعل لمدينة الشريد - [قلب الأسد] - أن يعلن عن جائزة كبرى لكل فارس من الفرسان ومقتل من المقاتلين يد ستطيع

أن « نهر » حجراً واحداً من سور هذه المدينة الحصين ؟ ! نعم ، مجرد « هز » هجر واحد من سورها ، كان بعد نصر تمنح له الجوائز الكبرى للفرسان المغاوير ؟!

● وهي المدينة التي صدت في ١٧٩٩ م - أي قبل ثلاث وثلاثين عاماً من فتح الجندي المصري المقاتل لها - صدت بونابرت ، وجعلته يتراجع مهزوماً من أمام سورها وقلاعها ، وهو القائد الذي فتح أوروبا وأذلها ، ثم جاء إلى الشرق كي يجرب حظه في ربوعه ويحقق فيه أحلام المستعمرين ، ردته « عكا » مهزوماً ، رغم رصيده ورصيد جيشه من الإنتصارات

● وهي المدينة التي زودها العثمانيون بالعدة والعتاد ، ومن ورائها حاميتها أسطول العثمانيين ، يساعده الأسطول الإنكليزي على أن تصمد المدينة في وجه المصريين . .

فلو اقتصرت ، إذن ، إنجازات المقاتل العربي المصري على مجرد فتح هذه المدينة ، لكان ذلك معجزة حربية تضع ذلك المقاتل في مكانه الصحيح والممتاز بين المقاتلين الشجعان .

ولكن الأمر لم يقف عند ذلك الحد ، بل تجاوزه إلى دروس في الحرب والقتال بالغة الأهمية ، تحولت إلى تقاليد عسكرية وقتالية أرساها هذا الجيش المصري العربي ، الذي كان يومئذ حديث التكوين ! . .

فعلى سبيل المثال ، لا الحصر تضيف هذه المعركة إلى سجل العسكرية والجندية المصرية هذه الدروس والتقاليد :

١ - في العلاقة بين القيادة السياسية وبين الجندي المقاتل على أبواب عكا ، كان الإتصال حياً ودائماً ، وباعث على الحماس والتشجيع باستمرار فمحمد علي يكتب إلى الجنود يتحدث إليهم عن دور الجندي في معارك القتال ، وعن قيمة الجهد ، وضرورة « التعب » في التدريب والقتال ، فيقول : « إن هذا « التعب » هو عين الراحة والشرف لكم ، وكلما زاد تعبكم يزداد شأنكم وشرفكم . لأن هذا شأن العسكري احتمال الأتعاب والمشقات ، والتقاء

صدمات لأعداء بقوة القلب وشرف لعساكر هجوم على حصون ، ودافعه من حرمهم شراب شوب ؟ ! « فندق هو السيل ، إسر ر » بسطوة لمصرية القاهرة » !!..

نعم لقد تحدث قدة مصر السياسية ، يوشه ، عن ب حب مقاتل وبعه وهو سرف ، وعن ن واجبه هو ئة حصن بعمو دة شرب شوب ! وعن ن بسطوة مصريه بقاهره ، هي حدها موسى في ساحات قتال ضد الأعداء!.

٢ وفي بعلاقه بين عبيده بعسكريه لمد سره ، يبرهم بعد ... حنوده ، تطالعنا أروع التقاليد في سجل الحندية المصرية

فهو يصوف بين جنوده ، يتحدث إليهم في دمقر طيه وحر ته وصر حه ، فيسأله أحد الجنود : كيف تطمئن في الأتراك ، و ت منهم ؟! فيجيبه بنفس على هذا السؤال بحدد بطبيعة هومية بمعركة ، وهدف مصر و ست بيجه بهضبة حبشة ، فيقول « أنا بست تركي ، في حين حثت مصر صبي ، ومنذ ذلك الحين مصرني شمسها ، وعمرت من دمي ، وجعلته دما عربيا ، ويضيف يا وره «مصطفى مختار» فيقول «إنما وإن كنا في لعالم موجودين في تركيا ، لكنا قد اكتسبنا لجنسية المصرية بحكم التوطن ، فقد حثت مصر قبل أن نحاور سن الصبا ، فلست الآن أتراكيا ، وقد تدمجنا في أمة أخرى أرقى وأنبل وأركى اندمجت في تلك لأمة العربية التي سقت أوروبا إلى الحضارة ، وارتدت أيام عزها وسوددها بذلك العمران الذي يتجلى لناظرين في المدن لزاهرة التي أنشأتها والعمائر الجميلة التي أقامتها ! »

وفي الأمر اليومي الذي صممه بقائد حطه هجوم على « عكا » يحدد للجنود دورهم فيقول « يجب أن يكون هجومكم شديدا ، يجب لا يسقكم العدو في « عكا » [موقع] لذي تقصدونه ، وبعد حصولكم في لمحل المقصود ، حلاً عسكره ، وتثبتوا فيه ثبات شجعان وأن تسمعوا بدء الضباط بكل دقة وانتباه ، وتعملوا بموجبه ! . . » .

فهو يطلب منهم سرعة الهجوم « كالنار » والتمسك بالمواقع والتشبث بها ، لأن ذلك يبعث اليأس إلى قلوب الأعداء ؟! كما يطلب منهم الصرامة في « الضبط والربط بميدان القتال » .

٣ - وفي مجال الحياة العسكرية الداخلية للجيش المصري تحكي لنا وقائع هذه المعركة ووثائقها عن ذلك التقليد العسكري المصري الذي صفه الجيش المصري في ذلك التاريخ ... فقد كان هناك رصد دائم للجهود التي يبذلها الجنود في ميدان القتال والتدريب ، وبعد المعركة تم « ترقية » الجنود الذين أجادوا وبرزوا إلى « صف ضباط » - وتعتبر ذلك العصر « ضباط عساكر » . ومن هؤلاء الجند الشجعان كانت تتكون « الأليات » خاصة هي بمثابة « القوات الخاصة » ذات الكفاءة العالية في القتال ! . .

ونحن لو ذهبنا نستقصي كل الدروس الهامة التي تقدمها لنا وقائع معركة « عكا » - والتي سجلتها وثائقها - لطال بنا الحديث ... ففيها عشرات الدروس التي تمثل بالنسبة للجندي المصري العربي والجيش الوطني تقاليد قتالية ، خبرات عسكرية أرساها هذا الجيش الشجاع ، الذي كان يومئذ حديث التكوين .

وكما قلنا ... فإن دروس هذه المعركة ، مضافة إلى فتح المدينة الحصينة ، التي استعصت من قبل على مشاهير الفاتحين ، كانت ولا تزال شاهد صدق للروح القتالية عند أبناء هذا الشعب العربي العظيم .

بل وأكثر من ذلك ... فإن تحرير « عكا » كان دائماً المهمة التي اقتصر انجازها على جيش مصر ! . .

○ حررها جند صلاح الدين الأيوبي ، الذين زحفوا من القاهرة ١١٨٧ م

○ ثم حررها جند مصر الذين قادهم المملك الأشرف ١٢٩١ م .

○ ثم حررها جيش مصر الوطني ، بقيادة إبراهيم باشا ، ١٨٣٢م . .

واليوم .. فإن بها جنينا للحرية والتحرير .. فهل يتخلى الجندي المصري العربي عن دوره التاريخي هذا ؟! ..

هيهات .. هيهات .. فإن هذا الجندي يشارك « عكا » وكل المدن العربية الأسيرة ـ ذلك الحنين والشوق للحرية والتحرير ؟ ! .

وثائق

الانتصار المصري في عكا

الأمر الذي لا شك فيه أن الحرب التي خاضها الجيش المصري في بلاد الشام بقيادة « إبراهيم باشا » والتي بدأت في ٢٩ أكتوبر ١٨٣١ م كانت حرب تحريرية ، استخدمت فيها الأمة العربية جيش مصر ، كقوة ضاربة ، كي تزيح عن ضميرها وكاهلها نيل الحكم العثماني الذي استمر أكثر من ثلاثة قرون .

ومن ثم كانت الدولة الموحدة التي قامت كثمرة لهذه الفتوحات ، والتي شملت سورية الكبرى ، وأعلت أنحاء شبه الجزيرة العربية ، وامتد نفوذها وتأثيرها إلى العراق ومنطقة الخليج العربي ، وذلك بالإضافة إلى مصر والسودان .. إن هذه الدولة الكبرى كانت أولى تجارب وحدات القومية العربية في العصر الحديث .

فكل المعارك التي خاضها الجيش المصري كانت ضد القوات التركية وضد الأسطول التركي ، وضد القوات الإنكليزية التي استعان بها الأتراك في ١٨٤١ م لتقويض دعائم هذا البناء .

وكل الدسائس التي حيكت ضد هذه التجربة الوحدوية قد صنعها المستعمرون وجواسيسهم ، والأتراك وعملائهم ، وأمراء الإقطاع المحليون الذين ساءتهم الإصلاحات الإقتصادية ومجالس الشورى التي أقامها النظام الجديد .

ولقد كانت المعارك الحربية التي خاضها الجيش المصري ، أثناء حملته هذه ، صفحة مشرقة للجندي العربي المصري ، وذلك رغم جدالة عهدها بالجندية النظامية (الجهادية) ، التي حرمه من شرفها الأتراك ومن قبلهم المماليك ، وأنظمة أخرى كثيرة عبر التاريخ

وهذه المعارك المجيدة التي خاضها الجيش المصري ، والتي ركعت نتيجة لها أمامه إمبراطورية كانت ومثلا مهيبة ومترامية الأطراف ، سجلتها ، وسجلت الحديث عنها العديد من الأبحاث والدراسات ، كما سجلتها وثائق لا يدري عنها الكثيرون شيئا !

وهنا نقدم مجموعة من هذه الوثائق تتصل بواحدة من معارك هذه الحرب ، تلك التي فتح بها الجيش المصري العربي حصون مدينة « عكا » ، التي ظلت طوال تاريخها الحربي الطويل عصية على أشهر الفاتحين .

ومن بين وثائق هذه المعركة التاريخية نختار خمس وثائق تتحدث بنفسها عن ظروف هذه المعركة وتطوراتها ، وتقدم لنا العديد من الدروس واللمحات .

● الوثيقة الأولى :

ذلك الخطاب الذي بعث به محمد علي باشا إلى الجيش المحاصر لعكا ! وهو خطاب يحمل العديد من المعاني التي تستحق العديد من الوقفات ، وذلك مثل :

● حديثه عن دور الجندي في معارك القتال ، وعن قيمة الجهد وضرورة « التعب » الذي عليه أن ينهض به ، وذلك عندما يقول : « إن هذا التعب هو عين الراحة والشرف لكم ، وكلما زاد تعبكم بمحاربات جسيمة مثل هذه ، يزداد شأنكم وشرفكم . لأن هذا شأن العسكري : احتمال الأتعاب والمشقات ، والتقاء صدمات الأعداء بقوة القلب ، وشرف العساكر : الهجوم على الحصون ، وإذاقة من حاربهم شراب المنون »

● وهو في هذا الخطاب يتحدث عن الجيش المصري ، « القوة المصرية » ، ويصف هذا الجيش وهذه القوة بأنها « السطوة المصرية القاهرة » محركا بذلك في نفوس الجنود الأمجاد الكامنة والمفاخر التي حققت هذا الشعب الصمود والانتصار على الغزاة عبر التاريخ الطويل .

● ولا ننسى محمد علي أن يحدث الجنود عن انتصاراتهم السابقة في « الحجاز » و « السودان » و « بلاد اليونان » ، وأن يقول لهم أنهم اليوم أمام حصون قد استعصت على مشاهير الفاتحين ، وفي مقدمتهم « نابليون بونابرت » ومن ثم فإن التاريخ يستعد كي يفتح لهم صفحة ضل يفتحها على الكثيرين .

● الوثيقة الثانية :

ذلك المنشور ، أو الأمر اليومي ، بلغتنا الحالية ، الذي وجهه قائد الجيش « إبراهيم باشا » إلى جنوده المحاصرين للمدينة ، والذي حدثهم فيه عن الإخفاق الذي حدث لهم في معركة خاضوها لاقتحام الأسوار ، وهو هنا يحرص على أن يضرب لهم من تاريخهم العسكري ، وخاصة في حروب اليونان ، أمثلة كثيرة على أن الإخفاق الجزئي وحتى « الهزائم » التي تحدث لهم في معركة أو أكثر ، لا تعني عدم حصولهم على النصر النهائي على الأعداء ، تلك خبرة الحرب ، وتجربتهم هم في اليونان ، يعيدها عليهم قائدهم ليزودوا بها ، روحاً معنوية عالية في حربهم للأعداء .

● الوثيقة الثالثة :

تلك الخطة الهجومية التي أعدها القائد « إبراهيم باشا » ونشرها على جنوده المهاجمين لحصون « عكا » ، والتي تعد من أغنى وثائق هذه المجموعة بالدروس والخبرات . ففيها :

● تلفت نظر جنوده إلى ما في سرعة الهجوم ، مثل النار ، من أمور تشل قدرات العدو على التصرف ، وتجعل المبادأة والمبادرة في جانب المهاجمين .

● وما في الثبات والاستماتة في الاحتفاظ بالمواقع التي يكسبون احتلالها من بعث لروح اليأس في نفوس الأعداء .

● وإلى ضرورة « الضبط والربط » أثناء المعركة ، والالتزام بتوجيهات الضباط والقادة ، لضمان جماعية التصرف والحركة .

● كي يعلم « إبراهيم باشا » جنده به وهو قائد ، معهم بناء الهجوم على حصون الأعداء .

● وأخيراً ... تقدم ... حقيقة هامة ، عندما يعد الجنود بأن مكافأتهم على النصر ستكون تحويل تشكيلاتهم العسكرية الخاصة إلى ضباط عساكر ... « ضباط صف » بلغة عصرنا ، ويضرب لهم مثل « الآي الارديان » الذي هو خلاصة الجند المنتصر والشجاع من بين ستة عشر « الآي » ... هذه الحقيقة الهامة تعلمنا أن « الترقية من تحت السلاح » لأبناء الشعب المقاتلين هي ... عريقة في تاريخنا العسكري ، ظلت ومورست على نطاق واسع وبشكل جماعي منذ ذلك التاريخ .

● الوثيقة الرابعة :

هي نموذج من خطابات التهنئة ورسائل « البشرى » التي بعث بها « إبراهيم باشا » إلى مختلف الأنحاء بعد تمام النصر جنده على الأعداء الذين « ليس لهم طاقة على الثبات أمام عساكرنا ، ولم يحتملوا شدة حربنا » .

● الوثيقة الخامسة

وهي الأخيرة في هذه المجموعة ، وهي تحكي لنا تقليداً عظيماً سلكه جيش في ذلك التاريخ ، عندما أمر قائده بتدوين كل ما يحدث على خط القتال ، حتى التفصيلات والجزئيات ، وأن تطبع مطابع الجيش ذلك ، حتى يكون محلاً للدراسة واستخلاص النتائج ، لتطوير ما هو جيد ، وتلافي النواقص والعيوب ، وأيضاً كي يكون هناك معيار صادق لترقية المجندين ومعاقبة المقصرين

وهذه المعلومات التي كانت تدونها قيادة الجيش ، على هيئة (مذكرات) نستطيع أن نستخلص من صفحاتها ، التي تحكي أحداث أيام أربعة من أيام الحصار العكا ـ العديد من الخبرات والدروس والمعلومات ، وذلك مثل

البطولات الفدائية التي كانت تحدث من الجنود المصريين عندما يقتحمون

[illegible] المشتعلة في ذخائرهم ومعداتهم ، فيطفئونها قبل أن تتمكن من إحداث الخسائر والإصابات في الأرواح .

● جهد الشاق الذي يبذله الجنود في حفر الخنادق المتعرجة ، والتي كانوا يسمونها « طريق [illegible] » ، والاستفادة من الأخطاء ، وتعديل الخطط تبعاً للدروس المستخلصة ، وتطوير الأسلحة ، وإحكام التصويب بعد دخول التجارب في هذه الأمور .

● وفي (المذكرات) التي دونت أحداث يوم الخميس (١١ رجب سنة ٢٤٧ هـ) نجد تقريراً مفصلاً عن جبهة الأعداء ، وعصبياته ، وروحه المعنوية ، ونقاط الضعف في جنوده وعتاده ، وذلك من خلال الاستفادة من معلومات [illegible] وقعوا في الأسر ، عندما التقى به [illegible] واستطاع أن يحصل منه على كثير من المعلومات .

ـ فالقائد التركي في المدينة المحاصرة « عبد الله باشا » قد [illegible] وترتيب الأجور اليومية للأهالي والجنود ، وذلك حتى يرفع من الروح المعنوية التي أخذت تنهار أمام الحصار وسمعة الجيش المصري وإصرار قائده .

ب ـ أما أهالي المدينة فإنهم قد شرعوا في التمرد على الأتراك ، وارتفعت الأصوات والصيحات المطالبة بإلقاء القبض على « عبد الله باشا » وتسليمه للمصريين .

ج ـ وعساكر الترك قد أخذ الرعب يستولي على قلوبهم ، ولم يعد أمامهم أمل في الصمود ، بل لقد أصبحت أمنيتهم هي الفرار بأنفسهم وترك المدينة وحصونها ، بل وترك ما لديهم من أمتعة وعتاد .

ولم يكن جيش الظافر بدون هذه المذكرات تلك المعلومات عن جبهة العدو كي تحتفظ بها قيادته للدرس فقط ، وإنما كان يذيع على جنوده كل ما يهمهم من هذه المعلومات ، وهو بذلك كان يقيم أجهزة التوجيه ، ورفع الروح المعنوية في صفوفه ، مما يتلاءم مع شرف الغاية التي كان يحارب في سبيلها في ذلك التاريخ . .

وبعد ... في هذه الوثائق ، علاوة على دلالاتها المحددة الخاصة بحملات العسكرية في غرب ... عشر ، تثير قضية كبرى وأشمل تتعلق بضرورة إعادة الكتابة للعديد من صفحات تاريخ ومعارك و لمعطيات هامة في حياة هذا الشعب عبر تاريخه ... الحضاري الطويل ... لاسيما عندما نرى الوثائق التي بين أيدينا الآن هي خمس وثائق جاءت ضمن أكثر من أربعة آلاف وثيقة خاصة بالسنوات العشر التي تواجدت فيها مصر و الشام بأكمله (١٨٣١ - ١٨٤١ م) وإن هذه الوثائق لجميعها ، لحديث من قبل ... المتخصصين في كتابة تاريخ الحديث هذه التجربة التوحيدية ... إذ علمنا ذلك بدت أمامنا الصورة المحددة التي نكاد ... تكون عليها صفحات تاريخنا إذ هي عندئذ على الحقائق المستمدة من مثل هذه الوثائق ... وأرى أنه في تكوين صورة ... ، وإذا ما أريد لهذه الصورة أن تزداد تألقا وجمالا وبريقا فإن هناك كي نضع حاضر و مستقبل بالتالي تاريخ هذه الأمة لعريق والمجيد . .

والآن ... ندع القارىء مع هذه الوثائق الخمس التي تحكي حصار الجيش المصري « لعكا » وانتصاره على حصونها التي قهرت « نابليون » وهي الوثائق التي نقدمها كما هي ، بأسلوبها ، الذي لم تستطع ركاكته للعروسة أن تحجب إحقيقة الرائعة المستكنة فيه

١ ـ من محمد علي باشا إلى الجيش المصري المحاصر لعكا [١]

أيها العساكر الفتيان ، عساكر الجهادية[٢] الشجعان :

إنه من المعلوم ... محاصرة ... عكا ... قضى هذا الشعب بعمه ، وتمسكت ضعفة ،

---

[١] ... بهذا الخطاب في ٢٠ شعبان سنة ٢٥٧ هـ (سنة ١٨٣٧ م) ... بكتاب « أحمد عزت باشا سيرته في عهد محمد علي باشا » . جمع وضبط الدكتور أحمد رمزي ص ١٠٥ ، ١٠٦ من المجلد الأول ... طبعة بولاق ، مصورة كلية الآداب ... جامعة الأزهر بكلية سنة ١٩٧٩ م

[٢] العساكر الجهادية هم الذين يطلبون للجهاد ... على ... في مقابلة من عدا ... في الشام

تحفر الطرقات العارية[1] ، وبناته الطوبي والمتاريس . وهذا جميعه مباشرين عمله أنتم لحد الآن بكل رغبة ونشاط

إلا أنه واجب عليّ بأن أيقظكم وأنبهكم دائماً إيقاظ الوالد إلى أولاده ، وهو أن هذا التعب هو عين الراحة والشرف لكم ، وكلما تزايد تعبكم بمحاربات جسيمة مثل هذه ، يزداد شأنكم وشرفكم ، لأن شأن العسكري احتمال الأتعاب والمشقات ، والتقاء صدمات الأعداء بقوة القلب ، وشرف العساكر الهجوم على الحصون ، وإذاقة من حاربهم شراب الموت

فها الآن قد قرب سقوط عكا ، واستيلائكم عليها بالسطوة المصرية القاهرة ، وعند ذلك تبنو الإسم الشهير عند الكبير والصغير ، بقوة شكيمة ، وشدة العزيمة نعم ... إن وقائعكم المشهورة « بالحجاز » و « الموزة » تشهد لكم ، ولكن بما أن إسم عكا كبير ، واستحكام تحصينها بين الأنام شهير ، الذي بواسطة طوبجيتنا وألقابهم قد عدا اسمها الكبير الآن صغيراً ، وحصونها مدمراً حقيراً ، فلأجل أن تطأ أسوارها بأرجلكم ، ويتحدث الركبان بروية من تبقى من الجيوش المختلفة فيها بفعلكم ، أطلب منكم أن تضاعفوا تلك الغيرة ، وتجتهدوا بالحق والإنصاف ، وتعلموا أن الثبات على هذا الإجتهاد هو الشرف والفخر ، لا الإقامة بالراحة على نيل مصر .

وبحوله تعالى وقوته ، بعد إتمام الترتيب المشروح به حسب المرام ، تدخلوا العساكر المصرية بالعلوة والإقتدار ، والغلبة والإفتخار ، وإذ ذاك تبنو الإسم الذي قصر عن نوالة غيركم ، وأنتم المحروسين ، وأنا بكم ، فبناء على ذلك أصدرت لكم هذا الخطاب إلى الديوان السر عسكري بصحراء عكا ، لتحيط علم كل منكم مضمونه ، وتعلموا موجبه ، والسلام عليكم ورحمة الله

---

[1] الطرقات العارية هي الخنادق المعرجة ، [illegible]
[illegible]

٢ ـ من ابراهيم باشا إلى جنوده المحاصرين لعكا[1]

إن هجومكم بهذا النهار على قلعة عكا، وطلوعكم على البرج المهدوم بأسرع وقت قد صيرني ممنون منكم، لأن هجومكم هجوم الجدعان، وإنما عدم توفيقكم بفتح القلعة المذكورة، فهذا سببه عدم اعتنائكم أمرنا بالهجوم، لأننا قد أمرنا الضباط بأنهم يسوقوا العساكر على الهجوم رطلة بعد رطلة، فالمذكورين استعجلوا، وساقوا العسكر سوية، فعجلت الضباط، وحزرتكم أنتم صاروا سبباً لذلك.

ولكن لا تأسفوا فيما حصل، لأنه بحمد الله تعالى أنتم جرى عليكم مواقع أكثر من هذه، وهي:

أولاً: واقعة «سليمان آغا عقل»، «ومصطفى آغا»، «وحاج عمر آغا» في محاصرة «نوارين» وبعدها الذي فتح «نوارين» القديمة و«نوارين» الجديدة وجزيرة «نوارين» أنتم، ثم ودخلتم بلاد «المورة» جميعها بقوة حربكم وسيوفكم.

ثانياً: واقعة الذي في «سوبنك» وبعدها وفقكم الله بفتح «سوبنك» إلى طوليكوس، وجزيرة «ساسيني» وعدتم إلى «المورة» أيضاً بصولتكم المصرية[2].

فواقعة هذا النهار في عكا، مثل الوقائع السابقة المذكورة، يعني إذا كنتم بهذه الهجمة ما توفقتم بفتح عكا، لا بد إن شاء الله من فتحها بقوة حربكم وشجاعتكم، وتصولوا في بلادها كما صلتم في «المورة»، فيلزم تسهو إلى مسح سلاحكم وتنظيف أثوابكم وأكلكم وشربكم ومنامكم والسلام.

---

(١) [illegible] سنة ١٢٤٧ هـ (سنة ١٨٣٢ م) المصدر السابق [illegible] ص ٣ [illegible]

(٢) حدثت هذه الوقائع في بلاد اليونان سنة ١٨٢٧ م

٣ ـ من ابراهيم باشا إلى جنوده خطة الهجوم على حصون عكا [1]

إنه يحسن ما تعهد فيكم من الشجاعة والرجولية ، وحروب التي حربتموها في الحجاز في الآن ، طالما حصوركم هذا الطرف ، فحصرتم ، وقد تحسكم لأن عدم رؤية الهجوم على عكا ، من دون كفة العساكر ، وتحسب بوقتكم وحسن قيامكم بتكاليف أمورنا الهجوم ، فوقت التي صارت عكا فيه خصيصة ، وعدمه القيد من الحصن والعسكر ، فبذلك نسه عسكم وبقتكم ذلة تحارب في تعدو بالهجوم ، فتكون بدفكم بالكم ويكون هجومكم مثل السر ، بحيث لا يسبق العدو وتمسك المحل الذي تكونوا أتم قاصدينه فيكم ، وبعد وصولكم إلى المحل المقصود ، حالا تكونوا وتشتو فيه ثبات الشجعان ، ولا تخشوا من مجيء لأعداء عليكم ، لأنهم حينه بالسيوف فحرب بدفكم هون من سيوفهم ، وإن حاربتم في فالنار الدائمة التي معتمتهم بها من قبل خمس عشرة سنة بل لأن ؟ حربتوها فعلى قواس كل واحد من الأعداء أحدكم بقوس عشرة

وبخصوص خسارة ، فعساكر اشترك نحن بعدمها ضبه ، إن ما عندها بصف خسارتكم .

فها أنا عسكر ، ماشياً بالهجوم معكم ، فيسعى أن حضور معكم هو

أولا في سرعة التي بالهجوم ، وفيه بالتي في بعض بالمحلات التي تعسكرها حسب الاقتضاء

ثانيا إنكم تسمعو بدء لضبط بكل دقة واسه ، وبعمو عموحه ، ولا بعمو شيء من عسكم فمن حضم هذه بسه فأنتم بحارب الله على مقصورين ، وبوقتي بمنح قبعه عكا التي صارت لأن بحارب بضعه ، إن شاء الله بعدي بعد بوقتكم بموجه بحصل لأنكم بضبط ضباط عساكر لأي

---

(١) تاريخ هذا المنشور ٢٢ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ هـ (سنة ١٨٣٢ م) المصدر السابق المجلد الأول ص ١٣٣ وقد جاء في (المخطوطة الخشبة) التي نقل عنها في ص ٣٦٨ هـ بضعة « ويفتح من شمة الضرب أربعة مخلاب في سور ، ثم يسد ضم ... وتضع في المطمرة ، وتضرب على العساكر ، وهذه ضوابط حربية »

وردينا ثاني ، وبصير علايقكم[1] وبياشيكم وكساويكم مثل الآي الأوردينا التي تجمع من ستة عشر الآي حتى حصل على هذه النعمة ، فأنتم مرتعون حصلوا عليها بالايكم بتمامه ، فاحفظوا مقام هذه الغاية ، واحفظوا تسهيل هذا ، واعملوا بموجبه

٤ ـ ابراهيم باشا يبلغ الأمير بشير الثاني بفتح عكا[2]

فتحار الأمراء الكرام ، مراجع الكبراء الفخام ، حضرة حبيب الأمير بشير ، حفظه الله تعالى

عنا[3] التحية والتسليم ، بمزيد الإعزاز والتكريم

المنهي إليكم ، أنه أمس ، تاريخه : يوم الأحد المبارك ، قد هجمت عساكرنا الظافرة ، بالقوة والسطوة الباهرة ، على عكا ، وفي حال صعدوا إلى أسوارها[4] وتملكوها ، ووطئوا أبراجها الرفيع بأرجلهم ، وداسوها بقوة الحرب والنار الدائمة .

وبما أن الأعداء لم يتملكوها من حيث أن ليس لهم طاقة على الثبات أمام عساكرنا ، ولم يحتملوا شدة حربنا ، فحالا رفعوا الرايات البيض ، وطلبوا الأمان ، ومن حيث أن العفو صدقة ، فرحمة منا على الحريم والأطفال وقبلنا الأهالي الذين داخل عكا ، قد أنعمنا بالأمان على الجميع ، وأخرجنا عبد الله باشا[5] ، وكتخداه[6] ، ودائرته على أوردينا المنصور ، واستولينا على عكا قهراً ، والحمد لله رب العالمين .

فلأجل إعلان هذه البشرى الموجبة السرور والأفراح للجميع ، جرى

---

(١) العلائق : المؤن والتموين للمقاتل ولعدته من الخيل إذا كان فارساً

(٢) المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨

(٣) أي بعد التحية

(٤) أسوارها

(٥) قائد الجيش الذكي في عكا

(٦) نائب قائد الأتراك

لكم مرسومنا هذا من ديوان معسكر عكا ، لتعلموا مضمونه بالحيث والسرور ، وتداموا على الدعوات الخيرية بدوام دولة سعادة افندينا ولي النعم ، ايدنا المعظم . والله يحفظكم .

تحريرا في ٢٧ ذي الحجة سنة ١٢٤٧[1]

لإمضاء

خالص الفؤاد ابراهيم

والي جدة والحجاز وساري عسكر عكا حالا

٥ ـ مذكرات قيادة الجيش المصري المحاصر لعكا[2]

لأربعاء ١٠ رجب ١٢٤٧ هـ ١٨٢٢ م

* صورة أعمال نهار الأربعاء في ١٠ رجب : تركت ثلاثة قبوسات ، كلتهم[3] بواحدة عشرين أقة ، و[illegible] كلتهم كل واحدة أربعة عشر أقة في متاريس مسكرنجي الآي [illegible] أي أن العسكر المحاصر بمحافظة جسم والي الأمر فابتدوا بالضرب على عكا ، ويأتوا بالضرب على الصور[4] ، فظهر منه رديء للغاية

* وقد ضرب من عكا قنبرة[5] ، فنزلت من قرب كلل القبوسات المحاصرين للضرب فأخذت نارها بالكلل ، وفقعت ثلاث عشر كلة ، وبالحال تفرغ من

---

(١) سنة ١٨٣٢ م

(٢) المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٨٩ ـ ٩٤ ، وفي « المخطوطة الحسنية » المنقولة عنها هذه المذكرات ، مذكور في ص ٣٣ « وأما ابراهيم باشا كان يصحب معه مطابع تطبع كل ما يحدث في كل يوم ، وقد أمر أن يكتب ما يصنعوه في كل يوم ، وهذه صورة أعمال نهار الجمعة في ١٠ رجب »

(٣) الكلة ، جمعها كلل نوع من القذائف ترسل مشتعلة بالنيران

(٤) الصور

(٥) قنبلة

الصوحبة محمد حويش الإسكندراني، وأحمد، ومحمد [illegible] قرب [illegible]، وهجموا على [illegible] وأطفئوها [illegible]، هؤلاء الفتيان الشجعان [illegible] ومن [illegible] التي احترقت ما [illegible] ضرر لأحد [illegible]

* ثم [illegible] الليلة [illegible] لآلاي [illegible] مقام النبي صالح، فكان شغلهم [illegible] قليل

* لآلاي الثامن [illegible] في فتح طريق [illegible]، حتى يصل إلى مقام النبي صالح، وصار له [illegible] يشتغل ولم يزل ما وصلوا

* لآلاي العاشر [illegible] من جهة [illegible] إلى [illegible] فهذه [illegible] كان شغلهم قليل، لكون [illegible] همتهم كانت جزئية

* أشغال لآلاي الحادي عشر [illegible] عظيمة، [illegible] مع طرقات [illegible] أي [illegible] حتى لا [illegible] من الأطوار [illegible] جميعه [illegible]، ووصلوا [illegible] من قلعة عكا

* ثم [illegible] التي تنصرف على عكا كانت [illegible] الأمر [illegible]، وأكثرها [illegible] قبل وصولها، [illegible] إلا بعد وصولها إلى المحل المقصود

الخميس ١١ رجب ١٢٤٧ هـ ١٨٢٢ م

أعمال نهار الخميس [illegible] من عكا، [illegible] من [illegible]، [illegible] خروجهم من [illegible] البحر، [illegible] إلى [illegible] فتكلموا معهم [illegible] في [illegible] عليهم [illegible] في [illegible] الخميس [illegible] كان الخروج [illegible] فعرض [illegible] هو [illegible]

[illegible]

[illegible]

باشا ، وعن الشيء الذي حصل نهار الجمعة لما صار الشبك [illegible]

إن عبد الله باشا موجود في البرج الكبير ، والطبجية [illegible] العساكر والطبجية الذين موجودين في عكا متفرقين على الأسوار والأبراج . وعبد الله باشا [illegible] من البرج صدفة [illegible] نهار الجمعة ، [illegible] وبقية العساكر مخوضين[2] جميعهم ، فسألهم عبد الله باشا [illegible] السبب هذه الصوصة[3] [illegible] توجب خوفهم لأنهم نظروا غياب عساكر ابراهيم باشا ، وسمعوا عن الإقدار الذي موجود بنفس ابراهيم باشا [illegible] عرضوا عن ذلك [illegible] خواطرهم ، [illegible] الطبجية في كل نهار [illegible] قروش ، ومن هناك في التدريج .

[illegible] قاضي عكا [illegible] عبد الله باشا [illegible] على أولاد [illegible] ، [illegible] بكل نفر يومية قرشين ونصف [illegible] نهار الجمعة [illegible] على موجب [illegible] الذين [illegible] عنه ، [illegible] إبراهيم باشا [illegible] الطبجية [illegible] ، [illegible] العسكر [illegible] ، [illegible] الطبجية [illegible] المدافع على [illegible] ، [illegible] الحرب الذي حصل [illegible] على [illegible] ، [illegible] على [illegible] ، [illegible] عسكر عبد الله باشا [illegible] ، [illegible] نفر ، وإن حميد آغا الهوارة [illegible] .

ومن حرب يوم الجمعة [illegible] في ٥ رجب [illegible] الصوصة[5] أي المركب ، [illegible] على [illegible] المطر ، [illegible] نهار من الطبجية [illegible] العساكر [illegible] على الأسوار [illegible] ،

(١) محاولة ضرب المدينة

(٢) [illegible]

(٣) الصوصاء

(٤) رماة القنابل

(٥) الأسطول

ومن ولاة عند أنصاف ، ومنهم من ينتظر تحت سرداب ، حتى أن الخريم خرج من السوق بالمصرح والعويل . ويقولون يمكر عبد الله باشا وسلموه وإنه شغل على قلوب العساكر خوف كثير وفي يوم صار خبر الصباح ، وجمعت الضحية ، وصبروا منهم ينتظرون من ساعة ، إلى ساعة لا طاقة لهم ، لا جند على الوقوف قدام القوة بدي على عكا ، ولوقت أرضاهم عبد الله باشا بزيادة المائة[1] وجعل لكل نفر منهم ومن العسكرية يومية ستة قروش ، ومع ذلك لم ترل العساكر في قلق زائد . ويريدون الخروج من عكا بأنفسهم سالمين ويتركون جميع متعلقهم ، والأهالي جاعلين على جوع عظيم ، وإن عبد الله باشا رتب إن رجل لأهل لكل نفر قرشين ونصف ، وجعل عليهم ناظر اسمه ثم وجه يقول لعبد الله باشا مع جرنه يدري في خروج جريه لا يخرج بعد ، وفي بعض الأوقات يطبع كتخداه ساطره[2] لأخرج ، وهو مقيم جهة برج كريم ، وبرنس قبرة من خارج على كسبة سوريه هدمتين ، وبهما بعسكر كفة الأولى موجودة فيها فهد بدي قرروه للضحية بدي عبده الشرح بخروجهم .

* * *

* ثم من يم المتاريس ثم جمع يتورم به ، من عند قبع ونصارى وقسوت وصوريخ صاهم مستحدة ، من جند شيخ صالح بدي تحت بن بحجار بنصرت من داخل الضحضاحة جند عزبة بن بشطة بحر ، ومن طرف نصارى بدي على شاطىء البحر جهة عزبة بن صدر لأخر نتارس من مطرح ما بحن ذكرين جند عصر البريد ـ لي كان عمرها سابق وهدمها جند لأعوبة ـ تقدم إعراض[3] بن الضحضاحة صدوب كفة في نصارى ، ومن لكل ونصارى بعد يبرم فجلا صبه لأمر بشريت بن كبر بعسكر ، فأمر لبوا بادبو عسكر بقدام تحت مطبوب من رمله جنب ، فجلا سهره

(١) لأجر
(٢) ينظر في أحواله وتصرفاته
(٣) اقتراح

الأمر على عسكر النظام المنصور ، وتوجهوا إلى الرملة ، وقد كان في ليلة واحدة [illegible] عشر ألف قطعة من كيل وقنابر ، وكل رملة[2] حمل قطعة ، وطابية العشر مدافع الذي شرع بعمارها بجهة اليمين بجانب البحر قدام برج كريم قد خلصت بهمته العالية بمأمورية أمير لواء علي الماردي سليم بك الفرنساوي وقاسم [illegible] المهندس وأربعة بلوكات من البطيخية مع بكتاشهم وعربات المدافع حضروا ، فالطابية المذكورة والمدافع أمر بتخليصهم أمير لواء بك سليمان

* (أتم) عساكر الآلاي الثاني عشر هذه الليلة بناية المتاريس وخلاص طرقات الفار اللازمة .

* متاريس الآلاي العاشر هذه الليلة بواسطة اجتهاد عساكره اتصلت مع متاريس الآلاي الثاني عشر ، وشغل عساكر الآلاي المذكور بهذه الليلة ما عليه كلام

* إنما أمير لواء علي بك وإبراهيم [illegible] فالموقف إليهما من عدم مجدهم بهذه الليلة لا خلصوا الطابية ولا حضروا المدافع .

* الآلاي الثامن بالحقيقة إن الآلاي المذكور قوي ، حصل منه عدم همة بشغل طرقات الفار اللازمة لمتاريس

* الآلاي الثاني عشر متاريسه تقدمت بجانب يمين الشيخ [illegible] ، وشغل العسكر بهذه الليلة بتحصيل مثالة متاريس وطرقات الفار ، وتخرج واحد من الأنفار من عسكره في يده بالرصاص من ضرب عكا .

الجمعة ١٢ رجب ١٢٤٧ هـ ١٨٣٢ م

نهار الجمعة في ١٢ رجب العشر مدافع الذي أمر بإحالتهم [illegible] سليمان بك إلى الطابية التي بجانب البحر قد حضرهم حسب مأمورية وبارهم في طريق [illegible]

[illegible]

[2] [illegible]

* الآلاي الثاني عشر . قد خلص شغل المتاريس وطرقات [illegible] بالتمام ، وهذه الليلة اشتغل شغل طيب ، بكل اجتهاد ، [illegible] للوكتاشي الآلاي المذكور عمل قلة عقل زائدة ، لكونه فضلا عن [illegible] نتيجة العساكر من المتاريس ، بل قد أخرجهم [illegible] بالاجتهاد بالشغل ، فبواسطة قلة عقله هذا قد فقد من العساكر بالرصاص من [illegible] من عكا بسبب قلة شغله

* الآلاي [illegible] [illegible] العسكر بالطلوع من المتاريس جهة [illegible] مقام النبي صالح ، ومن حيث ان تلك الجهة مكشوفة ، فضرب عليهم من عكا مدفع رشاش [illegible] [illegible] شغل الآلاي [illegible] [illegible]

* أمير لواء العرديا [illegible] قد أمر العساكر من الآلاي [illegible] [illegible] في هذه الليلة يتركبوا على عرباتهم بالطابية [illegible]

* طابية القبوسات . . . . . التي تنسب أولا إلى الصلحة ، [illegible] [illegible] من عكا [illegible] [illegible] وخرجت [illegible]

السبت ١٢ رجب ١٢٤٧ هـ ١٨٢٢ م

* أعمال نهار السبت في ١٣ [illegible] [illegible] [illegible] وان يوضعوه بالمتراس عند النبي صالح

[illegible]

* [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

بشراقة القمر ، ما استطاعوا عن التمادي بالشغل في طرق الغدر

محتويات الكتاب

تقديم ٥

معركة القادسية : ١١

معركة حطين : ٣٣

الشرق يحل مشاكل الغرب ٣٤

ماذا صنعوا بالشرق ؟ ٣٦

العرب يستيقظون ٤٢

في الطريق إلى حطين ٤٧

المعركة المصيرية ٤٨

تحرير القدس : ٥٥

الجبهة الشرقية والجبهة العربية ٥٦

وصولاً إلى أسوار المدينة المقدسة ٥٨

الصليبيون يرفضون المعركة ٦٠

القدس تعود والصليبيون يرحلون ٦٣

المغزى من كل الحكاية ٦٤

معركة دمياط : ٦٩

البرج أقفل الدير المصرية ٧١

ثغرة في الجبهة الداخلية ٧٣
دمياط تقاوم ٧٤
مصر تحشد طاقاتها ٧٦
الجبهة الشرقية في المعركة ٧٨
القتال والانتصار والجلاء ٨٠
معركة المنصورة : ٨٩
مصر تتحرك لتوحيد الجبهة ٩٢
وحدة المشرق تعود ٩٤
انذار يقابله تحدي ٩٩
انسحاب غير مفهوم ١٠٠
على جبهة المشرق العربي ١٠٤
السلطان يموت والصليبيون يتقدمون ١٠٥
مناوشات ١٠٦
المعركة الفاصلة ١٠٩
الدرس والنهاية ١١٢
معركة عين جالوت : ١١٥
بغداد وما حدث لها ١١٩
الشام بعد بغداد ١١٩
الاستعداد للقتال ١٢٤
الخروج للقتال ١٢٧
المعركة الحاسمة ١٢٨
المغزى والنتيجة ١٣١
معركة بونابرت ضد الشخصية العربية : ١٣٣
غزو الشخصية المصرية ١٣٤
يحتفل معهم بالمولد ١٣٦
يستعين بالقضاء والقدر ١٣٧

يشاركهم في وفاء النيل ١٣٩
سقوط الأسطورة ١٤٠
لا تعايش مع الغازين ١٤١
الانتصار العظيم ١٤١

معركة رشيد : ١٤٣
دائماً يخطئون الحساب ١٤٤
الأتراك يستسلمون ١٤٦
والمماليك يخونون ١٤٨
وسلطة محمد علي تنهار ١٥٢
الشعب يقاوم وظهره للحائط ١٥٣
رشيد في المعركة الأولى ١٥٤
رشيد في المعركة الفاصلة ١٥٨

معركة فتح عكا : ١٦٣
الصحوة القتالية ١٦٤
عكا يفتحها المصريون ١٦٥
وثائق الانتصار المصري في عكا ١٦٩

توزيع
دار قتيبة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - ص.ب: ١٣٤١٤
بيروت - ص.ب: ١٣٥٠١٦